



سلسلة العلوم الاجتماعية

سر راس المال

لماذا تنصر الرأسمالية في الغرب وتفسد في كل مكان آخر؟



ترجمة: كمال السيّد

لهرناندو دي سوتو

سِرُّ رَأْسِ الْمَاءِ

لماذا تنصرف الرأسمالية في الغرب، وتقتل في كل مكان آخر؟



برعاية السيدة
سوزان مبارك

المشرف العام د. ناصر الأنصاري
الجهات المشاركة جمعية الرعاية الشاملة المركية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

المجلس القومي للشباب

وزارة التنمية الاقتصادية

تصميم الغلاف
د. مدحت متولي

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب



سِرُّ رَأْسِ الْمَالِ

لماذا تنقص الأسهم في الغرب وتفضل في كل مكان آخر؟

هرناندو دي سوتو



سر رأس المال

لوحة الغلاف من أعمال الفنان : فاروق شحاتة

دى سوتو ، هرناندو .

سر رأس المال : لماذا تنتصر الرأسمالية في الغرب وتفشل في كل مكان آخر/ هرناندو دى سوتو . ط ١ . - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٩ .

٢٨٨ ص : ٢٤ سم (أسرة ٢٠٠٩ - ع . اجتماعية).

تدمك : ٠ - ٠٤٤ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .

١ - الرأسمالية .

أ - العنوان .

ب - السلسلة .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٧٦ / ٢٠٠٩

I.S.B.N 978-977-421-044-0

ديوى ١٢٢، ٣٣٠

Ambly

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

توطئة

انطلقت فعاليات الحملة القومية للقراءة للجميع فى دورتها التاسعة عشرة هذا العام تحت شعار «مصر السلام». هذا الشعار الذى ظلت السيدة الفاضلة سوزان مبارك تطرحه منذ بداية تنفيذ حلمها ليصير الكتاب زاداً متاحاً للجميع، وتصبح القراءة عادة لدى الأجيال الجديدة. لقد ظلت الدعوة للسلام تحلق فى فلك دورات المهرجان السابقة. فهى جزء من تاريخ مصر العريقة، التى بدأت الحضارة على أرضها، منذ وقّع رمسيس الثانى أول معاهدة سلام. لم يكن هناك حينئذ من يضاهيه تقدماً أو قوة، ولكنه كان يُعلم العالم أن من شيم الأقوياء التوق إلى السلام.

لقد جرت فى النهر مياه كثيرة منذ حازت السيدة الفاضلة سوزان مبارك جائزة التسامح الدولى لعام ١٩٨٨ من الأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون التى جاء فى تقريرها «إن الأكاديمية منحت الجائزة للسيدة سوزان مبارك عرفاناً بدورها الكبير فى إذكاء روح التسامح وطنياً وإقليمياً وعالمياً، وتقديرًا لجهودها الجادة»، وأصبحت القراءة للجميع من أهم المشروعات الثقافية

العمللاقة فى العالم العربى، وتم اتخاذه نموذجاً يحتذى به فى بلاد أخرى.

ومازالت مكتبة الأسرة، كرافد رئيسى من روافد القراءة للجميع، تقوم بدورها فى إعادة الروح إلى الكتاب كمصدر مهم وخالد للمعرفة فى زمن تزحف فيه مصادر الميديا المختلفة. فالكتاب هو الجسر الراسخ الذى يربط ذاكرة الأمة وتاريخها وإنجازاتها بأبنائها، وهو الفضاء الساحر الذى يلتقى به المثقفون والمفكرون والمبدعون بالأجيال المختلفة.

وتواصل مكتبة الأسرة هذا العام نشر أمهات الكتب، وستستكمل نشر تراث الأمة الإبداعى، وستعمل على ربط الكتاب بمصادر المعرفة الحديثة كالإنترنت، وعلى التوسع فى إصدار كتب الفنون المختلفة كالمرسح والموسيقى إيماناً منها برسالة الفنون الرفيعة لتنمية وتطوير وتهذيب روح المجتمع، وحمايته من ضروب التعصب والكراهية والعنف الدخيلة عليه.

وتصدر مكتبة الأسرة هذا العام من خلال سلاسلها المختلفة.. الأدب والفكر العلوم الاجتماعية والعلوم والتكنولوجيا والفنون والمثويات والتراث وسلسلة الطفل، وستشكل هذه السلاسل بانوراما معرفية وتاريخية وعلمية وإبداعية وفكرية، وتمثل مرآة لاجتهادات الفلاسفة والشعراء والعلماء والمفكرين عبر قرون لتحقيق السلام للبشرية من خلال حلمهم الدائم بتحقيق الخير والعدل والجمال.

مكتبة الأسرة

المحتويات

١	■ الفصل الأول : أسرار رأس المال الخمسة
١٥	■ الفصل الثاني : سرّ المعلومات الغائبة
٣٩	■ الفصل الثالث : سرّ رأس المال
٦٩	■ الفصل الرابع : سرّ الوعي السياسى
١٠٥	■ الفصل الخامس : الدروس الغائبة عن التاريخ الأمريكى
١٥٣	■ الفصل السادس : سرّ الفشل القانونى
٢٠٧	■ الفصل السابع : من قبيل الخاتمة
٢٢٩	■ الهوامش
٢٤١	■ شكر وتقدير
٢٤٩	■ التذييلات
٢٥٩	■ الفهرس

الفصل الأول

أسرار رأس المال الخمسة

إن المشكلة الأساسية هي التوصل إلى السبب في أن هذا القطاع من مجتمع الماضي، الذي لن أتردد في أن ادعوه بالرأسمالي، كان لابد وأن يعيش في ناقوس زجاجي، معزولا عن الباقي حوله؛ والسبب في أنه لم يكن يستطيع التوسع ويغزو المجتمع كله؟ ... (ما هو السبب) في أن معدلا كبيرا من تكوين رأس المال لم يكن يمكننا إلا في قطاعات معينة، وليس في كل اقتصاد السوق في ذلك العصر؟

— فيرناند برودل، «عجالات التجارة»

إن اللحظة التي تحقق فيها أكبر انتصار للرأسمالية هي لحظة أزمتها. فقد أنهى سقوط سور برلين ما يزيد على قرن من المنافسة السياسية بين الرأسمالية والشيوعية. وبرزت الرأسمالية وحدها باعتبارها الطريق العملى الوحيد لتنظيم اقتصاد حديث على نحو رشيد. وفي هذه اللحظة من التاريخ، لم يكن هناك خيار لأى دولة مسؤولة. ونتيجة لذلك، وبدرجات متباينة من الحماس، حققت بلدان العالم الثالث، والبلدان الشيوعية السابقة توازن ميزانياتها، وخفضت الدعم، ورحبت بالاستثمار الأجنبى، وقللت حواجزها الجمركية.

وكانت ثمرة جهودها خيبة أمل مريرة. فمن روسيا إلى فنزويلا، كان نصف العقد الماضى زمنا للمعاناة الاقتصادية، والدخول المنهارة، والقلق، والسخط: زمنا «من الموت جوعا وأعمال الشغب والسلب»، على حد تعبير الكلمات القارصة لمحاضر محمد رئيس وزراء ماليزيا. وقد ذكرت «النيويورك تايمز» فى

افتتاحية أخيرة لها أنه «فى كثير من أنحاء العالم، تم فرض قيام السوق الذى مجده الغرب فى زهو الانتصار فى الحرب الباردة، مع ما سحب ذلك من قسوة الأسواق، وحذر من الرأسمالية، ومخاطر عدم الاستقرار». إن انتصار الرأسمالية فى الغرب وحده يمكن اعتباره طريقا لوقوع كارثة اقتصادية وسياسية.

وبالنسبة للأمريكيين الذى يتمتعون بالسلام والازدهار على حد سواء، كان من السهل تماما تجاهل الاضطرابات التى تحدث فى أماكن أخرى. فكيف تعاني الرأسمالية متاعب فى الوقت الذى يتصاعد فيه مؤشر داو جونز الصناعى بقدر يفوق مؤشر سير ادموند هيلارى؟ إن الأمريكيين ينظرون إلى الدول الأخرى ويرون أنها تحقق تقدما، حتى وإن كان بطيئا وغير متكافئ. ألا تستطيع أن تأكل سندوتشات «بيج ماك» فى موسكو، وتستأجر شريط فيديو من «بلوكباستر» فى شنغهاى، وأن تتصل بالإنترنت فى كاراكاس؟

ومع ذلك، فحتى فى الولايات المتحدة، لا يمكن تبديد الهواجس كلية. فالأمريكيون يرون أن كولومبيا تقف على شفا حرب أهلية كبرى بين عصابات مهربي المخدرات، والميليشيات الساعية لقمعها، وأن هناك عصيانا مستعصيا على الحل فى جنوب المكسيك، وأن جزءا مهما من النمو الاقتصادى المفروض بالقوة فى آسيا يستنزفه الفساد والفسوضى. وفى أمريكا اللاتينية، يضمحل التعاطف مع الأسواق الحرة: فقد انخفض التأييد للخصخصة من ٤٦ فى المائة من السكان إلى ٣٦ فى المائة فى مايو ٢٠٠٠. ومما يندّر بشر مستطير أكبر، أنه تبين أن الرأسمالية غائبة فى البلدان الشيوعية السابقة، وأن الأشخاص المرتبطين بالنظم القديمة متأهبون لتولى السلطة. ويعتقد بعض الأمريكيين أيضا أن من أسباب ازدهارهم الذى استمر عقدا من الزمان هو أنه كلما بدأ باقى العالم أكثر تقلّلا، زادت جاذبية الأوراق المالية والسندات الأمريكية كملاذ آمن للنقد الدولى.

ويثور فى مجتمع الأعمال فى الغرب، قلق متزايد من أن فشل باقى العالم فى إقامة الرأسمالية سيدفع فى نهاية الأمر للاقتصادات الغنية إلى الكساد. وإن يستخلص الملايين من المستثمرين دروسا مؤلمة من تبخر أموالهم فى

الأسواق الناشئة، تغدو العولة طريقا مزدوج المسار: فإن لم تستطع بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة الإفلات من تأثير الغرب، فإن الغرب نفسه لا يستطيع أن يعزل نفسه عنها. كما طفقت ردود الأفعال السلبية تجاه الرأسمالية تزداد قوة في البلدان الغنية نفسها. وتلقى أعمال الشغب التي وقعت في سياتل في اجتماع منظمة التجارة العالمية في ديسمبر ١٩٩٩، وبعد ذلك ببضعة شهور في أثناء اجتماع صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي في واشنطن العاصمة، بغض النظر عن تباين الشكاوى، الضوء على الغضب الذي تثيره الرأسمالية الأخذة في الانتشار. وبدأ كثيرون يتذكرون تحذيرات المؤرخ الاقتصادي كارل بولاناي من أن الأسواق الحرة قد تتعارض مع مصلحة المجتمع وتؤدي إلى الفاشية. وتصارع اليابان من خلال أطول هبوط شهدته منذ «الكساد الكبير»، ويقترع الناس في أوروبا الغربية لصالح السياسيين الذي يعدونهم «بطريق ثالث»، الذي يرفض ما أسماه واحد من أكثر الكتب الفرنسية مبيعا «الرعب الاقتصادي».

وحتى الآن لم تؤدِ همسات التحذير هذه، وإن كانت تدعو للقلق، إلا إلى حث القادة الأمريكيين والأوروبيين على أن يكرروا على مسامع باقى العالم نفس المحاضرة المملة: ثبتوا عملاكم، تشددوا، تجاهلوا أعمال الشغب المطالبة بالطعام، وانتظروا في أناة أن يعود المستثمرون الأجانب.

بالطبع إن الاستثمار الأجنبي أمر طيب للغاية. وكلما زاد، كان ذلك أفضل. والعملات المستقرة أمر طيب، هي أيضا، مثلها مثل التجارة الحرة والممارسات المصرفية الشفافة وخصخصة الصناعات المملوكة للدولة وكل علاج آخر في مجموعة الأدوية الغربية. ومع ذلك، فنحن ننسى باستمرار أن الرأسمالية العالمية قد اختبرت من قبل. ففي أمريكا اللاتينية مثلا، جربت الإصلاحات الرامية لإقامة نظم رأسمالية أربع مرات على الأقل منذ الاستقلال عن أسبانيا في عشرينيات القرن التاسع عشر. وفي كل مرة، وبعد نوبة الحماس الأولى، ارتد أهل أمريكا اللاتينية عن السياسات الرأسمالية وسياسات اقتصاد السوق. ومن الواضح أن هذا العلاج غير كاف. والواقع أنه قاصر لحد أن يصبح بغير معنى.

وعندما يفشل هذا العلاج، فإن رد فعل الغربيين عادة لا يتمثل فى التساؤل عن مدى كفاية العلاج المقترح وإنما فى إلقاء اللوم على شعوب العالم الثالث، ويتهمونهم بالافتقار إلى القدرة على تنظيم المشروعات وروحها والتوجه نحو السوق. فإن أخفقوا فى تحقيق الإزدهار رغم ما يقدم لهم من نصائح رائعة، فإن ذلك يعود لعيب أساسى فيهم: الافتقار إلى «الإصلاح البروتستانتي»، أو أن الميراث الذى يكبلهم والذى ورثوه عن أوروبا الاستعمارية يقعدهم عن الحركة، أو أن معدل ذكائهم جدّ منخفض. لكن القول بأن الثقافة هى التى تفسر نجاح أماكن جدّ مختلفة مثل اليابان وسويسرا وكاليفورنيا، وأن الثقافة أيضا هى التى تفسر الفقر النسبى لأماكن متباينة بالمثل كالصين، وإستونيا، وباجا كاليفورنيا، هو قول غير إنسانى بل أسوأ من ذلك، وهو قول غير مقنع. إن التباين فى الثروة بين الغرب وباقي العالم أكبر كثيرا من أن تفسره الثقافة وحدها. فمعظم الناس يريدون ثمار رأس المال - لدرجة أن كثيرين، ابتداء من أبناء سانشيز إلى ابن خروشوف، يندفعون أفواجا للبلدان الغربية.

إن مدن بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة تعجّ بمنظمى المشروعات. فلا يمكنك أن تتجول فى سوق فى الشرق الأوسط، أو تمضى فى نزهة إلى قرية فى أمريكا اللاتينية، أو تركب سيارة أجرة فى موسكو دون أن يحاول شخص ما أن يبرم صفقة معك. إن سكان هذه البلدان يملكون الموهبة والحماس والقدرة المذهلة على اعتصار الربح من لا شئ عمليا. وفى مقدورهم استيعاب التكنولوجيا الحديثة واستخدامها. وفى غير هذا، لم تكن دوائر الأعمال الأمريكية لتجاهد للسيطرة على الاستخدام غير المرخص به لبراءات الاختراع التى تملكها فى الخارج، ولم تكن حكومة الولايات المتحدة لتصارع بصورة يائسة للإبقاء على تكنولوجيا الأسلحة الحديثة بعيدا عن متناول أيدي بلدان العالم الثالث. إن الأسواق تقليد قديم وعالمى: فقد طرد السيد المسيح التجار من المعبد قبل ألفى عام، وكان المكسيكيون يذهبون بمنتجاتهم إلى السوق قبل وصول كولبس لأمريكا بزمان طويل.

ولكن إذا لم يكن الناس فى البلدان التى تحقق الانتقال إلى الرأسمالية، شحاذين جديرين بالشفقة، وإن لم يكونوا قد وقعوا فى إسار الطرق المتقادمة

بصورة لا أمل فيها، وإن لم يكونوا أسرى ثقافات عجزت عن أداء مهامها بحيث لا ينتقدونها، فما الذى يحول دون أن تقدم لهم الرأسمالية نفس الثروة التى قدمتها للغرب؟ لماذا تزدهر الرأسمالية فى الغرب وحده، كما لو كانت قد غلفت بناقوس زجاجى؟

اعتزم فى هذا الكتاب أن أبين أن حجر العثرة الأساسى الذى يحول دون استفادة باقى العالم من الرأسمالية يتمثل فى عجزه عن إنتاج رأس المال. فرأس المال هو القوة التى تزيد إنتاجية العمل وتخلق ثروة الأمم. إنه شريان الحياة بالنسبة للنظام الرأسمالى، أساس التقدم، والشئ الذى يبدو أن بلدان العالم الفقيرة لا تستطيع أن تنتج لنفسها، مهما كان الحماس الذى تنخرط به شعوبها فى كل الأنشطة الأخرى التى تميز الاقتصاد الرأسمالى.

كما سآبين، بمساعدة الحقائق والأرقام التى جمعها فريق البحث المعاون لى، من حى سكنى بعد آخر، ومن مزرعة تعد مزرعة فى آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية، أن معظم الفقراء يملكون بالفعل الأصول التى يحتاجونها لتحقيق نجاح الرأسمالية. ذلك أن الفقراء يدخلون حتى فى أكثر البلدان فقرا. إن قيمة المدخرات لدى الفقراء، هائلة فى الواقع - أربعون مثل كافة المعونات الأجنبية التى تم تلقيها فى كافة أنحاء العالم منذ ١٩٤٥. ففي مصر مثلا، تساوى الثروة التى تراكمت لدى الفقراء خمسة وخمسين مثل مبلغ كافة الاستثمارات الأجنبية المباشرة التى سجلت فيها، بما فى ذلك قناة السويس وسد أسوان. وفى هايتى، وهى أفقر بلد فى أمريكا اللاتينية، يزيد مجموع الأصول لدى الفقراء على مائة وخمسين مثل كافة الاستثمارات الأجنبية المتلقاة منذ استقلال هايتى عن فرنسا فى ١٨٠٤. ولو كانت الولايات المتحدة قد رفعت ميزانية المعونة الخارجية التى تقدمها إلى المستوى الذى أوصت به الأمم المتحدة - ٠,٧ فى المائة من الدخل القومى - لاستغرق الأمر من أغنى بلد فى العالم أكثر من ١٥٠ سنة لتحويل لفقراء العالم موارد تساوى تلك التى يملكونها فعلا.

لكنهم يحتفظون بهذه الأصول فى شكل معيب: بيوت بنيت على أراض ملكيتها ليست مسجلة بالشكل السليم، ودور أعمال لا تأخذ شكل الشركات

ومسؤوليتها غير محددة، وصناعات قائمة حيث لا يستطيع المولون والمستثمرون رؤيتها. ونظرا لأن الحقوق فى هذه الممتلكات ليست موثقة على النحو السليم، فإن هذه الأصول لا يمكن تحويلها بسهولة إلى رأس مال، ولا يمكن مبادلتها خارج الدوائر المحلية الضيقة التى يعرف الناس فيها بعضهم ويثقون فى بعضهم البعض، ولا يمكن استخدامها كرهن لضمان القروض، ولا يمكن استخدامها كحصة فى استثمار ما.

وعلى العكس من ذلك فى الغرب، فإن كل قطعة أرض، وكل بناية، وكل قطعة من المعدات، أو مخزن للموجودات، تمثلها وثيقة للملكية تشكل دليلا مرئيا على عملية مستترة شاسعة تربط كل هذه الأصول بباقي الاقتصاد. وبفضل هذه العملية الوصفية التمثيلية، فإن الأصول يمكن أن تكتسب حياة غير مرئية موازية إلى جانب وجودها المادى. إذ يمكن استخدامها كرهن ضمان لائتمان ما. إن أهم مصدر وحيد للأموال بالنسبة لمشروعات الأعمال الجديدة فى الولايات المتحدة هو الرهن على مؤسسات منظمى المشروعات. ويمكن لهذه الأصول أيضا أن توفر رابطة بتاريخ المالك الائتماني، وعنوان مختار خاضع للمساءلة لتحصيل الديون والضرائب، وأساس لإقامة مرافق عامة يعول عليها وشاملة، وأساس لإنشاء الأوراق المالية (مثل السندات المستندة إلى رهن) والتي يمكن عندئذ إعادة خصمها وبيعها فى الأسواق الثانوية وبهذه العملية يبعث الغرب أنفاس الحياة فى الأصول ويجعلها تولد رأس المال.

وللتوافر لبلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة هذه العملية الوصفية التمثيلية. ومن جراء ذلك، فإن معظمها يشكو من نقص الرسملة، بنفس الطريقة التى تعانى بها شركة ما من نقص الرسملة عندما تصدر أوراقا مالية أقل مما يبرره دخلها وأصولها. إن مشروعات الفقراء تشبه كثيرا الشركات التى لا يستطيع أن تصدر أسهما أو سندات للحصول على استثمار وتمويل جديدين. ذلك أنه بدون توافر الوصف التمثيلي، تعد أصولها رأسمالا ميتا غير منتج.

إن لدى سكان هذه البلدان من الفقراء - وهم خمسة أسداس البشرية - أشياء يملكونها، لكنهم يفتقرون إلى العملية التى تصف وتمثل ملكيتهم وتخلق

رأس المال. ذلك أن لديهم بيوتا، لكن ليس لديهم سندات حقوق ملكية؛ لديهم محاصيل لكن ليس لديهم صكوك ملكية؛ ولديهم دور أعمال لكن ليس لديهم النظام الأساسي للشركات. إن عدم توافر هذه الأنواع الأساسية من الوصف والتمثيل هو الذي يفسر السبب في أن الناس الذين طوعوا كل الاختراعات الغربية الأخرى، من مشبك الورق إلى المفاعل النووي، لم يستطيعوا أن ينتجوا ما يكفي من رأس المال لجعل رأسماليتهم المحلية تثمر.

ذلك هو سر رأس المال. ويتطلب حلّه فهم السبب في أن الغربيين استطاعوا عن طريق وصف وتمثيل الأصول بسندات ملكية، أن يروا فيها رأس المال وأن يستخلصوه منها. إن من أكبر التحديات التي تواجه العقل البشري فهم، والوصول إلى، الأشياء التي نعرف أنها موجودة ولأنستطيع أن نراها. ليس كل ما هو حقيقي ومفيد، ملموس ومرئي. فالزمن مثلا حقيقي، ولكن لا يمكن إدارته بصورة كفء إلا عندما تمثله الساعة والتقويم الزمني. وعلى مرّ التاريخ، اخترع البشر أنظمه وصفية تمثيلية - الكتابة، النوتة الموسيقية، إمساك الدفاتر ذات القيد المزدوج - ليدركوا بالعقل ما لا يمكن لأيدي البشر أن تلمسه أبدا. وينفس الطريقة، فإن الممارسين العظام للرأسمالية، من منشئي نظم سندات الملكية المتكاملة وأسهم الشركات إلى مايكل ميلكن، استطاعوا أن يكتشفوا رأس المال وأن يستخلصوه، حيث لم ير الآخرون فيه سوى سقط المتاع، وذلك باستنباط طرق جديدة تمثل الإمكانيات غير المرئية المخبوءة في الأصول التي نراكمها.

وفي نفس هذه اللحظة التي تحيط بك فيها موجات التلفزيون الأوكراني والصيني والبرازيلي التي لاتستطيع أن تراها، تحيط بك أيضا أصول تخفى رأسمالا على نحو غير مرئي. وتماما مثلما أن موجات التلفزيون الأوكراني الأضعف كثيرا من أن تجعلك تشعر بها بصورة مباشرة، يمكن فك شفرتها بمساعدة أجهزة تليفزيونية ورؤيتها وسماعها، فإن رأس المال يمكن استخلاصه ومعالجته من الأصول. لكن الغرب وحده لديه عملية التحويل المطلوبة لجعل غير المرئي مرئيا. وهذا التباين هو الذي يفسر السبب في أن الدول الغربية تستطيع أن تخلق رأس المال، وأن بلدان العالم الثالث، والبلدان الشيوعية السابقة لاتستطيع ذلك.

إن غياب هذه العملية فى المناطق الأفقر فى العالم - حيث يعيش ثلثا البشر - ليس نتيجة نوع من المؤامرة الاحتكارية الغربية، بل الأحرى أن الغربيين اعتبروا هذه الآلية أمرا مسلما به بصورة كاملة إلى حد أنهم فقدوا الوعي بوجودها. ورغم ضخامتها، فإن أحدا لا يراها، بما فى ذلك الأمريكيون والأوروبيون واليابانيون الذى يدينون بكل ثروتهم إلى قدرتهم على استخدامها. إنها بنية أساسية قانونية ضمنية مخبوءة فى أعماق نظم الملكية لديهم - لاتمثل الملكية فيها سوى قمة جبل الجليد. ويتمثل باقى جبل الجليد فى عملية معدة من صنع الإنسان يمكنها تحويل الأصول والعمل إلى رأس مال. ولم يتم خلق هذه العملية من طبعة أصلية، ولا يرد وصفها فى الكتيبات المصقولة. فأصولها غامضة ودلائلها مطمورة فى اللاوعى الاقتصادى للبلدان الرأسمالية الغربية.

كيف يغيب عن ذهننا شىء بهذه الأهمية؟ ليس من غير الشائع بالنسبة لنا معرفة كيفية استخدام الأشياء دون فهم السبب فى أنها تجدى. فقد استخدم البحارة البوصلة المغناطيسية قبل زمن طويل من اكتشاف نظرية مرضية عن المغناطيسية.

وتوافرت لمربى الماشية معرفة عملية بالجينات قبل أن يفسر جريجور مندل مبادئ الوراثة بزمن طويل. وحتى عندما يزدهر الغرب من جراء وفرة رأس المال، هل يدرك الناس حقا أصل رأس المال؟ وإذا لم يدركوا ذلك، فستظل هناك دوما إمكانية لأن يدمر الغرب مصدر قوته. ذلك أن توافر الوضوح بشأن أصل رأس المال، يؤهل الغرب أيضا لحماية نفسه وباقى العالم فور أن يسلم الازدهار الحاضر نفسه لأزمة لاريب فى أنها ستحل. ومن ثم، فإن السؤال الذى يثور دوما فى الأزمات الدولية سيعتد مرة ثانية: فلوس من هى التى ستستخدم لحل المشكلة؟

وحتى الآن، كانت البلدان الغربية سعيدة لاعتبار نظامها لإنتاج رأس المال أمرا مسلما به بصورة كلية، وترك تاريخه دون توثيق. لابد من استعادة ذلك التاريخ. وهذا الكتاب محاولة لإعادة استكشاف مصدر رأس المال، ومن ثم تفسير كيفية تصحيح الإخفاق الاقتصادى للبلدان الفقيرة. وهذا الإخفاق

لا يرتبط بعيوب في الثقافة أو الميراث الخاص بالوراثة. هل يقول أحد بوجود عموميات «ثقافية» مشتركة بين أهل أمريكا اللاتينية والروس؟ ومع ذلك، ففي العقد الأخير، ومنذ أن بدأت المنطقتان في بناء الرأسمالية بدون رأس مال، تشاركنا في نفس المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية: عدم مساواة صارخ، اقتصادات سرية، نفشى المافيا، عدم الاستقرار السياسى، هروب رأس المال، عدم احترام القانون على نحو فاضح. ولاترجع هذه الاضطرابات بأصولها إلى أديرة الكنيسة الأرثوذكسية أو تمتد على مسارات حضارة الإنكا.

ولكن لم تعان بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة وحدها من كل هذه المشكلات. إذ كان الأمر نفسه يصدق على الولايات المتحدة فى ١٧٨٣، عندما اشتكى الرئيس جورج واشنطن من أن «الصوص... يقشدون ويستحوذون على زبدة البلاد على حساب الكثرة». وكان هؤلاء «الصوص» هم واضعى اليد وصغار منظمى المشروعات التى لاتتمتع بحماية القانون الذين يحتلون أرضا لا يملكونها. وخلال المائة عام التالية، قاتل واضعو اليد هؤلاء للحصول على حقوق قانونية فى أراضيهم، وحارب المشتغلون بالتعدين من أجل حقوقهم المدعى بها؛ لأن قوانين الملكية كانت تختلف من مدينة لأخرى، ومن مخيم إلى مخيم. وخلق إنفاذ حقوق الملكية مستنقعا للقلقل والعداوات الاجتماعية فى كافة أرجاء الولايات المتحدة الفتية، لدرجة أن قاضى قضاة المحكمة العليا، جوزيف ستورى، تساءل فى ١٨٢٠ عما إذا كان رجال القانون سيستطيعون تسويتها فى أى وقت.

هل يبدو واضعوا اليد والصوص وعدم الاحترام الصارخ للقانون أمرا مألوفاً؟ لقد طفق الأمريكيون والأوروبيون يخبرون بلدان العالم الأخرى أنه «ينبغى لكم أن تكونوا أكثر شبها بنا». والواقع أنها تشبه كثيرا جداً الولايات المتحدة منذ قرن مضى عندما كانت هى أيضا بلدا غير متطور. لقد واجه السياسيون الغربيون ذات مرة نفس التحديات المثيرة التى يواجهها اليوم قادة البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة. لكن خلفاءهم فقدوا الصلة بالأيام

التي كان فيها الرواد الذين فتحوا الغرب الأمريكي يعانون نقصاً في رأس المال لأنهم نادراً ما كانوا يحوزون حقوق الملكية للأراضي التي استوطنوها، والسلع التي امتلكوها، عندما كان آدم سميث يتسوق في الأسواق السوداء، وكان أولاد الشوارع الإنجليز الصغار والفقراء يحتالون للحصول على ما يلقي به إليهم السياح الضاحكون من بنسات في أحوال ضفتي التيمس، عندما أعدم تكنوقراطيو جان بابتست كولبير ١٦ ألفاً من أصحاب المشروعات الصغيرة التي تمثلت كل جريمتهم في صناعة واستيراد الأقمشة القطنية، في انتهاك للقوانين الصناعية لفرنسا.

إن ذلك الماضي هو حاضر كثير من الدول. لقد أدمجت الدول الغربية فقراءها في اقتصاداتها بنجاح بدرجة جعلتها تفقد حتى ذاكرتها عن كيف تحقق ذلك، وكيف بدأ خلق رأس المال ومتى بدأ، عندما «كان شيء هائل يحدث في المجتمع والثقافة، ويطلق الطاقات والطموحات لدى الناس العاديين مثلما لم يحدث أبداً في التاريخ الأمريكي»^(١)، مثلما كتب المؤرخ الأمريكي جوردون وود. وكان «الشيء الهائل» هو أن الأمريكيين والأوروبيين كانوا على شفا إنشاء قانون رسمي واسع الانتشار للملكية، واختراع عملية التحويل في ذلك القانون التي سمحت لهم بخلق رأس المال. كانت هذه هي اللحظة التي عبر فيها الغرب الخط الفاصل الذي أفضى بقيام رأسمالية ناجحة. عندما كفت عن أن تكون نادياً خاضعاً، وأصبحت ثقافة شعبية، عندما تحول «لصوص» جورج واشنطن المروعين إلى رواد محبوبين تفخر بهم الثقافة الأمريكية حالياً.

* * *

والمفارقة واضحة بقدر ما هي غير قابلة للحل: فرأس المال، وهو أهم مكونات التقدم الاقتصادي الغربي، هو المكون الذي حظى بأقل قدر من الاهتمام. وقد غلفه الإهمال بالأسرار - في الواقع، بسلسلة من خمسة أسرار.

سر المعلومات الغائبة

ركزت المنظمات الخيرية على بؤس وانعدام حيلة فقراء العالم إلى الحد الذي لم يجعل أحدا يوثق على نحو ملائم قدرتهم على مراكمة الأصول. وخلال السنوات الخمس الماضية، أغلقت أنا ومائة من الزملاء من ستة بلدان مختلفة كتبنا وفتحنا أعيننا - وخرجنا إلى الشوارع والأرياف في أربع قارات لنحسب قدر ما أدخرته أفقر قطاعات المجتمع. وكانت المقادير هائلة، لكن معظمها كان رأسمالا ميتا غير منتج.

سر رأس المال

ذلك هو السر الرئيسي وحجر الزاوية في هذا الكتاب. إن رأس المال موضوع أغوى المفكرين في القرون الثلاثة الماضية. فقد قال ماركس إنك تحتاج إلى الماضي لما وراء الماديات لتلمس «الدجاجة التي تبيض البيضات الذهبية»، وكان آدم سميث يعتقد أنه يتعين عليك أن تخلق «نوعا من طريق العربات عبر الهواء» لتصل إلى نفس الدجاجة. ولكن لم يخبرنا أحد أين تختبئ الدجاجة. ما هو رأس المال، كيف يتم إنتاجه، وكيف يرتبط بالنقود؟

سر الوعي السياسى

إذا كان هناك هذا القدر الكبير من رأس المال غير المنتج في العالم، وفي أيدي مثل هذا العدد الكبير من الفقراء، فلماذا لم تحاول الحكومات استغلال هذه الثروة المحتملة؟ إن ذلك يرجع ببساطة إلى أن الأدلة التي تحتاجها لم تصبح متوافرة إلا في الأربعين عاما الماضية، حيث انتقل المليارات من الناس في كل أنحاء العالم من الحياة المنظمة على نطاق ضيق إلى الحياة المنظمة على نطاق واسع. وسرعان ما أدت هذه الهجرة إلى المدن إلى تقسيم العمل، وأفرخت

ثورة صناعية - تجارية ضخمة فى البلدان الأكثر فقرا - ثورة تم تجاهلها فعليا على نحو لا يصدق.

الدروس الغائبة للتاريخ الأمريكى

إن ما يجرى فى بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة، حدث من قبل فى أوروبا وأمريكا الشمالية. وللأسف، فقد نومنا مغناطيسيا فشل مثل هذا العدد الكبير من البلدان فى تحقيق الانتقال للرأسمالية لدرجة أنستنا كيف نجحت البلدان الرأسمالية فى تحقيق ذلك عمليا. لقد ظللت سنوات طوال، التقى بالتكنوقراطيين والسياسيين فى البلدان المتقدمة، من الاسكا إلى طوكيو، لكن لم تكن لديهم إجابة لقد كان ذلك سرّا. وأخيرا، وجدت الإجابة فى كتب التاريخ الخاصة بهم، وأكثرها صلة بالموضوع تاريخ الولايات المتحدة.

سرّ الإخفاق القانونى: لماذا لايجدى قانون الملكية خارج الغرب

منذ القرن التاسع عشر، أخذت الدول تنسخ وتقلد قوانين الغرب لتوفر لمواطنيها الإطار المؤسسى اللازم لإنتاج الثروة. وما زالت تنسخ وتقلد مثل هذه القوانين حتى الآن، ومن الواضح أن ذلك لايجدى. فلايزال معظم المواطنين غير قادرين على استخدام القانون لتحويل المدخرات لرأس مال. ويظل السبب فى ذلك، وما هو مطلوب لجعل القانون يجدى سرا. إن حل كل من هذه الأسرار هو موضوع فصل فى هذا الكتاب.

لقد حان الوقت لحل مشكلة السبب في أن الرأسمالية انتصرت في الغرب وجمدت عمليا في كل مكان غيره. وحيث إن كل البدائل المعقولة للرأسمالية قد تبذرت حاليا، فقد أصبحنا في النهاية في وضع يطوع لنا دراسة رأس المال بتجرد وحرص.

الفصل الثانى

سرّ المعلومات الغائبة

أصبحت المسائل الاقتصادية، على مرّ السنين، أكثر تجريداً وانفصالاً عن أحداث العالم الحقيقى. والاقتصاديون عموماً، لا يدرسون اليات عمل النظام الاقتصادى الفعلى، بل يقومون بالتنظير عنه. ومثلما قال ايلى ديفونز، وهو خبير اقتصادى إنجليزى، ذات مرة فى أحد الاجتماعات، «لو أراد الاقتصاديون دراسة الحصان، فلن يذهبوا وينظروا إلى الخيول، بل سيجلسون فى مكاتبهم التى يخلون إلى أنفسهم فيها ويقولون لأنفسهم: ماذا سأفعل لو كنت حصاناً؟»

— رونالد هـ . كويس، «مهمة المجتمع»

تخيل بلدا لا يستطيع فيه أى إنسان أن يحدد من يملك ماذا، ولا يمكن فيه تحديد العناوين بسهولة، ولا يمكن فيه جعل الناس يسددون ديونهم، ولا يتيسر فيه تحويل الموارد إلى نقود على نحو ملائم، ولا يمكن فيه تقسيم الملكية إلى أسهم، ولا يكون فيه وصف الأصول نمطيا ولا يتيسر المقارنة بينها بسهولة، وتتباين فيه القواعد التى تحكم الملكية من مجاورة إلى مجاورة، بل حتى من شارع إلى شارع. لو تصورت هذا، فإنك بذلك تضع نفسك فحسب فى خضم حياة بلد نام أو بلد شيوعى سابق؛ وعلى وجه أكثر تحديدا، فإنك بذلك تتخيل حياة ٨٠ فى المائة من سكانه، والذين يتميزون بصورة حادة عن الصفوة التى تم تغريبها فيه، مثلما كان الفصل العنصرى يفرق من قبل بين السود والبيض فى جنوب إفريقيا.

وهذه الغالبية التى تشكل ٨٠ فى المائة لا تعانى من الفقر على نحو يدعو

للأيأس كما يتصور الغربيون عادة. فبالرغم من فقرهم البادى للعيان، فإنه حتى الذين يعيشون منهم فى ظل أشد نظم عدم المساواة غلظة، يملكون ما يزيد كثيرا على ما أدركه الجميع فى أى وقت. ومع ذلك، فإن ما يملكونه لا يتم وضعه وتمثيله بطريقة تجعله ينتج قيمة إضافية. فعندما تخرج من باب هيلتون النيل، فإن ما تتركه وراءك ليس عالم التكنولوجيا الراقية الذى يضم آلات الفاكس وأجهزة صنع الثلج والتليفزيون والمضادات الحيوية. ذلك أن فى مقدور أهل القاهرة الوصول لهذه الأشياء كلها.

إن ما تتركه حقا وراءك هو عالم الصفقات القابلة للإنفاذ قانونا بشأن حقوق الملكية. إن الرهن والعناوين المختارة الخاضعة للمساءلة والالزمة لتوليد ثروة إضافية لا يتوافران حتى لأهل القاهرة الذين قد يبدون لك أغنياء تماما. وفى أطراف القاهرة، يعيش بعض من أفقر الفقراء فى مناطق المقابر القديمة و«مدن الموتى». وفى هذا الجزء من المدينة لا يمكن استخدام أى من الأصول حتى تمامها. إذ لا توجد هناك، المؤسسات التى تخلع الحياة على رأس المال - التى تكفل للمرء ضمان مصالح الطرف الثالث بالعمل والأصول.

ولكى يفهم المرء كيف يمكن ذلك، يتعين عليه أن ينظر إلى القرن التاسع عشر، عندما كانت الولايات المتحدة تنحت مجتمعا من براريها. فلم ترث الولايات المتحدة من بريطانيا قانونها المعقد على نحو غريب الخاص بالأراضى فحسب، بل ورثت عنها أيضا نظاما شاسعا لمنح الأراضى المتداخلة. فنفس الغدان كان يمكن أن يخص شخصا ما حصل عليه كجزء من منحة من الأراضى الشاسعة من التاج البريطانى، وأن يخص شخصا آخر يدعى أنه اشتراه من قبيلة هندية، وشخص ثالث قبله محل الأجر من الهيئة التشريعية للولاية - ولم يقع عليه بصر أى من هؤلاء الثلاثة. وفى الوقت نفسه، كانت البلاد قد أخذت تمتلئ بالمهاجرين، الذين أقاموا الحدود، وحرثوا الحقول، وبنو الديار، ونقلوا ملكية الأراضى، وأبرموا القروض قبل وقت طويل من قيام الحكومة بخلع حق القيام بهذه التصرفات عليهم. كانت هذه هى أيام الرواد و«الغرب البرى». ومن أسباب أنه كان برياً لهذا الحد أن هؤلاء الرواد، الذين لم تكن غالبيتهم سوى واضعى يد، أصروا على أن عملهم، وليس سندات الملكية الرسمية المسجلة على الورق

أو خطوط الحدود التحكيمية، هو الذى أضفى قيمة على الأرض وأقام الملكية^(١). كانوا يؤمنون بأنهم إذا احتلوا الأرض وحسنوها بإقامة البيوت والمزارع، تصبح ملكا لهم. وكانت حكومات الولايات والحكومة الاتحادية تؤمن بغير هذا. فقد بعث المسؤولون بالقوات لإحراق المزارع وتدمير المباني، وقاتل المستوطنون للحيلولة دون هذا. وعندما كان الجنود يرحلون، كان المستوطنون يعيدون البناء ويعودون إلى استنباط وسائل الحياة. إن ذلك الماضى هو حاضر العالم الثالث.

ثورة مباغته

قبل ١٩٥٠، كانت بلدان العالم الثالث فى معظمها مجتمعات زراعية منظمة بطرق تجعل سكان أوروبا القرن الثامن عشر يشعرون أنهم أحسنوا صنعا فى بلادهم. إذ كان معظم الناس يشتغلون فى الأرض، التى كانت تملكها قلة صغيرة من كبار الملاك، البعض منهم من الأوليغاركية المحلية، والبعض الآخر من المزارعين المستعمرين. وكانت المدن صغيرة وتعمل كأسواق وموانئ، وليس كمراكز صناعية؛ وكانت تسيطر عليها صفوة تجارية ضئيلة تحمى مصالحها بغلاف سميك من القواعد واللوائح.

وبعد ١٩٥٠، بدأت فى العالم الثالث ثورة اقتصادية شبيهة بالاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية التى وقعت فى أوروبا فى ١٨٠٠. وطفقت الماكينات الجديدة تقلل الطلب على العمل الريفى، مثلما أخذت الأدوية الجديدة وأساليب الصحة العامة الحديثة تقلل معدلات وفيات الأطفال الرضع وتمدّ أجل الحياة. وسرعان ما تدفق مئات الآلاف من الأشخاص على الطرق السريعة التى تم بناؤها مؤخرا إلى المدن التى كان يتم وضعها على نحو مغر فى برامج الإذاعة الجديدة. وبدأ سكان المدن يتزايدون سريعا. ففى الصين وحدها، انتقل ما يزيد على ١٠٠ مليون نسمة من الريف إلى المدن منذ ١٩٧٩. وفيما بين ١٩٥٠ و١٩٨٨، ارتفع عدد سكان العاصمة بورت - أو - برنس من ١٤٠ ألفا إلى مليون و٥٥٠ ألفا. وبحلول ١٩٩٨، اقتربوا من المليونين. ويعيش نحو ثلثى هؤلاء فى مدن الكواخ. وقد أصيب الخبراء بالإحباط بالفعل من جراء هذا التصاعد فى سكان

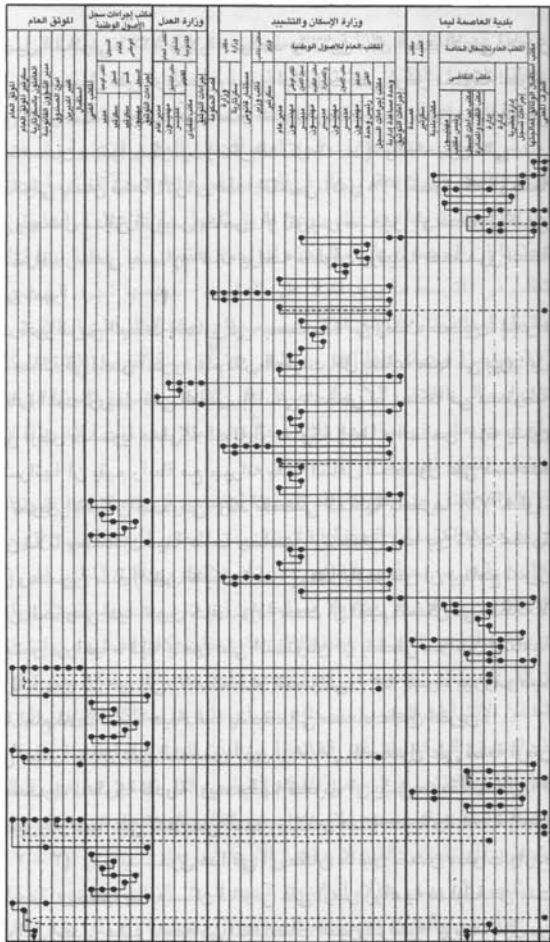
المدن منذ وقت مبكر يرجع إلى ١٩٧٣، قبل حدوث أكبر تدفق بزمان طويل. وكما كتب أحد خبراء الحضرة، «فإن كل شيء يحدث كما لو كانت المدينة تنهار». وأضاف: «إن البناء بلا ضوابط، يسود في كل مكان ويتم بأى شكل. ونظام الصرف الصحى عاجز عن المساعدة فى تصريف مياه الأمطار، وينسد كل يوم. ويتركز السكان فى مناطق معينة لا تتوافر فيها بنية أساسية للصرف الصحى.. ويحتل الباعة الصغار بالمعنى الحرفى أرصفة شارع ديسالينس العريض.. لقد أصبحت المدينة غير قابلة للحياة فيها»^(٢).

ولم يتوقع هذا التحول الهائل فى الطريقة التى يعيش بها الناس ويعملون، سوى القلة. وسعت النظريات التى تساير المودة فى ذلك الوقت بشأن «التنمية» إلى جلب الحدائق إلى الريف. فلم يكن مفروضاً أن يجرى الفلاحون إلى المدن بحثاً عن القرن العشرين. بيد أن عشرات الملايين جاءوا على أية حال، رغم رد الفعل لذلك المتمثل فى العداء المتزايد لهم. فقد واجهوا سداً لا يمكن اختراقه من القواعد التى حالت دون وصولهم إلى الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية الراسخة قانوناً. وكان من الصعب بصورة هائلة على هؤلاء الوافدين الجدد للمدن، الحصول على مسكن قانونى، أو دخول مجال الأعمال الرسمية، أو العثور على عمل قانونى.

عقبات أمام المشروعية

للحصول على مجرد فكرة عن مدى صعوبة حياة المهاجر، فتحنا - أنا والفريق المعاين لى فى البحث - ورشة صغيرة للثياب فى ضواحي ليما، بيرو. وكان هدفنا هو إقامة مشروع جديد وقانونى على نحو كامل. وعندئذ بدأ الفريق فى استيفاء الاستثمارات اللازمة، والوقوف فى الطوابير، وقاموا برحلات بالحافلات إلى وسط ليما للحصول على كافة الشهادات المطلوبة لتشغيل مشروع صغير فى بيرو، حسب نص القانون. وكانوا يمضون ست ساعات فى اليوم فى ذلك. وأخيراً سجلوا المشروع - بعد ٢٨٩ يوماً. ورغم أنه كان من المستهدف تشغيل ورشة الثياب بعامل واحد فحسب، فقد بلغت تكلفة

شكل (٧ - ١) إجراءات إقامة منزل بصورة قانونية في بيروت . تتكون الإجراءات من ٥ مراحل: تضم الأولى منها وحدها ٢٠٧ خطوات



التسجيل القانوني ١٢٣١ دولاراً - واحد وثلاثون مثل الحد الأدنى للأجر شهرياً. وللحصول على ترخيص رسمي لبناء بيت على أرض مملوكة للدولة، استغرق الأمر ست سنوات وأحد عشر شهراً، وتطلب ٢٠٧ خطوات إدارية في اثنين وخمسين مكتباً حكومياً (انظر الشكل ٢ - ١). وللحصول على سند ملكية قانوني بشأن قطعة الأرض هذه، اقتضى الأمر ٧٢٨ خطوة. كما وجدنا أنه لكي يحصل سائق أتوبيس خاص، أو أتوبيس صغير، أو سائق تاكسي على اعتراف رسمي بمساره، فإنه يواجه خطوات روتينية تستغرق ستة وعشرين شهراً.

وقد كرر فريق البحث المعاون لي، بمساعدة من زملاء محليين، إجراء تجارب مماثلة في بلدان أخرى. ولم تكن العقبات أقل بشاعة منها في بيرو؛ بل كانت عادة أشد ترويعاً. ففي الفلبين، إذا بنى شخص ما مسكناً في مستوطنة إما على أرض حضرية مملوكة للدولة أو مملوكة للقطاع الخاص، فإنه يتعين عليه لشرائها أن يقيم رابطة مع جيرانه بغية التأهل للحصول على مساعدة برنامج تمويل الإسكان الحكومي. وقد تقتضى العملية بأسرها ١٦٨ خطوة، تتضمن ثلاثاً وخمسين هيئة عامة وخاصة، وتستغرق ما بين ثلاث عشرة وخمس وعشرين سنة (انظر الشكل ٢ - ٢). هذا بافتراض أن برنامج تمويل الإسكان الحكومي لديه تمويل كاف. وإذا حدث أن أقيم المسكن في منطقة لا تزال تعتبر «زراعية»، فإنه يتعين على المستوطن أن يتخطى حواجز إضافية أخرى لتحويل الأرض إلى الاستخدام العمراني - ٤٥ إجراءً بيروقراطياً إضافياً أمام ثلاث عشرة هيئة، مما يضيف إلى مسعاه عامين آخرين.

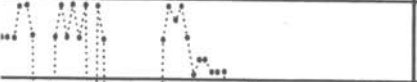


وفي مصر، يتعين على الشخص الذي يرغب في الحصول على قطعة أرض من الصحراء المملوكة للدولة، ويسجلها قانوناً، أن يشق طريقه خلال ٧٧ إجراءً بيروقراطياً على الأقل في إحدى ثلاثين هيئة عامة وخاصة (انظر الشكل ٢ - ٣). وقد يستغرق هذا في أي مكان ما بين خمس سنوات وأربع عشرة سنة. ويتطلب بناء مسكن قانوني على أرض زراعية سابقة من ست سنوات إلى إحدى عشرة سنة من المشاحنات البيروقراطية، وربما أطول من ذلك. ويفسر هذا السبب في أن ٤,٧ مليون مصري اختاروا بناء مساكنهم

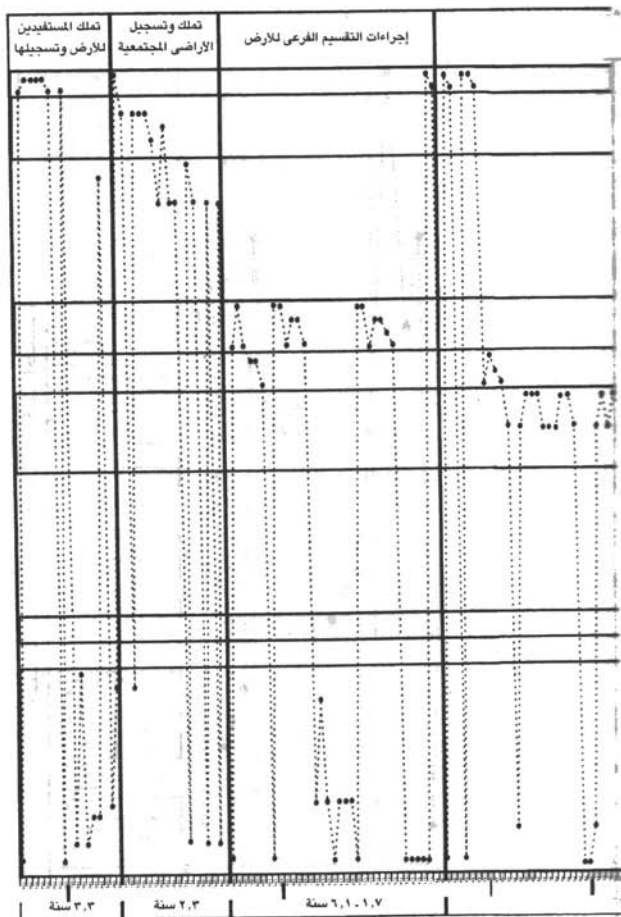
بصورة غير قانونية. وإذا قرر المستوطن بعد بناء بيته أنه يرغب في أن يكون مواطنا ملتزما بالقانون ويشتري الحقوق الخاصة بمسكنه، فإنه يخاطر بهدمه ودفع غرامة باهظة، وأن يمضى فى السجن ما يصل إلى عشر سنوات. وفى هايتى، هناك طريق واحد أمام المواطن العادى لتسوية وضعه قانونا بشأن الأرض الحكومية، يتمثل فى أن يستأجرها أولا من الحكومة لمدة خمس سنوات ثم يشتريها بعد ذلك. وعن طريق العمل مع الزملاء فى هايتى، وجد باحثونا أن الحصول على مثل هذه المؤاجرة يقتضى ٦٥ خطوة بيروقراطية - تتطلب فى المتوسط ما يزيد قليلا على العامين - جميعها لمجرد الحصول على امتياز استئجار الأرض لمدة خمس سنوات. وقد تطلب شراء الأرض عبور ١١١ حاجزا بيروقراطيا آخر - واثنتى عشرة سنة أخرى (أنظر الشكل ٢ - ٤). وإجمالى القرض اللازم للحصول على الأرض بصورة قانونية فى هايتى يبلغ تسع عشرة سنة. ومع ذلك، فحتى اجتياز هذه المحنة الطويلة، لا يكفل أن تبقى الملكية قانونية.

والواقع أننا وجدنا فى كل بلد تقصينا أوضاعه، أن بقاء الوضع قانونيا يماثل فى صعوبته اكتسابه الصفة القانونية. ومن المحتم، أن المهاجرين لا يحطمون القانون بقدر ما يحطمهم القانون - ويؤثرون الخروج على النظام. ففي ١٩٧٦، كان ثلثا من يعملون فى فنزويلا مستخدمين فى مشروعات مستقرة قانونا، وتقل النسبة حاليا عن النصف. ومنذ ثلاثين عاما خلت، كان القصد من إنشاء أكثر من ثلثى المساكن الجديدة فى البرازيل هو تأجيرها. واليوم، فإن نحو ٣ فى المائة فقط من الإنشاءات الجديدة مسجلة رسميا باعتبارها مساكن للإيجار. أين ذهبت هذه السوق؟ إلى المناطق غير القانونية فى المدن البرازيلية المسماة *فافيلا*، التى تعمل خارج الاقتصاد الرسمى المحكم التنظيم، والتى تسير العرض والطلب فى عملها. وليس هناك تحديد للإيجارات فى *الفافيلا*، وتدفع الإيجارات بالدولار، ويتم طرد المستأجرين الذين لا يدفعون الإيجار سريعا.

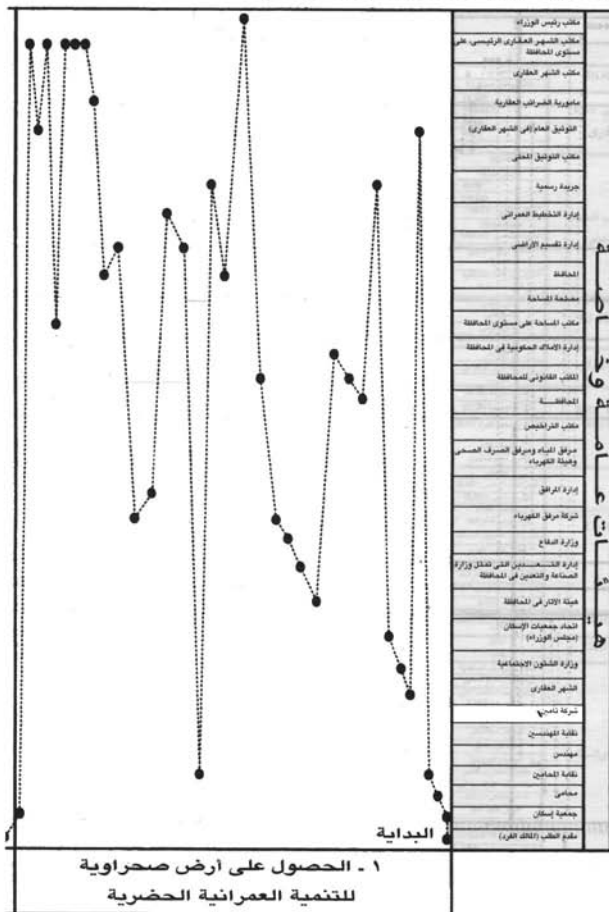
وبمجرد أن يهجر هؤلاء الوافدون الجدد للمدن النظام، يصبحون «خارجين على القانون». والبديل الوحيد أمامهم هو أن يعيشوا ويعملوا خارج القانون الرسمى، وأن يستخدموا ترتيباتهم الملزمة بصورة غير رسمية لحماية وتعبئة

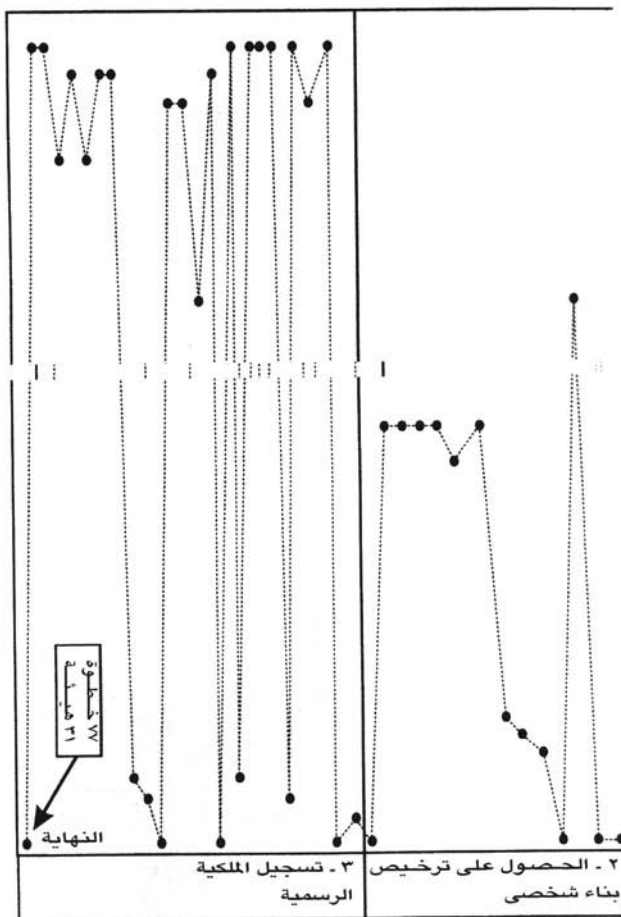
شكل (٢-٢) إجراءات لإضفاء طابع رسمي على الملكية الحضرية غير الرسمية في الفلبين

إجراءات التسجيل الأصلية	تحديد وتنظيم المجتمع المحلي	
		<div>RODs</div> <div>مكاتب عامة أخرى</div>
<div>خطوة ١٦٨</div> <div>سنة ٢٥ - ١٣</div>		<div>مكاتب الحكم المحلي</div>
		<div>HLURB</div>
		<div>LRA</div>
		<div>RTC OR MTC</div>
		<div>LMB</div>
		<div>NGC</div>
		<div>OGO</div>
		<div>غيرها</div>
<div>١٧، ٤ - ٤، ٩ سنة</div>	<div>٧، ٥ شهر</div>	

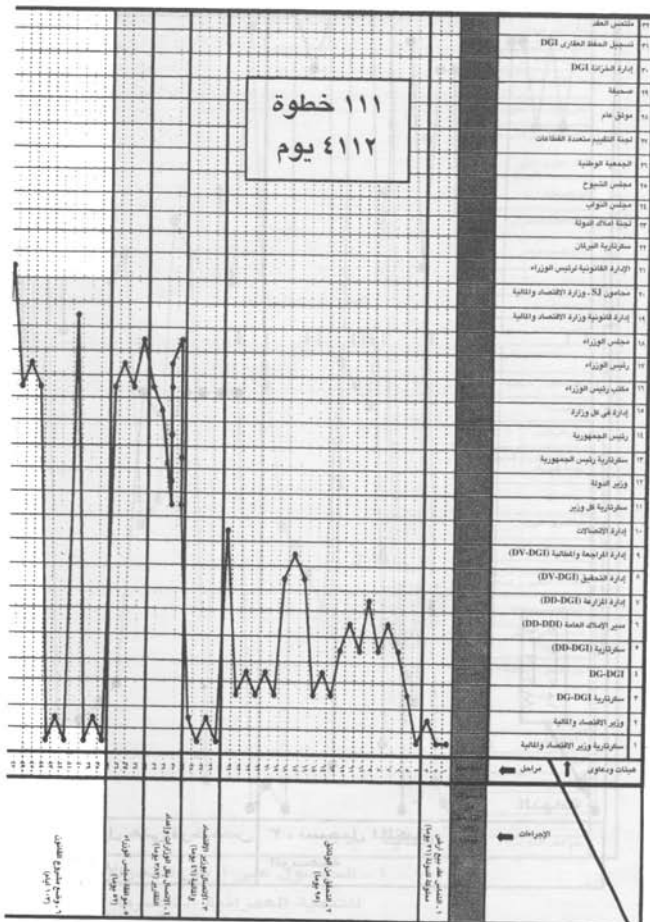


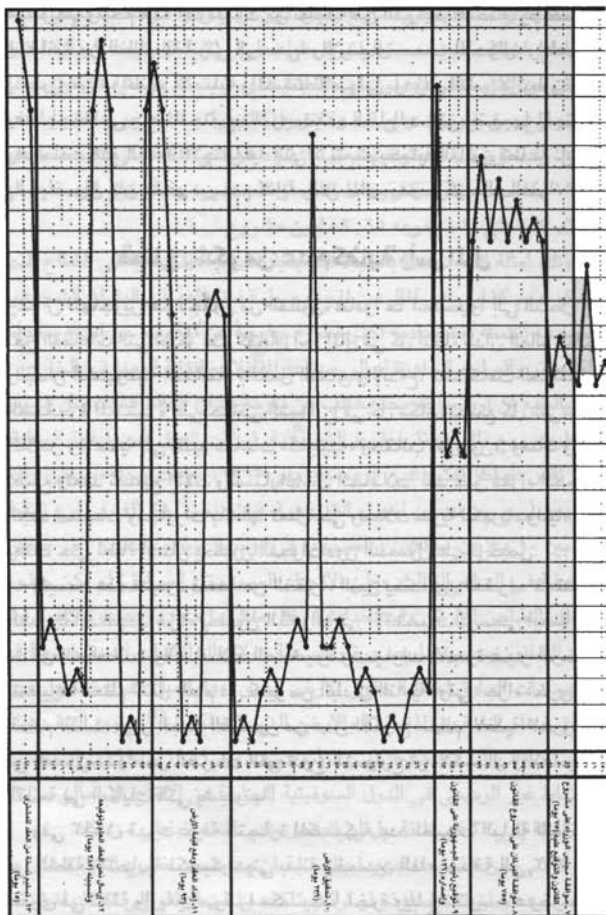
شكل (٢ - ٣) إجراءات اكتساب فرص الحصول على الأراضي الصحراوية لأغراض البناء وتسجيل حقوق الملكية هذه في مصر (٦ - ١٤ سنة)





شكل (٢ - ٤) إجراءات إبرام عقد بيع عقب عقد إيجار لمدة خمس سنوات في هاييتي





أصولهم. وتنجم هذه الترتيبات من توليفة من القواعد المستعارة بصورة انتقائية من النظام القانوني الرسمي، والارتجال حسب الأحوال، والأعراف المجلوبة من مواطنهم الأصلية والمستنبطة محليا. وهؤلاء الناس يرتبطون معا بعقد اجتماعي يدعم المجتمع بأسره وتنفعه السلطات التي انتخبها المجتمع. وقد خلقت هذه العقود الاجتماعية التي لا تتمتع بحماية القانون قطاعا نابضا بالحياة، وإن كان يشكو من عدم كفاية رأس المال، وهو مركز عالم الفقراء.

قطاع يشكو من عدم كفاية رأس المال

رغم أن المهاجرين هم لاجئون من القانون، فنادرا ما انسحبوا إلى التبطل. إذ تعج القطاعات التي تشكو عدم كفاية رأس المال في كل أنحاء بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة، بالعمل الشاق والإبداع. فقد قامت الصناعات الصغيرة المنتشرة على جانبي الشوارع في كل مكان، تصنع كل شيء، من الملابس والأحذية إلى تقليد ساعات «كارتية» وحقائب «فويتون». وهناك ورش تصنع وتعيد تصنيع الآلات والسيارات، بل الحافلات. لقد خلق فقراء الحضر الجدد صناعات ومجاورات بأكملها تعمل على وصلات سرية للكهرباء والمياه، بل وهناك حتى أطباء أسنان يحشون الفجوات دون الحصول على ترخيص.

وليست هذه مجرد قصبة عن الفقراء الذين يخدمون الفقراء. فمنظمو المشروعات الجدد هؤلاء يسدون الثغرات في الاقتصاد الرسمي أيضا. إذ تشكل الحافلات، والحافلات الصغيرة وسيارات الأجرة غير المرخص بتسييرها معظم النقل العام في كثير من البلدان النامية. وفي أجزاء أخرى من العالم الثالث، يوفر الباعة القادمون من مدن الأكواخ معظم الأغذية المعروضة في السوق سواء من العربات التي تزرع الشوارع أو الأكشاك والتسربات القائمة في البنايات التي يشيدونها.

وفي ١٩٩٣، قدرت غرفة التجارة المكسيكية عدد نصبات الباعة الجائلين في المنطقة الاتحادية لمكسيكوسيتي بمائة وخمسين ألفا، إضافة إلى ٢٩٣ ألفا أخرى في ثلاثة وأربعين مركزا مكسيكيا آخر. ويبلغ متوسط عرض هذه الأكشاك الصغيرة ١,٥ متر فحسب. ولو صف الباعة في مكسيكوسيتي

أكشاكهم ومنصاتهم فى شارع واحد دون أن يتركوا فراغا بينهم فى نقاط التقاطع، لشكلت صفا مستمرا يزيد طوله على ٢١٠ كيلومترات. إن آلاف فوق الآلاف من الأشخاص يعملون فى القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون - فى الشوارع، من بيوتهم، وفى الحوانيت والمكاتب والمصانع غير المسجلة فى المدن. وقد توصلت محاولة قام بها المعهد الوطنى المكسيكى للإحصاء فى ١٩٩٤ لحساب عدد «مشروعات الأعمال الصغيرة جدا» غير الرسمية فى البلاد كلها إلى ما مجموعه ٢,٦٥ مليون مشروع.

وتلك أمثلة كلها نابضة بالحياة الحقيقية للحياة الاقتصادية فى القطاع الذى يشكو عدم كفاية رأس المال فى المجتمع. بل قد تشاهد فى البلدان الشيوعية السابقة أنشطة اقتصادية أكثر تطورا خارجة عن المألوف، من إنتاج معدات الكمبيوتر والبرامج الجاهزة له إلى صناعة المقاتلات النفثة لبيعها فى الخارج.

بالطبع إن لروسيا تاريخا يختلف عن تاريخ بلدان العالم الثالث مثل هايتى والغبين. ومع ذلك، فمنذ سقوط الشيوعية، انزلت الدول السوفيتية السابقة إلى نفس أنماط الملكية غير الرسمية. وفى ١٩٩٥، أوردت مجلة «بيزنس ويك» أنه بعد أربع سنوات من انتهاء الشيوعية، فإن «نحو ٢٨٠ ألف مزارع (فقط) من بين ١٠ ملايين، يملكون أراضيهم» فى روسيا. ويرسم تقرير آخر صورة مألوفة فى العالم الثالث: «(فى الاتحاد السوفيتى السابق) لم تكن حقوق التملك الخاص للأرض واستخدامها ونقل ملكيتها محددة بصورة كافية، ولم يكن القانون يحميها بصورة واضحة.. ولاتزال الآليات المستخدمة فى اقتصادات السوق لحماية حقوق الأرض تحبو... وتواصل الدولة نفسها تقييد استخدام الحقوق المتعلقة بالأرض التى لا تملكها»^(٣). وتبين التقديرات المستندة إلى استهلاك الكهرباء أنه فيما بين ١٩٨٩ و١٩٩٤، زاد نصيب النشاط غير الرسمى فى الدول السوفيتية السابقة من الإنتاج الإجمالى من ١٢ فى المائة إلى ٣٧ فى المائة. بل إن البعض يقدر النسبة بأعلى من ذلك.

لا شىء من هذا يعد جديدا بالنسبة لمن يعيشون خارج الغرب. فكل ما تحتاجه هو أن تفتح نافذة أو تركب تاكسيا من المطار إلى فندقك لتشاهد محيطات المدن مكتظة بالبيوت وجيوش الباعة ينادون على بضاعتهم فى

الشوارع، وتلمح الورش الصاخبة خلف أبواب الجراجات، وتلتقى بالحافلات التى تتقاطع مساراتها فى شوارع كابية. إن عدم التمتع بحماية القانون ينظر إليه عادة باعتباره قضية «هامشية»، تماثل الأسواق السوداء فى البلدان المتقدمة، أو الفقر أو البطالة. إن العالم القائم خارج نطاق القانون ينظر إليه بصورة نموذجية باعتباره مكانا تتجول فيه العصابات، والشخصيات الفاسدة التى لا تهم سوى الشرطة وعلماء الأنثروبولوجيا وبعثات التبشير.

والواقع أن المشروعات والتمتع بحماية القانون هى الهامشية، فقد أصبح عدم التمتع بحماية القانون هو القاعدة. وسيطر الفقراء بالفعل على مقادير هائلة من العقارات والإنتاج. إن تلك الوكالات الدولية التى تدفع بمستشاريها إلى الأبراج الزجاجية التى تومض فى الدوائر الأنيقة من المدن للقاء مع «القطاع الخاص» المحلى، لا تتحدث إلا لجزء فقط من عالم تنظيم الأعمال. إن القوى الاقتصادية البازغة فى بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة هم جامعو القمامة، وصناع الأدوات المنزلية، وشركات التشييد غير القانونية القائمة فى الشوارع البعيدة. والاختيار الحقيقى الوحيد المتاح لحكومات هذه البلدان هو ما إذا كانت ستدمج هذه الموارد فى الإطار القانونى المنظم والمتناسك، أم تتركها لتستمر فى العيش فى حالة فوضى.

كم يبلغ مقدار رأس المال الذى لا يدر عائدا؟

خلال العقد الماضى، أجرى الباحثون المعاونون لى، بمساعدة المهنيين المحليين العارفين بالأوضاع، مسوحا لخمس من مدن العالم الثالث - القاهرة، ليما، مانايلا، مكسيكوسيتى، وبورت - أو - برنس - فى محاولة لتقدير قيمة ممتلكات هؤلاء الأشخاص الذين استبعدتهم القوانين التمييزية عن الاقتصاد الرأسمالى (وقد لخصت هذه النتائج فى صورة بيانية فى الأشكال الواردة فى التذييل ص ٢٤١ - ٢٤٥). ولنزداد ثقة فى النتائج التى توصلنا إليها، ركزنا انتباهنا على الأصول الملموسة التى يمكن اكتشافها بدرجة أكبر: العقارات. فعلى خلاف بيع الأغذية أو الأحذية، وإصلاح السيارات، أو صناعة ساعات كارتيه الزائفة - وهى أنشطة يصعب حصرها، بل يعد تقدير قيمتها

أمرا أكثر صعوبة - فإن المباني لا يمكن إخفاؤها. ويمكنك أن تحدد قيمتها بمجرد حساب تكاليف مواد البناء، وملاحظة أسعار بيع المباني الماثلة. وقد أمضينا ألافًا كثيرة من الأيام ونحن نعدّ المباني صفا بعد صف. وحيثما صرّح لنا بذلك، نشرنا النتائج التي حصلنا عليها في كل بلد، حتى يمكن مناقشتها وانتقادها علانية. وقمنا بالتعاون مع أشخاص في المواقع، باختبار وإعادة اختبار مناهجنا ونتائجنا.

وقد اكتشفنا أن الطريقة التي يبني بها الناس في القطاع الذي يعاني عدم كفاية رأس المال تتعدد أشكالها بقدر تعدد العقوبات القانونية التي يلتفون حولها. والشكل الأوضح هو الكوخ الذي يتم بناؤه على أرض مملوكة للحكومة. ولكن الباحثين المتعاونين معنا اكتشفوا طرقا أكثر إبداعا للالتفاف حول القوانين العقارية. ففي بيرو مثلا، شغل الناس تعاونيات زراعية لشراء الممتلكات من ملاكها القدامى وتحويلها إلى مستوطنات سكنية وصناعية. ونظرا لعدم وجود طرق قانونية سهلة لتغيير حيازة الأرض، قام المزارعون في التعاونيات المملوكة للدولة بصورة غير قانونية بتقسيم الأرض من الباطن إلى قطع أصغر ذات حيازة خاصة. ونتيجة لذلك، فإن القلة، إن وجدت أصلا، لديها سندات ملكية سليمة لأراضيها. وفي بورت - أو - برنس، يتم تغيير واضعى اليد على الممتلكات الغالية جدا دون أن يهتم أحد بإخطار مكتب التسجيل، والذي يتعثر العمل فيه ويتأخر على أية حال. وفي مانيلا، تنتصب المساكن على الأراضي المقسمة لمناطق من أجل الاستخدام الصناعي فحسب. وفي القاهرة، قام قاطنو مشروعات الإسكان العام المكونة من أربعة أدوار ببناء ثلاثة أدوار بصورة غير قانونية أعلى عماراتهم وباعوا الشقق للأقارب وغيرهم من الزبائن: وفي القاهرة أيضا، قام المستأجرون القانونيون للشقق التي جمدت إيجاراتها في مطلع الخمسينيات عند مبالغ تقل قيمتها حاليا عن دولار سنويا بتقسيم هذه الممتلكات إلى شقق أصغر وأجروها بسعر السوق.

وبعض هذه المساكن لا تتمتع بحماية القانون منذ اليوم الأول: إذ تم بناؤها في انتهاك لكل أنواع القوانين. ونشأت مبان أخرى - بيوت بورت - أو - برنس، أو شقق القاهرة محددة الإيجار - في إطار النظام القانوني ثم خرجت عنه؛ حيث إن الامتثال للقانون أصبح جد مكلف ومعقد. وبطريقة أو بأخرى، فإن كل أماكن

السكنى تقريبا فى المدن التى قمنا بمسح لها، خرجت عن الإطار القانونى - وعن نفس القوانين التى كان يمكنها افتراضا أن تزود الملاك بعمليات الوصف والتمثيل والمؤسسات اللازمة لخلق رأس المال. قد يظل هناك بعض صكوك الملكية أو نوع ما من السجلات فى أيدي شخص ما، لكن الوضع الشرعى للملكية الحقيقية فيما يتعلق بهذه الأصول انزلق بعيدا عن نظام التسجيل الرسمى، مما جعل السجلات والخرائط متقادمة.

والنتيجة هى أن معظم موارد الناس غير مرئية من الناحية التجارية والمالية. فلا يعرف أحد حقا من يملك ماذا أو أين، ومن يمكن مساءلته عن الوفاء بالالتزامات، ومن يعد مسؤولا عن الخسائر والغش، وما هى الآليات المتاحة لإنفاذ سداد مقابل الخدمات والسلع المقدمة. والنتيجة، هى أن معظم الأصول المحتملة فى هذه البلدان لم يتم تحديدها وتجسيدها؛ ورأس المال الذى يمكن الحصول عليه قليل، واقتصاد التبادل مقيد وراكد.

إن صورة القطاع الذى يعانى عدم كفاية رأس المال تختلف بصورة صارخة عن الفكرة التقليدية عن العالم النامى. ولكن هذا العالم هو الذى يعيش فيه معظم الناس. إنه عالم يصعب فيه تتبع ملكية الأصول وجعلها شرعية، ولا تحكم مجموعة من القواعد يمكن إدراكها وتحديدها قانونا؛ حيث لم يتم وصف وتنظيم الخصائص الاقتصادية للأصول التى يحتمل أن تكون مفيدة؛ حيث لا يمكن استخدامها للحصول على فائض القيمة من خلال الصفقات والمعاملات المتعددة لأن طبيعتها غير المحددة وما يحيط بها من عدم يقين يتركان مجالا كبيرا لسوء الفهم، وعيوب الذاكرة، والنكوص عن الاتفاقيات حيث معظم الأصول، باختصار، هى رأسمال غير منتج لا يدر عائدا.

كم يساوى مقدار رأس المال الذى لا يدر عائدا؟

يملا رأس المال غير المنتج الذى لا يدر عائدا، وفى الواقع تلال منه، شوارع كل البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة. ففى الفلبين، ووفق حساباتنا، يعيش ٥٧ فى المائة من سكان المدن و٦٧ فى المائة من سكان الريف فى بيوت

تعد رأس مال لايدر عائدا. وفي بيرو، يعيش ٥٣ فى المائة من سكان المدن و٨١ فى المائة من أهل الريف فى مساكن خارجة عن نطاق القانون.

بل إن الأرقام أكثر إثارة فى هاييتى ومصر. ففي هاييتى، وأيضاً وفق المسوحات التى قمنا بها، يعيش ٦٨ فى المائة من سكان المدن و٩٧ فى المائة من أهل الريف فى مساكن ليس لدى أحد سندات ملكية قانونية واضحة بشأنها. وفي مصر، فإن الإسكان الذى يمثل رأس مال لايدر عائدا يأوى ٩٢ فى المائة من سكان المدن و٨٣ فى المائة من أهل الريف.

وكثير من هذه المساكن لا يساوى الكثير بالمقاييس الغربية. ذلك أن كوخا فى بورت - أو - برنس قد لا يجلب سوى مبلغ قليل يبلغ ٥٠٠ دولار، ولا تجلب كابينة واقعة على مجرى مائى ملوث فى مانىلا سوى ٢٧٠٠ دولار، ولا يجلب بيت جيد تماما فى قرية خارج القاهرة سوى نحو ٥٠٠٠ دولار، وفى التلال المحيطة بليما، لا يقدر بيت محترم ذى طابق واحد والملحق به جاراج ونوافذ بانوراما، إلا بعشرين ألف دولار فقط. ولكن هناك الكثير جدا من مثل هذه المساكن، وتزيد قيمتها فى مجموعها عن إجمالى ثروة الأغنياء.

وفى هاييتى، تساوى الحيازات العقارية الريفية والحضرية التى ليست لها سندات ملكية فى مجموعها نحو ٥,٢ مليار دولار. وبوضع هذا المبلغ فى سياقه، نجد أنه يمثل أربعة أمثال مجموع كافة الأصول العاملة بصورة قانونية فى هاييتى، وتسعة أمثال قيمة كل الأصول التى تملكها الحكومة، و١٥٨ مثل قيمة كل الاستثمار الأجنبى المباشر فى تاريخ هاييتى المسجل حتى ١٩٩٥. هل هاييتى استثناء، هل هى جزء من إفريقيا الناطقة بالفرنسية وضعت خطأ فى نصف الكرة الأمريكى، حيث أحرّ نظام دوفالييه ظهور قانونى منهجى؟ ربما.

فلننظر إذن فى وضع بيرو، وهى بلد أسبانى وهندى أمريكى له تقاليد مختلفة وتكوين إثنى مختلف. إذ تبلغ قيمة العقارات الحضرية والريفية فى بيرو التى يحوزها أصحابها بصورة لا تتمتع بحماية القانون، نحو ٧٤ مليار دولار. ويمثل هذا خمسة أمثال القيمة الإجمالية المتداولة فى بورصة ليما قبل انهيار ١٩٩٨، ويزيد إحدى عشرة مرة على قيمة المشروعات والمرافق الحكومية القابلة للخصخصة، ويبلغ أربعة عشر مثل قيمة كل الاستثمار الأجنبى المباشر

فى البلاد خلال تاريخها الموثّق. هل تجادل أيضا فى أن اقتصاد بيرو الرسمى قد أصيب بالتقرّض من جراء تقاليد إمبراطورية الإنكا القديمة، والنفوذ الباعث على الفساد لأسبانيا الاستعمارية، والحرب الأخيرة التى شنتها فرق «الدرب المضى» التى تهتدى بتعاليم «ماو»؟

حسن جدا، لننظر بعدئذ فى حالة الفلبين، وهى محمية آسيوية سابقة للولايات المتحدة. ففىها، تبلغ قيمة العقارات التى ليس لها سند ملكية ١٢٢ مليار دولار، تشكل أربعة أمثال رسملة ٢١٦ شركة محلية مسجلة فى بورصة الفلبين، وسبعة أمثال إجمالى الودائع فى البنوك التجارية فى البلاد، وتسعة أمثال إجمالى رأس مال المشروعات المملوكة للدولة، وأربعة عشر مثل قيمة كل الاستثمار الأجنبى المباشر.

ربما كانت الفلبين أيضا استثناء وخروجا على القياس - أمر يرتبط بكيفية تطور المسيحية فى المستعمرات الأسبانية السابقة. فإن كان الأمر كذلك، فلننظر فى حالة مصر. إذ تبلغ قيمة رأس المال الذى لا يدر عائدا فى العقارات، وفق الحسابات التى أجريناها مع زملائنا المصريين، نحو ٢٤٠ مليار دولار. ويبلغ هذا ثلاثين مثل قيمة كل الأسهم المسجلة فى بورصة القاهرة، ويبلغ، كما سبق أن ذكرت، خمسة وخمسين مثل قيمة كل الاستثمار الأجنبى فى مصر.

وفى كل بلد درسنا أحواله، خلق إبداع الفقراء فى مجال تنظيم المشروعات ثروة واسعة النطاق - ثروة تشكل حتى الآن أكبر مصدر لرأس المال المحتمل اللازم للتنمية. ولا تزيد هذه الأصول كثيرا على حيازات الحكومة، والمتداول فى البورصات المحلية، والاستثمار الأجنبى المباشر فحسب؛ وإنما تزيد مرات عديدة على كل المعونة المتلقاة من البلدان المتقدمة، وكل القروض التى يمنحها البنك الدولى.

بل إن النتائج أكثر إثارة للدهشة عندما نستمد البيانات من البلدان الأربعة التى درسناها ونسقطها على بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة كلها. لقد قدرنا أن نحو ٨٥ فى المائة من قطع الأرضى فى الحضر فى هذه البلدان، وبين ٤٠ و٥٣ فى المائة من قطع الأرضى فى الريف، تتم حيازتها

بطريقة لا يمكن معها استخدامها لخلق رأس المال. إن خلق قيمة على كل هذه الأصول قد تحقق حتما بأعداد تقريبية، ولكننا نعتقد أن تقديرنا دقيقة بقدر الإمكان ومتحفظة تماما.

ووفق حساباتنا، فإن القيمة الإجمالية للعقارات التي يحوزها الفقراء، وإن لم يملكوها بصورة قانونية، في العالم الثالث وفي البلدان الشيوعية السابقة، تبلغ على الأقل ٩,٣ تريليون دولار (انظر الجدول ٢ - ١).

وذلك رقم له قيمته ووزنه الكبيرين: ذلك أن ٩,٣ تريليون دولار تمثل نحو ضعف إجمالي عرض النقود المتداولة في الولايات المتحدة. وهو مبلغ يساوي تقريبا القيمة الإجمالية لكل الشركات المسجلة في البورصات الرئيسية في أكثر ٢٠ بلدا تقدما في العالم: نيويورك، وطوكيو، ولندن، وفرانكفورت، وتورنتو، وباريس، وميلانو، وناسداك، ودسته أخرى. وتزيد على عشرين مثل إجمالي الاستثمار الأجنبي المباشر في كل بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة في السنوات العشر بعد ١٩٨٩، وستة وأربعين مثل كافة قروض البنك الدولي في العقود الثلاثة الأخيرة، وثلاثة وتسعين مثل كل مساعدات التنمية المقدمة من كافة البلدان المتقدمة للعالم الثالث في نفس الفترة.

فدادين من الأمان

إن عبارة «الفقر الدولي» تورد على خاطر فورا صور الشحاذين المعدمين الذين ينادون فوق أرصفة شوارع كالكتا، والأطفال الأفارقة الجوعى الذين يموتون من المسغبة على الرمال. بالطبع إن تلك مشاهد حقيقية، ويطلب الملايين من بنى جلدتنا من البشر المساعدة، وهم يستحقونها. ومع ذلك، فإن الصورة الأشد كآبة للعالم الثالث ليست هي الأكثر دقة. والأسوأ من ذلك، أنها تصرف الاهتمام عن الإنجازات صعبة المرتقى لصغار منظمي المشروعات الذين انتصروا على كل العقبات التي يمكن تخيلها لخلق الجزء الأكبر من ثروة مجتمعهم. إن صورة أكثر صدقا سوف تصف الرجال والنساء الذين ادخروا بكد واجتهاد ليبنوا منزلا لأنفسهم وأطفالهم، والذين ينشئون المشاريع حيث لم يتخيل أحد إمكان قيامها. وإننى أعترض على وصف منظمي المشروعات

جدول (١.٢) رأس المال الحضري والريفى غير المنتج فى العقارات على النطاق العالمى ^(١) (١٩٩٧)

الحضرية					
إجمالي السكان	سكان الحضر (١/)	سكان الحضر (باللايين)	المساكن الحضرية (باللايين)	المساكن الحضرية غير الرسمية (باللايين)	قيمة المساكن الحضرية غير الرسمية (تريليون دولار)
آسيا	١٧٤٧	٢٩٩	١.١	٨٥	١.٧٥
أفريقيا	٥٢٥	٢٣٢	١٦٧	٢٨	٠.٥٨
الشرق الأوسط وشمال أفريقيا	٣٧١	٢٣٢	٤٢	٢٨	٠.٧٤
أمريكا الجنوبية	٣٧٨	٢١١	٢٥١	٤٤	٠.٨٩
الكتيف، أمريكا الوسطى، والكاريبي	١٦١	٢٦٤	١.٣	١٨	٠.٣٦
الصين، اليابان، هونغ كونغ، والتايوان	١٦١١	٢٧٨	١٦٩	١٢٤	٢.١٦
الإجمالى للرقعى	٤٧٤٣	٢٣٩	١٨٥٩	٣١٦	٦.٤٨
بلدان نامية أخرى	١٩١	٢٣٩	٧٥	١٣	٠.٣٦
الإجمالى	٤٩٣٤		١٩٢٤	٣٨٧	٦.٧٤

الريفية

إجمالي السكان	سكان الحضر (١/)	سكان الحضر (باللايين)	المساكن الريفية غير الرسمية (باللايين)	المساكن الريفية غير الرسمية (باللايين)	قيمة المساكن الريفية غير الرسمية (تريليون دولار)
آسيا	٤٨٥٨٦	٢٤٤	٢١٥٦٤٤	١٤٢٧٨٨	٦٣٦٥
أفريقيا	٧٢٨٦٣٩	٧٥٠	٣٦٨٩٩٢	٨٨١٦٦	٧٨.٦٣٦
الشرق الأوسط وشمال أفريقيا	٤٤٤٦٦٥	٢٤٠	١٧٧٧٦٦	١١٨٢.٦	٠.٣٩
أمريكا الجنوبية	٦.٧٤٠.٧	٢٤٩	٣٩٧٩٩٥	٥٩٦٠	١٨٢.٦
الكتيف، أمريكا الوسطى، والكاريبي	١٢٤٥٤١	٧٥٣	٧١.٢٥	٢.٨١٢	٠.٢٤
الصين، اليابان، هونغ كونغ، والتايوان	١١٥١١٧٨	٢٤٧	٥٤١٤٢	٣٥٤٢١	٠.٠٩
الإجمالى للرقعى	٣٥٦١١١٨	٢٤٧	١٦٧.٨٨٤	١١٤٧١٩	١١٤٧١٩
بلدان نامية أخرى	٣٥٩٩٦٦	٢٤٧	١٦٩٦٦٥	١١٢٨٥٧	٠.٢٤
الإجمالى	٣٩٢٦.٤٤		١٨٤.٤٩	١٢٦٥٧٦	٢.٦٠

٩.٢٤ تريليون دولار الإجمالى غير الرسمى

١. ١٧٩.٠٦ مليا تقريبا طبقا لتقديرات سن ٢٠٠٠

٢. يقدر أن ٢/٥ من قطع الأرض الحضرية غير رسمية، وهو إما (١) تبيت فى تجمعات التجمعات الحضرية، أو (٢) تملك لقطاع الحضرية على الأرض (٣) كانت رسمية لكنها أصبحت غير رسمية. (٤) تبتها الحضرية بين التراب، بالاشتراك مع القطاع الحضرية. ٣. استخدمت قيمة تقديرا ٢٠٧٢ دولارا الميكرو من الأرض الحضرية و١٢٥٠ دولارا الأرض الريفية

الأبطال هؤلاء بأنهم مساهمون فى مشكلة الفقر العالمى.

إنهم ليسوا المشكلة، بل إنهم هم الحل

ففى السنوات التى أعقبت الحرب الأهلية الأمريكية، ذرع محاضر اسمه روسيل كونويل مختلف أرجاء أمريكا يبشر برسالة حركت ملايين الأشخاص. كان يروى حكاية تاجر هندى وعده أحد العرّافين بأنه لا ريب سيصبح غنيا بما يفوق الخيال، فقط إذا بحث عن كنزه. وجاب التاجر العالم فقط ليعود إلى بلده عجوزا حزيناً ومهزوماً. وعندما همّ بدخول منزله المهجور، شعر بالرغبة فى شربة ماء. لكن البئر الموجودة فى أملاكه كانت قد انطمرت. وأخذ وهو مكدود جارفه ليحفر بئراً جديدة - ولما هم بذلك ارتطم فوراً بالجولكوندا، أكبر منجم للآلماس فى العالم.

إن رسالة كونويل رسالة مفيدة. ولا يقتضى الأمر أن يذرع قادة بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة الوزارات الأجنبية، ولا المؤسسات المالية الدولية بحثاً عن حظهم. ففى خضم أفقر المجاورات ومدن الكواخ لديهم، يوجد - إن لم يكن فدايين من الآلماس - تريليونات من الدولارات، كلها جاهزة لوضعها موضع الاستعمال، فقط إذا أمكن التوصل إلى السر الذين يبيّن كيف يمكن تحويل هذه الأصول إلى رأس مال حى يدر عائداً.

الفصل الثالث

سرّ رأس المال

إنّ الوعي بالعالم لا بد وأن يقع خارجه. ففي العالم، كل شيء على ما هو عليه، ويحدث بالصورة التي يحدث بها. ولا توجد قيمة فيه - وإذا وجدت، فستكون بلا قيمة.

وإذا كانت هناك قيمة لها قيمة، فلا بد أن تكمن خارج كل ما يحدث وأن تكون كذلك. لأن كل ما يحدث ويكون كذلك يتم عرضاً. إن ما يجعله غير عارض لا يمكن أن يقع في العالم، لأنه في غير هذا، سيصبح عارضاً من جديد. لا بد أن يقع خارج العالم.

— لودفيج فيتجنشتاين، «مسيرة المنطق الفلسفي»

إذا سرت في معظم طرق الشرق الأوسط، والاتحاد السوفيتي السابق، أو أمريكا اللاتينية، فسترى أشياء كثيرة: منازل مستخدمة كماوى، وقطع من الأراضي الزراعية تمت حرثتها وبذر البذور فيها وحصاد محصولها، وسلع تباع وتشتري. إن الأصول في البلدان النامية وفي البلدان الشيوعية السابقة تخدم في المحل الأول هذه الأغراض المادية المباشرة. بيد أن نفس الأصول في الغرب تحيا أيضاً حياة موازية، باعتبارها رأس مال خارج العالم المادي. إذ يمكن استخدامها لبعث الحركة في أوصال مزيد من الإنتاج بكفالة مصالح أطراف أخرى «كضمان» لرهن مثلاً، أو بضمان الإمداد بأشكال أخرى من الائتمان والمرافق العامة.

لماذا لا تستطيع المباني والأراضي في أماكن أخرى من العالم أن تحيا

حياة موازية؟ لماذا لا تستطيع الموارد الضخمة التي ناقشناها فى الفصل الثانى - ٩.٣ - ترليون دولار من رأس المال الذى لا يدر عاندا - أن تنتج قيمة فيما وراء حالتها «الطبيعية»؟ وردى على هذا، هو أن رأس المال الذى لا يدر عاندا يوجد لأننا نسينا (أو ربما لم ندرك مطلقا) أن تحويل أصل مادى لتوليد رأس مال - باستخدام ذارك لاقتراض النقود لتمويل مشروع، مثلا - يتطلب عملية معقدة جدا؛ لا تختلف عن العملية التى علمها لنا آينشتين، والتى بمقتضاها يمكن جعل قرميدة واحدة تطلق قدرا هائلا من الطاقة فى شكل انفجار ذرى. وعلى غرار ذلك، فإن رأس المال هو نتيجة لاكتشاف وإطلاق طاقة كامنة من تريليونات من القرميد راكمها الفقراء فى مبانهم.

بيد أن هناك فرقا حاسما واحدا بين إطلاق الطاقة من قرميدة وإطلاق رأس المال من المبانى المشيدة بالقرميد. فعلى الرغم من أن البشر (أو على الأقل مجموعة كبيرة من العلماء) سيطروا على عملية الحصول على الطاقة من المادة، يبدو أننا نسينا العملية التى تتيح لنا الحصول على رأس المال من الأصول. والنتيجة هى أن ٨٠ فى المائة من العالم يعانى نقصا فى رأس المال؛ وأن الناس لا يستطيعون أن يستمدوا الحياة الاقتصادية من مبانهم (أو من أى أصول أخرى) لتوليد رأس المال. والأسوأ من ذلك، أن الدول المتقدمة تبدو عاجزة عن تعليمهم. لماذا يمكن جعل الأصول تنتج رأس مال وفير فى الغرب، ولكن لا تنتج سوى القليل جدا منه فى باقى العالم، ولماذا يعد هذا سرا.

مفاتيح لحل السرّ من الماضى (من سميث إلى ماركس)

لكشف سرّ رأس المال، ينبغى أن نعود إلى المعنى الذى يشكل بذرة الكلمة. ففى اللغة اللاتينية فى العصر الوسيط، يبدو أن كلمة «رأس المال» كانت تدل على رأس من الماشية أو غيرها من الثروة الحيوانية، والتى كانت دوما مصادر مهمة للثروة إلى جانب اللحم الأساسى الذى توفره. والثروة الحيوانية ممتلكات قصيرة الأجل، وهى ثروة منقولة ويمكن إبعادها عن الخطر، ويسهل أيضا عدّها وقياسها. لكن الأمر الأكثر أهمية هو أنه يمكنك أن تحصل من

الثروة الحيوانية على ثروة إضافية، أو على فائض القيمة، بتشغيل صناعات أخرى، بما فى ذلك صناعات الألبان وجلود الحيوان والصوف واللحوم **والوقود**. كما أن للثروة الحيوانية سمة مفيدة هى قدرتها على إعادة إنتاج نفسها. وهكذا يبدأ مصطلح «رأس المال» يؤدى وظيفتين فى نفس الوقت، **الاستئثار** بالبعد المادى للأصل (الثروة الحيوانية) وكذلك إمكانيته لتوليد فائض القيمة. وكانت هناك خطوة قصيرة فحسب من الفناء المحاذى لمخزن الحبوب إلى مكاتب مخترعى علم الاقتصاد، الذين كانوا بصفة عامة يحددون «رأس المال» باعتباره جزءا من أصول البلاد يستهل فائض الإنتاج وزيادة الإنتاجية.

وكان علماء الاقتصاد الكلاسيكيون العظام آدم سميث إلى كارل ماركس، يعتقدون أن رأس المال هو المحرك الذى يزود اقتصاد السوق بالقوة المحركة. وكان رأس المال يعتبر الجزء الرئيسى فى الكل الاقتصادى - العامل المبرز. وكان ما يريدون فهمه هو ماهية رأس المال، وكيف يتم إنتاجه ويتحقق تراكمه. وسواء اتفقت أم لا مع علماء الاقتصاد الكلاسيكيين، حتى وإن اعتبرتهم بلا قيمة ولا شأن لهم (ربما لم يفهم سميث مطلقا أن الثروة الصناعية كانت قيد الحدوث؛ وربما لم يكن لنظرية ماركس عن العمل - التى تتحدث عن القيمة - تطبيق عملى)، فلا شك أن هؤلاء المفكرين قد شادوا صروحا شاهقة للفكر نستطيع الآن أن نقف عليها ونحاول التوصل إلى ما هية رأس المال، وما الذى ينتجه، ولماذا تنتج الدول غير الغربية مثل هذا القدر الضئيل منه؟

وبالنسبة لسميث، كان التخصّص الاقتصادى - تقسيم العمل وما يترتب عليه من تبادل المنتجات فى السوق - هو مصدر الإنتاجية المتزايدة، ومن ثم «ثروة الأمم». وكان رأس المال هو الذى جعل التخصّص والتبادل أمرا ممكنا، وقد حدده سميث باعتباره رصيد الأصول المتراكمة لأغراض إنتاجية. واستطاع منظمو المشروعات استخدام مواردهم المتراكمة لدعم المشروعات المتخصصة: حتى يستطيعوا مبادلة منتجاتهم مقابل أشياء أخرى يحتاجونها. وكلما زاد تراكم رأس المال، أصبح فى الإمكان تحقيق مزيد من التخصّص، وارتفعت إنتاجية المجتمع. ووافق ماركس على ذلك؛ ومن جانبه فهو يرى أن

الثروة التى تنتجها الرأسمالية تجعل نفسها تتراءى فى ركام هائل من السلع الأساسية.

وكان سميث يعتقد أن ظاهرة رأس المال كانت نتيجة تقدم الإنسان الطبيعى من مجتمع صيد الحيوانات والرعى والزراعة إلى المجتمع التجارى، حيث استطاع أن يزيد قدرته الإنتاجية بصورة هائلة من خلال التكافل المتبادل والتخصص والتجارة. كان على رأس المال أن يكون هو السحر الذى يعزز الإنتاجية ويخلق فائض القيمة. وقد كتب سميث يقول: «إن مقدار الصناعة لايزيد فقط فى كل بلد مع زيادة الرصيد (رأس المال) الذى يستخدمه، بل إن نفس المقدار من الصناعة ينتج مقدار أكبر من العمل، من جراء تلك الزيادة»^(١).

وقد أكد سميث على نقطة هى لب السر الذى نحاول حله. فلكى تصبح الأصول المتراكمة رأس مال منتج، وتحرك إنتاجا إضافيا، ينبغى تحديدها وتثبيتها، وتجسيدها فى هدف معين، «يدوم بعض الوقت على الأقل بعد انتهاء العمل. لقد كان ولايزال يمثل مقدارا معيناً من العمل يخترن ويخزن لاستخدامه، عند الضرورة، فى مناسبة ما أخرى»^(٢). وقد حذر سميث من أن العمل المستثمر فى إنتاج الأصول، لن يترك أى أثر أو قيمة إن لم يتم تثبيته وتحديده على نحو صحيح.

ربما يستحق ما كان يقصده سميث حقا أن يكون موضع نقاش مشروع، بيد أن ما أستخلص منه هو أن رأس المال ليس هو الرصيد المتراكم من الأصول، وإنما الإمكانية التى تحوزها فى أن تنتشر إنتاجا جديدا. بالطبع إن هذه الإمكانية مجردة. إذ ينبغى معالجتها، وتحديدها وتثبيتها فى شكل ملموس قبل أن نستطيع إطلاقها - تماما مثل الطاقة النووية الكامنة لقرميدة أينشتين. فبدون عملية التحويل - وهى التى تستخلص وتحدد وتثبت الطاقة الكامنة التى تحويها القرميدة - لن يحدث انفجار؛ فالقرميدة هى مجرد قرميدة. ويتطلب خلق رأس المال أيضا عملية تحويل.

وكان هذا المفهوم - وهو أن رأس المال هو أولا مفهوم مجرد، وينبغى إعطاؤه شكلا محددا ثابتا ولمموسا لكى يكون مفيدا - مألوفاً لدى

الاقتصاديّين الكلاسيكيّين الآخرين. فقد كتب سيموند دى سيسموندى، الاقتصاديّ السويسرى الذى عاش فى القرن التاسع عشر، أن رأس المال «كان قيمة دائمة تتضاعف ولا تفنى... وعندئذ تنفصل هذه القيمة عن المنتج الذى يخلقها، وتصبح كمية ميتافيزيقية وغير مادية توجد دوماً فى حيازة من ينتجها أياً كان، والذى يمكن (تحديد وتثبيت) هذه القيمة فى أشكال مختلفة بالنسبة له»^(٣). وقد كان الاقتصاديّ الفرنسى العظيم جان بابتيست سائى يؤمن بأن «طبيعة رأس المال لا مادية على الدوام؛ حيث إنه ليست المادة هى التى تشكّل رأس المال، وإنما قيمة هذه المادة، وليس هناك شىء مادى بشأن القيمة»^(٤). وقد وافق ماركس على ذلك: ورأى أن المائدة يمكن صنعها من شىء مادى مثل الخشب، «ولكن بمجرد أن تقدم كسلعة، تتغير إلى شىء ما متعال. فهى لا تقف على قدميها فقط على الأرض، وإنما تقف بالنسبة لكل السلع الأخرى، تقف على رأسها، وهى تنشأ عن الأفكار الغريبة لعقلها الخشبى، وهو أمر أكثر إثارة للدهشة مما كانت عليه خراطة المائدة»^(٥).

وقد ضاع هذا المعنى الأساسى لرأس المال على مرّ التاريخ. فرأس المال يتم الخلط حالياً بينه وبين النقود، والتى ليست سوى شكل واحد من أشكال عدة يرتحل بها. وعلى الدوام، فإن تذكر مفهوم صعب فى أحد تجلياته الملموسة أيسر من تذكره فى جوهره. ذلك أن العقل يلتف حول «النقود» بأيسر مما يلتف حول «رأس المال». ولكن من الخطأ افتراض أن النقود هى فى النهاية ما يحدد ويثبت رأس المال. ومثلما أوضح آدم سميث، فإن النقود هى «عجلة التداول الكبرى»، ولكنها ليست رأس مال؛ لأن القيمة «لا يمكن أن تتمثل فى هذه القطع المعدنية»^(٦). بعبارة أخرى، إن النقود تيسر المعاملات، وتسمح ببيع الأشياء وشراؤها، ولكنها ليست فى حد ذاتها هى السلف بالنسبة للإنتاج الإضافى. ومثلما ألح سميث، فإن «النقود الذهبية والفضية، التى يجرى تداولها فى بلدان كثيرة، ربما يمكن بصورة سليمة جداً مقارنتها بالطريق السريع، الذى فى حين أنه يوزع وينقل إلى السوق كل الكلا والذرة فى البلاد، فإنه لا ينتج هو نفسه، أى مقدار من أى منهما»^(٧).

إن جانباً كبيراً من سرّ رأس المال يتبدد بمجرد أن تتوقف عن أن تفكر في «رأس المال» باعتباره مرادفاً «للقود المدخرة والمستثمرة». وأشك في أن سوء الفهم القائل بأن النقود هي التي تحدد وتثبت رأس المال، قد نجم عن أن مشروعات الأعمال الحديثة تعبر عن قيمة رأس المال بمقياس النقود. والواقع، أنه من الصعب تقدير القيمة الإجمالية لمجموعة من الأصول المختلفة الأنواع للغاية، مثل الماكينات، المباني، والأرض، دون الاستعانة بالنقود. وفي نهاية المطاف، فإن هذا هو السبب في اختراع النقود؛ فهي توفر مؤشراً نمطياً لقياس قيمة الأشياء حتى نستطيع تبادل الأصول غير المتماثلة. ولكن رغم فائدة النقود، فإنها لا يمكن أن تثبت وتحدد بأي طريقة الإمكانية المجردة لأي أصل معين بغية تحويله إلى رأس مال. وقد اشتهرت بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة بأنها أصابت اقتصادها بالتضخم بواسطة النقود - في حين لم تكن قادرة على توليد كثير من رأس المال.

الطاقة الكامنة (طاقة الوضع) في الأصول

ما هو الشيء الذي يثبت ويحدد الإمكانات الكامنة في أصل ما حتى تستطيع أن تخلق إنتاجاً إضافياً؟ ما الذي يفصل القيمة عن مجرد بيت، ويحددها ويثبتها بطريقة تتيح لنا إدراك أنها رأس مال؟

يمكن أن نبدأ بإيجاد الإجابة باستخدام المثال الخاص بالطاقة التي نستخدمها. لننظر في حالة بحيرة جبلية. يمكن أن يدور فكرنا حول هذه البحيرة في سياقها المادى المباشر، ونرى بعض الاستخدامات الأولية لها، مثل التجديف بالقوارب وصيد الأسماك. ولكن عندما نتأمل هذه البحيرة نفسها من منظور مهندس، بالتركيز على قدرتها على توليد الطاقة كقيمة مضافة فيما وراء الحالة الطبيعية للبحيرة باعتبارها كياناً مائياً، نكتشف فجأة الإمكانات الكامنة التي يوفرها موقع البحيرة المرتفع. والتحدى الذي يواجهه المهندس هو التوصل إلى الطريقة التي يستطيع بها خلق عملية تتيح له تحويل وتحديد وتثبيت هذه الإمكانية الكامنة إلى شكل يمكن استخدامه للقيام بعمل إضافي.

وفى حالة البحيرة المرتفعة، فإن هذه العملية تتمثل فى إقامة محطة كهرومائية تتيح تحرك مياه البحيرة سريعا فى اتجاه السقوط بقوة الجاذبية، وبذلك يتم تحويل إمكانات البحيرة الكامنة الراكدة لإنتاج الطاقة إلى طاقة حركية للمياه التى تسقط بسرعة. وعندئذ يمكن لهذه الطاقة الحركية الجديدة أن تدير التوربينات، فتخلق طاقة ميكانيكية يمكن استخدامها لإدارة وحدات المغناطيس الكهربائى التى تحولها عندئذ إلى طاقة كهربائية. وباعتبارها كهرباء، فإن الطاقة الكامنة للبحيرة الراكدة (طاقة الوضع) تم تحديدها وتثبيتها عندئذ فى الشكل اللازم لإنتاج تيار يمكن التحكم فيه، ويمكن نقله بعد ذلك من خلال الموصلات السلكية إلى أماكن بعيدة لنشر إنتاج جديد.

وهكذا، فإن بحيرة راکدة فى الظاهر يمكن استخدامها لإضاءة غرفتك وإدارة الماكينات فى مصنع ما. والشئ الذى كان مطلوبا هو عملية خارجية من صنع الإنسان أتاحت لنا: أولا، تحديد الإمكانات الكامنة فى وزن المياه للقيام بعمل إضافى، وثانيا، تحويل هذه الطاقة الكامنة (طاقة الوضع) إلى كهرباء، يمكن عندئذ استخدامها لخلق فائض القيمة. إن القيمة المضافة التى نحصل عليها من البحيرة ليست قيمة البحيرة نفسها (مثل خام نفيس ذاتى بالنسبة إلى الأرض) بل عملية من صنع الإنسان غير ذاتية بالنسبة للبحيرة. إن هذه العملية هى التى تتيح لنا تحويل البحيرة من نوع من الأماكن مخصص للتجديف بالقوارب وصيد الأسماك إلى نوع من الأماكن منتج للطاقة.

إن رأس المال، مثله مثل الطاقة، له أيضا قيمة هاجعة وراكدة غير مستخدمة. ويتطلب بعث الحياة فى أوصاله المضى إلى ما وراء النظر إلى الأصول التى لدينا كما هى عليه، إلى التفكير فيها حسبما يمكن أن تكون عليه. ويتطلب ذلك عملية لتحديد وتثبيت الإمكانية الاقتصادية الكامنة فى أصل ما فى شكل يمكن استخدامه لاستهلاك إنتاج إضافى.

ورغم أن العملية التى تحول الطاقة الكامنة (طاقة الوضع) فى المياه إلى كهرباء معروفة جيدا، فإن العملية التى تخلع على الأصول الشكل المطلوب لتحقيق مزيد من الإنتاج ليست معروفة. بعبارة أخرى، فإنه فى حين أننا نعرف أن بوابات الخزانات والتوربينات والمولدات والمحولات والأسلاك الخاصة بشبكة الطاقة الكهرومائية هى التى تحول الطاقة الكامنة (طاقة الوضع)

للبحيرة حتى يتم تحديدها وتثبيتها فى شكل يمكن الحصول عليه، فإننا لا نعرف أين نجد العملية الأساسية التى تحول الإمكانية الاقتصادية لبيت ما إلى رأس مال.

ويرجع هذا إلى أن تلك العملية الأساسية لم توضع قصدا لخلق رأس المال، وإنما لغرض دنيوى بدرجة أكبر هو حماية الملكية العقارية. فمع نمو نظم الملكية فى البلاد الغربية، تطورت على نحو لا يمكن إدراكه تشكيلة من الآليات التى اندمجت تدريجيا فى عملية تمخضت عن رأس المال كما لم يحدث مطلقا من قبل. ورغم أننا نستخدم هذه الآليات طوال الوقت، فإننا لم ندرك أن لها وظائف فى توليد رأس المال لأنها لم تحمل هذا العنوان. إننا ننظر إليها باعتبارها أجزاء من نظام يحمى الملكية، وليس باعتبارها أداة توشج بين الآليات اللازمة لتحديد وتثبيت الإمكانات الاقتصادية الكامنة فى أصل ما بطريقة يمكن لها تحويله إلى رأس مال. بعبارة أخرى، فإن ما يخلق رأس المال فى الغرب، هو عملية ضمنية مطبورة فى تعقيدات نظم الرسمية للملكية.

عملية التحويل المستترة فى الغرب

قد يبدو هذا أمرا جدّ بسيط، أو جدّ معقد. ولكن لننظر فيما إذا كان ممكنا استخدام الأصول بصورة منتجة إن لم تكن تخص شيئا ما أو شخصا ما. أين نؤكد وجود هذه الأصول والمعاملات التى تحولها وترفع إنتاجيتها، إن لم يكن فى سياق نظام رسمى للملكية؟ أين نسجل السمات الاقتصادية المهمة للأصول، إن لم يكن فى السجلات وسندات الملكية التى تنص عليها النظم الرسمية للملكية؟ أين توجد مدونات السلوك التى تحكم استخدام ونقل ملكية الأصول، إن لم يكن فى إطار نظم الملكية الرسمية؟ إن الملكية الرسمية هى التى توفر العمليات والأشكال والقواعد التى تحدد وتثبت الأصول فى وضع يتيح لنا إدراكها باعتبارها رأس مال منتج.

وفى الغرب، بدأ نظام الملكية الرسمى يحول الأصول إلى رأس مال، بوصف وتنظيم جوانب الأصول الأكثر فائدة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية.

والاحتفاظ بهذه المعلومات فى نظام للتسجيل - باعتبارها ضميمات فى دفتر أستاذ مكتوب، أو علامة ضوئية على ديسك كومبيوتر - ثم يتم إدراجها فى سند للملكية. وتحكم هذه العملية كلها، مجموعة من القواعد القانونية المفصلة والمحددة. وهكذا، فإن سجلات الملكية وسندات الرسمية تمثل مفهومنا المشترك عما يشكل المعنى الاقتصادى لأى أصل. إذ تعكس وتنظم كل المعلومات ذات الصلة المطلوبة لتحديد مفهوم القيمة الكامنة لأصل ما، ومن ثم تتيح لنا التحكم فيها. إن الملكية هى المجال الذى نحدد فيه ونتقصى الأصول، ونجمع بينها ونربطها بالأصول الأخرى. إن نظام الملكية الرسمى هو المحطة الكهرومائية لرأس المال. هذا هو المكان الذى يولد فيه رأس المال.

إن أى أصل لم تحدد وتثبت جوانبه الاقتصادية والاجتماعية فى نظام رسمى للملكية، يصعب لأقصى حد تحركه فى السوق. فكيف يمكن مراقبة تغير ملاك تلك المقادير الضخمة من الأصول فى اقتصاد السوق الحديث، إن لم يكن من خلال عملية رسمية للملكية؟ فبدون مثل هذا النظام، تتطلب التجارة فى أصل ما، لنقل مثلاً عقارا، جهدا هائلا لجرد تحديد أساسيات التعامل: هل يملك البائع، العقار وله حق نقل ملكيته؟ هل يمكنه إبرام تعهدات بشأنه؟ هل يقبل من ينفذون حقوق الملكية المالك الجديد بما هو عليه؟ ماهى الوسائل الفعالة لاستبعاد المدعين الآخرين بالحق؟ تصعب الإجابة على هذه الأسئلة فى بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة. فليس هناك مكان تثبت فيه الإجابات على نحو يعول عليه، بالنسبة لمعظم السلع. وهذا هو السبب فى أن بيع بيت أو تأجيريه قد يتضمن إجراءات مطولة ومرهقة للموافقة تشمل كل الجيران. وهذه عادة هى الطريقة الوحيدة للتحقق من أن المالك يملك فعلا المنزل، وأنه ليست هناك إدعاءات أخرى بالحق بشأنه. وهذا هو السبب أيضا فى أن تبادل معظم الأصول خارج الغرب مقصور على الدوائر المحلية للشركاء فى التبادل.

ومثلما رأينا فى الفصل السابق، فإن المشكلة الأساسية التى تواجهها هذه البلدان لا تتمثل فى الافتقار إلى القدرة على تنظيم المشروعات. فقد راكم الفقراء ما قيمته تريليونات الدولارات من العقارات خلال الأربعين سنة

الماضية. إن ما يفتقر إليه الفقراء هو سهولة الوصول إلى آليات الملكية التي يمكن أن تحدد وتثبت بصورة قانونية الإمكانيات الاقتصادية الكامنة لأصولهم، حتى يمكن استخدامها لإنتاج وضمن وتأمين قيمة أعلى في السوق الموسعة. ففي الغرب، فإن كل أصل - كل قطعة أرض، كل بيت، كل ملك منقول - محدد ومثبت رسمياً في سجلات يجرى تحديثها، وتحكمها قواعد متضمنة في نظام الملكية. إن كل زيادة في الإنتاج، كل مبنى جديد، وكل منتج، وكل شيء له قيمة تجارية، هو ملكية رسمية لشخص ما. وحتى لو كانت الأصول تخص شركة ما، يظل الناس الحقيقيون يملكونها بصورة غير مباشرة، من خلال سندات الملكية التي تشهد على أنهم يملكون الشركة باعتبارهم «حملة أسهم».

ومثل الطاقة الكهربائية، فإن رأس المال لن يتم توليده إن لم يكن المرفق الرئيسى الوحيد الذى ينتجه ويحدده ويثبته قائماً. ومثلما أن البحيرة تحتاج إلى محطة كهرومائية لإنتاج الطاقة الصالحة للاستخدام، فإن الأصول تحتاج إلى نظام رسمى للملكية لإنتاج فائض قيمة كبير. فبدون ملكية رسمية لاستخلاص إمكانياتها الاقتصادية الكامنة وتحويلها إلى شكل يمكن نقله والتحكم فيه بسهولة، فإن أصول البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة تشبه المياه فى بحيرة فى أعالي الأنديز - رصيد غير مستغل من الطاقة الكامنة (طاقة الوضع).

لماذا يصبح تكوين رأس المال سرا كهذا؟ لماذا لم تشرح دول العالم الغنية، التى تسارع بتقديم مشورتها الاقتصادية، كيف أن الملكية الرسمية أمر لاغنى عنه لتكوين رأس المال؟

والإجابة هى أنه يصعب لأقصى حد تصور العملية القائمة خلال نظام الملكية الرسمى التى تعطل تحول الأصول إلى رأس مال. ذلك أنها مستترة فى آلاف النصوص الخاصة بالتشريع واللوائح والتنظيمات والمؤسسات التى تحكم النظام. وكل من يقع فى إسار الشرك القانونى، يصعب عليه تخيل كيف تعمل هذه العملية فى الواقع. والطريقة الوحيدة لرؤيتها هى من خارج النظام - من القطاع الواقع خارج القانون - حيث قمت وزملائي بمعظم العمل. - ومنذ فترة ولان، كنت أنظر للقانون من وجهة نظر غير قانونية، لكى أفهم

على نحو أفضل كيف يعمل وماهى الآثار التى ينتجها. وليس هذا ضربا من الجنون كما يبدو. فمثلا أكد ميشيل فوكو، الفيلسوف الفرنسى، فقد يكون من الأيسر اكتشاف ما يعنيه شىء ما بالنظر إليه من جانب الجسر المقابل. وقد كتب فوكو يقول: «للتوصل إلى ما يعنيه مجتمعنا بسلامة العقل، ربما يتعين علينا أن ندرس ما يحدث فى ميدان الجنون. وأن ندرك ما نعنيه بالمشروعية بما يحدث فى مجال عدم المشروعية»^(٨). وإضافة لذلك، فإن الملكية، مثلها مثل الطاقة، هى مفهوم؛ لا يمكن اختبارها مباشرة. فلم تشاهد الطاقة المحضة مطلقا ولم يتم لمسها. ولا يستطيع أى إنسان أن يرى الملكية. والمرء لا يستطيع أن يختبر الطاقة والملكية إلا بآثارهما.

ومن وجهة نظرى فى القطاع الواقع خارج القانون، رأيت نظم الملكية الرسمية فى الغرب تنتج ستة آثار تتيح لمواطنيه توليد رأس المال. وينبع العجز الذى نشاهده فى الأماكن الأخرى من العالم عن نشر رأس المال، من حقيقة أن معظم الناس فى العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة معزولون تماما عن هذه الآثار الأساسية.

أثر الملكية رقم (١) تحديد وتثبيت الإمكانات الاقتصادية الكامنة للأصول

يمكن كشف القيمة الكامنة فى بيت ما وتحويلها إلى رأس مال منتج، بنفس الطريقة التى يتم بها تحديد الطاقة الكامنة (طاقة الوضع) فى بحيرة جبلية ثم تحويلها إلى طاقة فعلية. وفى كلتا الحالتين، يتطلب التحويل من حالة إلى أخرى عملية تنقل الشئ المادى إلى عالم تمثيلى من صنع الإنسان حيث نستطيع أن نفصل المورد عن قيوده المادية المرهقة، وأن نركز على إمكانياته الكامنة.

إن رأس المال يتولد عن التمثيل كتابية - فى سند ملكية، أوراق مالية، عقد، وغيرها من هذه السجلات - للخصائص الأشد نفعا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بالأصل، مقابل جوانب الأصل الأكثر لفتا للنظر من حيث الرؤية. وهذه هى المرحلة التى يجرى فيها لأول مرة وصف القيمة الكامنة

وتسجيلها. ففي اللحظة التي تركّز فيها انتباه؛ على سند ملكية لبّيت ما مثلاً، وليس على البيت نفسه، تخرج بصورة آلية من العالم المادى إلى الكون الخاص بالمفاهيم حيث يعيش رأس المال. وبذلك، فإن تقرأ تمثيلاً يركّز انتباهك على الإمكانية الاقتصادية الكامنة للبيت، بالتخلص من كل الأضواء والظلال الباعثة على الارتباك لجوانبه المادية ومحيطه المحلى. إن الملكية الرسمية تضطرك إلى التفكير فى البيت باعتباره مفهوماً اقتصادياً واجتماعياً. وهى تدعوك إلى المضى إلى ما وراء النظر إلى البيت باعتباره مجرد مأوى - ومن ثم أصلاً لا يدر عانداً - وأن تراه كراسمال حتى ينتج عانداً.

ويظهر الدليل على أن الملكية هى مفهوم صرف عندما يتغير ملاك المنزل: إذ لا يتغير فيه عندئذ شىء من الناحية المادية. إن النظر إلى بيت لن يخبرك بمن يملكه فالبيت الذى تملكه اليوم يبدو تماماً مثلما كان يبدو أمس عندما كان ملكاً لى. فهو يبدو على نفس الشاكلة سواء كنت أملكه أو أستأجره أو بعته لك. والملكية ليست هى البيت نفسه وإنما المفهوم الاقتصادى عن البيت، مجسداً فى تمثيل قانونى. ويعنى هذا أن التمثيل الرسمى للملكية شىء منفصل عن الأصل الذى يمثله.

ما الذى يتوافر للتمثيل الرسمى للملكية ويتيح له القيام بعمل إضافى؟ ليس التمثيل مجرد شىء يحل محل الأصل؟ أكرر الرد بلا: فالتمثيل الرسمى للملكية مثل سند الملكية ليس استنساخاً للبيت، مثل صورة فوتوغرافية له، وإنما تمثيل لمفهوماً عن البيت. إنه يمثل تحديداً الخصائص غير المرئية التى لها إمكانية كامنة لإنتاج قيمة. وهذه ليست الخصائص المادية للبيت نفسه، وإنما الخصائص ذات المعنى من الناحية الاقتصادية والاجتماعية التى نخلعها نحن بنو البشر على البيت (مثل القدرة على استخدامه فى تشكيلة من الأغراض يمكن ضمانها عن طريق الرهن العقارى، والرهن، حق الارتفاق، وغيرها من الاتفاقيات).

وفى البلدان المتقدمة، يعمل هذا التمثيل الرسمى للملكية كوسيلة لضمان مصالح الأطراف الأخرى، ولخلق الخضوع للمساغة بتوفير كل المعلومات

والإسنادات والقواعد وآليات التنفيذ المطلوبة للقيام بذلك. ففي الغرب، على سبيل المثال، يمكن بسهولة استخدام معظم الملكيات الرسمية كضمان **لقرض**؛ أو كحقوق للمساهمين مقابل الاستثمار؛ وكعنوان لتحصيل **الضرائب** والديون والرسوم؛ وكموقع لتحديد الأفراد لأغراض تجارية وقانونية ومدنية؛ وكمحطة نهائية مسؤولة لتلقى خدمات المرافق العامة، مثل خدمات الطاقة والمياه والصرف الصحي والتليفونات والكابل. وفي حين أن **الليبيوت** تعمل في البلدان المتقدمة كمأوى أو أماكن عمل، فإن تمثيلها يحيا حياة موازية، ويقوم بتشكيلة من الوظائف الإضافية لضمان مصالح الأطراف الأخرى.

وهكذا، فإن الملكية القانونية وفرت للغرب أدوات لإنتاج فائض القيمة، إضافة إلى أصولها المادية. ومكّن تمثيل الملكية الناس من التفكير في الأصول ليس فقط من خلال المعرفة المادية لها، وإنما أيضا من خلال وصف خصائصها الاقتصادية والاجتماعية الكامنة. وسواء تم ذلك بقصد أو بغير قصد، فقد أصبح نظام الملكية القانونية هو السلم الذي ارتقت به هذه الدول من عالم الأصول في حالتها الطبيعية إلى عالم مفاهيم رأس المال، حيث يمكن النظر إلى الأصول في ضوء إمكانياتها الإنتاجية الكامنة الكاملة.

وعن طريق الملكية القانونية، توافر للدول المتقدمة في الغرب مفتاح التنمية الحديثة، وأصبح لدى مواطنيها حاليا - بسهولة كبيرة وعلى أساس مستمر - الوسائل اللازمة لاكتشاف الخصائص الإنتاجية الكامنة لمواردها. ومثلما اكتشف أرسطو منذ ٢٣٠٠ سنة خلت، فإن ما تستطيع أن تفعله بالأشياء يزيد إلى ما لا نهاية عندما تركز تفكيرك على إمكانياتها الكامنة. وعن طريق تعلم تحديد وتثبيت الإمكانيات الاقتصادية الكامنة لأصولهم من خلال سجلات الملكية، أنشأ الغربيون مسارا سريعا لتقصي الجوانب الأكثر إنتاجية لممتلكاتهم. وأصبحت الملكية الرسمية السلم إلى عالم المفاهيم، حيث يمكن اكتشاف المعنى الاقتصادي للأشياء وحيث يولد رأس المال.

أثر الملكية رقم (٢)؛ إدماج المعلومات المتناثرة فى نظام واحد

مثلما رأينا فى الفصل السابق، لا يستطيع معظم الناس فى البلدان النامية، وفى البلدان الشيوعية السابقة الاستفادة من نظام الملكية القانونى، كما هو قائم، مهما اجتهدوا فى المحاولة. ونظرا لأنهم لا يستطيعون أن يدرجوا أصولهم فى نظام الملكية القانونى، فإن الأمر ينتهى إلى تملكهم لها بصورة غير قانونية. ويرجع السبب فى أن الرأسمالية انتصرت فى الغرب، وتغلّت فى باقى العالم إلى أن معظم الأصول فى الدول الغربية قد أدمجت فى نظام واحد رسمى للتمثيل.

ولم يحدث هذا الإنتاج مصادفة واتفاقا. فخلال عدة عقود فى القرن التاسع عشر، جمّع السياسيون والمشرعون والقضاة، معا الحقائق والقواعد المتناثرة التى حكمت الملكية فى كل المدن والقرى والمباني والمزارع لتعمل معا، وأدمجوها فى نظام واحد. وأودع هذا «التجميع بغرض العمل معا» لكل أشكال تمثيل الملكية، والذى شكّل لحظة ثورية فى تاريخ البلدان المتقدمة، كل المعلومات والقواعد التى تحكم الثروة المتراكمة لمواطنيها فى قاعدة واحدة للمعرفة. وقبل تلك اللحظة، كانت القدرة على الحصول على المعلومات عن الأصول أقل كثيرا. إذ كانت كل مزرعة أو مستوطنة تسجل أصولها والقواعد التى تحكمها فى دفاتر أستاذ بدائية، وفى رموز أو شهادات شفوية. لكن المعلومات كانت مجزأة ومبعثرة وغير متوافرة لأى وكالة بمفردها فى أى لحظة محددة. ومثلما نعرف جيدا الآن، فإن وفرة الحقائق لا تمثل بالضرورة وفرة فى المعرفة. ولكى تكون المعرفة مجدية فى العمل، كان على البلدان المتقدمة أن تدمج فى نظام شامل واحد كل بياناتها المتفرقة والمعزولة عن الملكية.

ولم تفعل هذا البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة. وفى كل البلدان التى درست أوضاعها، لم أجد مطلقا نظاما قانونيا واحدا، وإنما وجدت عشرات بل مئات النظم، تديرها كل أنواع المنظمات، بعضها قانونى، والبعض الآخر لا يتمتع بحماية القانون، وتتراوح من مجموعات منظمى المشروعات الصغيرة إلى منظمات الإسكان. وبالتالي، فإن ما يستطيع الناس فى هذه البلدان أن يفعلوه

بملكيتهم كان مقصورا على ما يتخيله الملاك ومعارفهم. أما فى البلدان الغربية، حيث المعلومات عن الملكية نمطية ومتاحة للكافة، فإن ما يستطيع الملاك أن يفعله بأصولهم يستفيد من التخيّل الجماعى لشبكة أوسع من الناس.

وقد تدهش القارئ، فى الغرب معرفة أن معظم بلدان العالم لا يزال يتعين عليها أن تدمج اتفاقات الملكية التى لا تتمتع بحماية القانون فى نظام قانونى رسمى واحد. فبالنسبة للغربيين، يفترض أن هناك قانونا واحدا فقط - القانون الرسمى. ومع ذلك، فإن اعتماد الغرب على نظم متكاملة للملكية هو ظاهرة ترجع فى أقصاها للمائتى عام الأخيرة. وفى معظم البلدان الغربية، ظهرت نظم الملكية المتكاملة منذ نحو مائة عام خلت فقط. ومثلما سنرى بالتفصيل لاحقا، كانت ترتيبات الملكية غير الرسمية المتباينة ذات يوم هى القاعدة فى كل البلدان. كان التعددية القانونية هى المعيار فى القارة الأوروبية بخلاف الجزر البريطانية، حتى أعيد اكتشاف القانون الرومانى فى القرن الرابع عشر وجمعت الحكومات كل تيارات القانون فى نظام واحد منسق.

وفى كاليفورنيا بعد هوجة الذهب مباشرة فى ١٨٤٩، كان هناك نحو ثمانمائة سلطة قضائية منفصلة للملكية، لكل منها سجلاتها ولوائحها الفردية الخاصة التى تم وضعها بتوافق الآراء المحلى. وعبر الولايات المتحدة كلها، من كاليفورنيا إلى فلوريدا، اتفقت روابط الحقوق المدعى بها، على القواعد الخاصة بها وانتخبت مسؤوليها. واستغرق الأمر أكثر من مائة عام، حتى أواخر القرن التاسع عشر، لكى تصدر حكومة الولايات المتحدة نظاما أساسيا خاصا يدمج الأصول الأمريكية ويضفى عليها طابعا رسميا. وبإصدار أكثر من خمسة وثلاثين نظاما قانونيا خاصا بحق الشفعة والتعدين، استطاع الكونجرس تدريجيا أن يدمج فى نظام واحد قواعد الملكية غير الرسمية التى أنشأها ملايين المهاجرين وواضعوا اليد. وكانت النتيجة هى قيام سوق متكاملة للملكية حركت النمو الاقتصادى المتفجر للولايات المتحدة بعد ذلك.

والسبب فى أنه من الصعب تتبع تاريخ هذا الإدماج لنظم الملكية الشاسعة، هو أن العملية تمت عبر فترة طويلة جدا من الزمان. إذ بدأت سجلات الملكية

الرسمية تظهر في ألمانيا مثلاً، في القرن الثاني عشر، لكنها لم تتكامل بصورة تامة إلا في ١٨٩٦، عندما بدأ نظام «دفتر الأرض» Grundbuch لتسجيل المعاملات بشأن الأرض يعمل على نطاق قومي. وفي اليابان، بدأت الحملة القومية لإضفاء الصفة الرسمية على ملكية المزارعين في أواخر القرن التاسع عشر، ولم تنته إلا في أواخر أربعينيات القرن العشرين. ولا تزال جهود سويسرا غير العادية لجمع النظم المتباينة التي تحمي الملكية والمعاملات معا في نهاية القرن العشرين غير معروفة جيداً، حتى للكثيرين من السويسريين.

ونتيجة للإدماج والتكامل، يستطيع المواطنون في البلدان المتقدمة الحصول على وصف للسماح الاقتصادية والاجتماعية لأي أصل متوافر دون ضرورة لرؤية الأصل نفسه. فلم يعودوا في حاجة للسفر عبر البلد لزيارة كل الملاك جميعهم وجيرانهم؛ ذلك أن نظام الملكية الرسمي يجعلهم يعرفون ما هي الأصول المتاحة، وما هي الفرص القائمة لخلق فائض القيمة. ومن ثم، أصبح تقييم وتبادل الإمكانات الكامنة لأصل ما أكثر سهولة، مما يعزز إنتاج رأس المال.

أثر الملكية رقم (٢): إخضاع الناس للمساءلة

حوّل إدماج كل نظم الملكية في قانون رسمي واحد للملكية، مشروعية حقوق الملاك من السياق المسيس للمجتمعات المحلية إلى السياق غير الشخصي للقانون. ويسرّ إطلاق سراح الملاك من الترتيبات المحلية التقييدية، والوصول بهم إلى نظام قانوني أكثر تكاملاً، إخضاعهم للمساءلة.

وبتحويل الأشخاص ذوي المصالح المتعلقة بالملكية إلى أفراد خاضعين للمساءلة، حددت الملكية الرسمية أفراد بدلاً من الحشود. ولم يعد الناس في حاجة إلى علاقات المجاورات، أو إنشاء ترتيبات محلية لحماية حقوقهم في الأصول. وإذا تحرروا من الأنشطة الاقتصادية البدائية، ومن عبء القيود

الضيقة المرهقة، استطاعوا تقصى كيفية توليد فائض القيمة من أصولهم. ولكن كان هناك ثمن يتعين دفعه: فبمجرد أن أصبح الملاك داخل نظام رسمي للملكية، فقدوا غفلة شخصياتهم، التي لم تعد مجهولة. فعندما يصبح الناس مرتبطين بصورة لا فكاك منها بالعقارات وبمشروعات الأعمال التي يمكن تحديدها وتعيين موقعها بسهولة، يفقدون قدرتهم على الذوبان في وسط الحشود. وقد اختفت هذه العقلية عمليا في الغرب، في حين تم تعزيز إخضاع الفرد للمساءلة. إذ يمكن تحديد الأشخاص الذين لا يدفعون مقابل السلع والخدمات التي يستهلكونها، وتحميلهم جزاءات الفوائد والغرامات، وفرض الحظر عليهم، وتخفيض مراتبهم الائتمانية. وتستطيع السلطات أن تحيط علما بالانتهاكات القانونية والإخلال بالعقود؛ وتستطيع أن توقف تقديم الخدمات، وتقرض الحجز على الممتلكات، وتسحب جزءا من امتيازات الملكية القانونية أو تسحبها جميعها.

إن احترام الملكية والمعاملات في الدول الغربية لم يرسخ في جينات مواطنيها، بل إنه يتحقق نتيجة وجود نظم ملكية رسمية قابلة للإنفاذ. ويشجع دور الملكية الرسمية ليس فقط في حماية الممتلكات وإنما أيضا في تأمين المعاملات، المواطنين في البلدان المتقدمة على احترام سندات الملكية، والوفاء بالعقود، وإطاعة القانون. وعندما يتقاعس أى مواطن عن الالتزام، يتم تسجيل الانتهاك الذي اقترفه في النظام، مما يدمر سمعته كطرف جدير بالثقة بالنسبة إلى جيرانه، وإلى المرافق والمصارف وشركات التليفونات وشركات التأمين وباقى الشبكة التي تربطه الملكية بها.

وهكذا، خلعت نظم الملكية الرسمية في الغرب على الناس نعما ونقما. فرغم أنها جعلت لمئات الملايين من المواطنين مصلحة ودورا في اللعبة الرأسمالية، فإن ما جعل لهذه المصلحة والدور معنى هو إمكان فقدهما. ذلك أن جزءا كبيرا من القيمة الكامنة للملكية القانونية مستمد من إمكانية مصادرتها. وبالتالي، فإن جزءا كبيرا من قوتها يأتي من الخضوع للمساءلة الذي تخلقه، ومن القيود التي تفرضها، ومن القواعد التي تسنها، ومن العقوبات التي تستطيع أن تطبقها. وإذ تتيح الملكية الرسمية للناس أن يتبنوا الإمكانيات

الاقتصادية والاجتماعية الكامنة للأصول، فإنها تغير التصور السائد فى المجتمعات المتقدمة ليس فقط عن الجوائز المحتملة لاستخدام الأصول، وإنما أيضا عن الأخطار. إن الملكية القانونية تستدعى الالتزام.

وهكذا، فإن الافتقار إلى الملكية القانونية يفسّر السبب فى أن المواطنين فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة لا يمكن أن يبرموا عقودا مريحة مع الأجانب، ولا يمكن أن يحصلوا على ائتمان، وتأمين أو خدمات من المرافق: فليس لديهم ملكية يفقدونها. ونظرا لأنهم ليست لديهم ملكية يفقدونها، فإنه لا ينظر إليهم بجدية كأطراف فى تعاقد، إلا من قبل أسرته وجيرانهم المباشرين. إن الأشخاص الذين ليس لديهم ما يفقدونه يقعون فى إسار الدور التحتانى الوضع لعالم ما قبل الرأسمالية.

وفى الوقت نفسه، يستطيع المواطنون فى البلدان المتقدمة التعاقد عمليا على أى شىء معقول، لكن الالتزام هو ثمن الدخول. ويتم فهم الالتزام على نحو أفضل عندما يدعمه تعهد بالملكية، سواء كان ذلك رهنا، أو حق حجز، أو أى شكل آخر للضمان يحمى الطرف المتعاقد الآخر.

أثر الملكية رقم (٤)؛ جعل الأصول منقولة وقابلة للاستبدال

من أهم الأشياء التى يقوم بها نظام الملكية الرسمى، تحويل الأصول من حالة تقل فيها فرص الحصول عليها إلى حال تكثر فيها هذه الفرص، حتى تستطيع القيام بعمل إضافى. وعلى خلاف الأصول المادية، فإن أسانيد التمثيل يسهل جمعها وتقسيمها وتعبئتها واستخدامها لحفز الصفقات فى مجال الأعمال. وبفصل السمات الاقتصادية لأصل ما عن حالته المالية الجامدة، فإن التمثيل يجعل الأصل «منقولا وقابلا للاستبدال» - يمكن تشكيله ليناسب عمليا أى معاملة.

وبوصف كل الأصول فى فئات نمطية، فإن نظاما رسميا متكاملا للملكية يتيح المقارنة بين مبنين مختلفين من الناحية المعمارية ثم بناؤهما لنفس الغرض. ويتيح هذا للمرء أن يميّز سريعا وبصورة غير مكلفة بين أوجه

التشابه والاختلاف فى الأصول، دون حاجة إلى التعامل مع كل أصل كما لو كان فريداً.

كذلك، فإن أوصاف الملكية النمطية فى الغرب مكتوبة لتيسير تجميع الأصول. إذ تتطلب قواعد الملكية الرسمية وصف الأصول وتصويرها بطريقة لا تحدد فقط تفردا وإنما توضح كذلك تشابهها مع الأصول الأخرى، مما يجعل التجميعات المحتملة أكثر وضوحاً. ويستطيع المرء من خلال استخدام السجلات المعيارية أن يحدد (على أساس قيود تشكيل المناطق، من هم الجيران وماذا يفعلون، مربع مساحة المبانى، ما إذا كان يمكن ضمها، الخ) كيفية استغلال عقار معين من العقارات على نحو أكثر ربحية، سواء كمساحة للمكاتب، أو غرف لفندق، أو مكتبة، أو ساحة للراكت أو لإقامة ساونا.

كما يتيح التمثيل تقسيم الأصول دون مساس بها. ففى حين أن أصلاً ما مثل مصنع قد يكون وحدة لا يمكن تقسيمها فى عالم الواقع، فإنه فى عالم المفاهيم الخاص بالتمثيل الرسمى للملكية، يمكن تقسيمه فرعياً إلى أى عدد من الأقسام. وهكذا، يستطيع مواطنو البلدان المتقدمة أن يقسموا معظم أصولهم إلى حصص، يمكن أن يمتلك كل منها أشخاص مختلفون، لهم حقوق مختلفة، للقيام بمهام مختلفة. وبفضل الملكية الرسمية، فإن مصنعا واحداً يمكن أن يحوزه مستثمرون لا نهاية لعددهم، يستطيعون أن يتخلصوا من ملكيتهم دون أن يؤثروا على وحدة وسلامة الأصل المادى.

وبالمثل، ففى البلد المتقدم، يستطيع ابن المزارع الذى يرغب فى اتباع خطى أبيه أن يحتفظ بالمزرعة، بشراء حصص إخوته ذوى العقلية الأكثر توجهاً نحو التجارة. لكن المزارعين فى كثير من البلدان النامية لا يتوافر لهم مثل هذا الخيار، ويتعين عليهم أن يعيدوا باستمرار تقسيم مزارعهم بالنسبة إلى كل جيل حتى تصبح المساحات أصغر من أن يمكن زراعتها على نحو مربح، مما يترك ذريتهم أمام بديلين: الموت جوعاً أو السرقة.

كذلك يستطيع التمثيل الرسمى للملكية أن يعمل باعتباره بديلاً منقولاً للأصول المادية، مما يمكن الملاك ومنظمى المشروعات من محاكاة أوضاع افتراضية بغية تقصى الاستخدامات المربحة الأخرى لأصولهم - مثلاً يخطط

الضباط العسكريون استراتيجيتهم لخوض معركة بتحريك ما يرمز إلى قواتهم وأسلحتهم على الخريطة. ولو أمعنت التفكير، فستجد أن تمثيل الملكية هو الذى يتيح لمنظمى المشروعات محاكاة استراتيجيات الأعمال لتنمية شركاتهم وتكوين رأس المال.

وبالإضافة لذلك، فإن جميع وثائق الملكية الرسمية المعيارية تصاغ بطريقة تيسر القياس السهل لخصائص الأصل. فإن لم تكن الأوصاف المعيارية للأصول متوافرة بصورة جاهرة، فإن أى شخص يريد شراء أصل ما، أو استجاره أو منح انتمان مقابله، سيتعين عليه إنفاق موارد ضخمة لمقارنته وتقييمه بالنسبة للأصول الأخرى - التى ستفتقر هى الأخرى للأوصاف المعيارية. وإذا توفر نظم الملكية الرسمية الغربية المعايير، فإنها تقلل إلى حد كبير تكاليف المعاملات الخاصة بتعبئة الأصول واستخدامها.

وبمجرد أن تدرج الأصول فى نظام رسمى للملكية، فإنها تخلع على مالكيها ميزة ضخمة تتمثل فى إمكان تقسيمها وتجميعها بطرق أكثر عدداً. إذ يستطيع الغربيون تطويع أصولهم لتتفق مع أى ظرف اقتصادى لإنتاج خلاط أكثر قيمة بصورة مستمرة، فى حين يظل قرناؤهم فى العالم الثالث أسرى العالم المادى للأشكال الجامدة غير المنقولة وغير القابلة للاستبدال.

أثر الملكية رقم (٥): تكوين شبكات من الناس

حوّلت نظم الملكية الرسمية المواطنين فى الغرب إلى شبكة من قوى الأعمال التى يمكن تحديدها فرادى وإخضاعها للمساءلة، وذلك بجعل الأصول منقولة وقابلة للاستبدال، وربط الملاك بالأصول والأصول بالعناوين، والملكية بالإنفاذ، وبتيسر إمكانية الحصول على المعلومات الخاصة بتاريخ الأصول والملاك. وأقامت عملية الملكية الرسمية بنية أساسية كلية من أدوات الربط التى تتيح، مثلها مثل فناء التحويل فى السكك الحديدية، للأصول (القطارات) أن تنتقل بأمان بين الناس (المحطات). ولا يتمثل الإسهام الذى قدمته الملكية الرسمية

للجنس البشرى فى حماية الملكية: إذ استطاع واضعوا اليد، ومنظمات الإسكان، والمافيا، بل حتى القبائل البدائية، حماية أصولها بطريقة فعّالة تماما. إن الإنجاز الحقيقى الذى حققته الملكية هو أنها حسنت بصورة جذرية تدفق الاتصالات بشأن الأصول وإمكاناتها الكامنة. كما عززت وضع مالكيها، الذين أصبحوا قوى اقتصادية قادرة على تحويل الأصول ونقلها، داخل شبكة أوسع.

ويفسر هذا كيف تشجع الملكية القانونية موردى خدمات المرافق مثل الكهرباء، والمياه على الاستثمار فى مرافق الإنتاج والتوزيع لخدمة المباني. ذلك أن نظام الملكية الرسمية يربطه قانونا المباني التي تقدم لها الخدمة بملكيها، الذين سيستخدمون الخدمات ويدفعون مقابلها، يقلل خطر سرقة الخدمات. كما يقلل الخسائر المالية الناجمة عن عدم تحصيل الفواتير من أشخاص يصعب تحديد موقعهم، وكذلك الخسائر التقنية الناجمة عن التقدير غير الصحيح للاحتياجات من الكهرباء فى المناطق التي تكون فيها مشروعات الأعمال والسكان سرّيين وليسوا مسجلين. فبدون معرفة من له الحق فى أى أمر ما، وبدون وجود نظام قانونى متكامل حيث يتم نقل القدرة على إنفاذ الالتزامات من المجموعات غير القانونية إلى الحكومة، يصعب حث المرافق على تقديم الخدمات بصورة مربحة. فعلى أى أساس آخر تستطيع أن تحدد المشتركين، وتضع عقودا للاشتراك فى المرافق، وتقيم وصلات الخدمة، وتضمن الوصول إلى قطع الأرض والمباني؟ كيف ستنفذ نظام إعداد الفواتير، وقراءة العدادات، وآليات التحصيل، والرقابة على الفاقد، ومكافحة الغش، وإجراءات مقاضاة المخالفين، وخدمات الإنفاذ مثل إيقاف العدادات؟

إن المباني هى دائما المحطات النهائية للمرافق العامة. والملكية القانونية هى التي تحولها إلى محطات نهائية خاضعة للمساءلة ومسؤولة. وعلى كل من يشك فى هذه الحالة، أن يتأمل حالة المرافق خارج الغرب، حيث تمثل الخسائر التقنية والمالية، بالإضافة إلى سرقة الخدمات، من ٣٠ إلى ٥٠ فى المائة من طاقة كل المرافق المتاحة.

كذلك تزود الملكية القانونية الغربية مشروعات الأعمال بالمعلومات عن الأصول وملاكها، والعناوين القابلة للتحقق منها، والسجلات الموضوعية عن قيمة الملكية، وكل ذلك يؤدي إلى وضع سجلات جديرة بالثقة. وتجعل هذه المعلومات ووجود قانون متكامل، إدارة المخاطر أكثر سهولة، بتوزيعها من خلال أدواتها التي تكفل التأمين ضدها، وكذلك بتجميع الملكية لضمان الديون. وعلى ما يبدو، فإن القليلين هم الذين لاحظوا أن نظام الملكية القانونية في الدول المتقدمة هو مركز شبكة معقدة من الصلات التي تؤهل المواطنين العاديين لتشكيل الروابط مع كل من الحكومة والقطاع الخاص، ومن ثم الحصول على سلع وخدمات إضافية. فبدون توافر أدوات الملكية الرسمية، يصعب تبين كيف يمكن استخدام الأصول لتحقيق كل شيء، أنجزته في الغرب. فكيف تستطيع المؤسسات المالية بغير هذا أن تحدد الجدارة الائتمانية لمقترض محتمل على نطاق واسع؟ كيف تضمن الأشياء المادية، مثل أشجار للأخشاب في أوريغون، استثمارا صناعيا في شيكاغو؟ كيف تستطيع شركات التأمين التوصل إلى، والتعاقد مع، زبائن سيدفعون فواتيرها؟ كيف يمكن توفير خدمات الوساطة في المعلومات والتفتيش والتحقق بصورة كفء وريضة؟ كيف يمكن تسيير تحصيل الضرائب بصورة كفء؟

إن نظام الملكية هو الذي يستخلص الإمكانات الكامنة المجردة من المباني، يحددها ويثبتها في تمثيل يتيح لنا المضي إلى ما وراء الاستخدام السلبي للمباني كمجرد مأوى. ويفشل كثير من نظم سندات الملكية في البلدان النامية في إنتاج رأس المال؛ لأنه لا يعترف بأن الملكية يمكن أن تتجاوز التملك. وتعمل هذه النظم كمجرد جرد لصكوك الملكية ووضع خرائط تحل محل الأصول، دون أن تتيح الفرصة لقيام الآليات الإضافية المطلوبة لخلق شبكة تستطيع فيها الأصول أن تحيا حياة موازية باعتبارها رأس مال. ولا ينبغي الخلط بين الملكية الرسمية وبين نظم الجرد الكبيرة مثل «كتاب يوم الحساب الإنجليزي» (كتاب يحوى سجلا لمسح إحصائي لإنجلترا أجرى في ١٠٨٥ - ١٠٨٦ بأمر من ويليام الفاتح - المترجم) الذي وضع منذ ما يزيد على تسعمائة سنة خلت، أو عملية تسجيل الحقائق في مطار دولي. إن نظاما للملكية يجري فهمه

وتصميمه على النحو الملائم، يخلق شبكة يستطيع الناس من خلالها تجميع أصولهم فى توليفات ومجموعات أكثر قيمة.

أثر الملكية رقم (٦)، حماية المعاملات

هناك سبب مهم فى أن نظام الملكية الرسمى الغربى يعمل مثل شبكة، هو أن كل سجلات الملكية (سندات الملكية وصكوكها والأوراق المالية والعقود التى تصف الجوانب المهمة من الناحية الاقتصادية للأصول) يتم تعقبها وحمايتها بصورة مستمرة، وهى تنتقل عبر الزمان والمكان. ومحطتها الأولى هى الوكالات العامة القِيمة على أدوات التمثيل فى الدول المتقدمة. إذ يدير حفظة السجلات العامة الملفات التى تحتوى على كل الأوصاف المفيدة من الناحية الاقتصادية للأصول، سواء كانت أرضاً أو مبانى أو ملكاً منقولاً، سفناً، صناعات، مناجم أو طائرات. وستخطر هذه الملفات أى شخص يتطلع لاستخدام أصل ما بالأشياء التى قد تقيد أو تعزز مسعاه، مثل الرهن أو الدين، وحق الارتفاق، والإيجارات، والمتأخرات، والتفليسات، والرهن. كما تكفل الوكالات أن الأصول ممثلة بصورة كافية ودقيقة فى مستندات ملائمة يمكن تنقيحها ويسهل الوصول إليها.

وإضافة إلى نظام إمساك السجلات العامة، تطورت خدمات خاصة أخرى عديدة لمساعدة الأطراف فى تحديد وتثبيت ونقل وتتبع أسانيد التمثيل؛ حتى تستطيع أن تنتج فائض القيمة بطريقة سهلة ومضمونة. وتشمل هذه الكيانات الخاصة التى تسجل المعاملات، ومنظمات الضمان المجمد وإقفال الحسابات، وجهات إعداد المستخلصات، وجهات التقييم، وشركات التأمين على سندات الملكية وخيانة الأمانة، وسماسرة الرهن، وخدمات الاستئمان، وجهات الوصاية الخاصة على الوثائق. وفى الولايات المتحدة، تساعد شركات التأمين على سندات الملكية فى حشد التمثيل، بإصدار بوالص تأمين تغطى الأطراف من مخاطر معينة، تتراوح من عيوب سندات الملكية إلى عدم قابلية رهونات للإنفاذ، وعدم قابلية سندات الملكية للتسويق. وبموجب القانون، يتعين على

كافة هذه الكيانات أن تتبع معايير تشغيل صارمة تحكم قدراتها على تتبع الوثائق، ومرافق التخزين المادي، وتشكيل هيئة العاملين.

ورغم أنها أنشئت لحماية كل من ضمان الملكية وضمان المعاملات، فمن الواضح أن النظم الغربية تركز على الأخيرة. ويركز الضمان أساسا على خلق الثقة في المعاملات حتى يستطيع الناس بسهولة أكبر أن يجعلوا أصولهم تحيا حياة موازية باعتبارها رأس مال.

وعلى النقيض من ذلك في معظم البلدان النامية، يقع القانون والوكالات الرسمية في إसार القانون الاستعماري والروماني السابق، المتحيز نحو حماية الملكية. فقد أصبحا قيمين ووصيين على رغبات المتوفى. وقد يفسر هذا السبب في أن إنشاء رأس المال في الملكية الغربية قد حدث بمثل هذه السهولة، وأن معظم الأصول في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة قد انزلت خارج النظام القانوني الرسمي بحثا عن الحراك.

إن التركيز الغربي على ضمان المعاملات يتيح للمواطنين نقل مقادير ضخمة من الأصول بعدد جد قليل من المعاملات. فكيف بغير هذا يمكننا تفسير أن الناس في البلدان النامية، وفي البلدان الشيوعية السابقة لا يزالون يحملون خنازيرهم إلى الأسواق ويبادلونها، واحدا في كل مرة، مثلما كانوا يفعلون من آلاف السنين، في حين أن التجار في الغرب يأخذون الوثائق التي تمثل حقوقهم على الخنازير ويذهبون بها إلى الأسواق؟ إذ يتعامل التجار في بورصة شيكاغو السلعية مثلا من خلال سندات التمثيل، مما يوفر لهم معلومات عن الخنازير التي يتاجرون فيها أكثر مما يحصلون عليه من معلومات لو استطاعوا أن يفحصوا الخنازير ماديا. وفي مقدورهم إبرام صفقات على أعداد ضخمة من الخنازير دون قلق يذكر على ضمان المعاملات.

رأس المال والنقود

تعنى الآثار الستة لعملية الملكية المتكاملة أن بيوت الغربيين لم تعد مجرد مأوى يقيهم المطر والبرد. فهذه البيوت التي خلع عليها وجود تمثيلي، يمكنها الآن أن

تحيا حياة موازية، وأن تقوم بأشياء اقتصادية لم تكن تستطيع القيام بها قبلا. إن نظاما قانونيا للملكية جيد التكاملا في جوهره يقوم بأمرين: أولا، يقلل بصورة هائلة تكلفة الاطلاع على الخصائص الاقتصادية للأصول، بتمثيلها لطريقة تستطيع أفهامنا الإلمام بها سريعا؛ وثانيا، ييسر القدرة على الاتفاق على كيفية استخدام الأصول لخلق مزيد من الإنتاج وزيادة تقسيم العمل. وتمثلت عبقرية الغرب في خلق نظام أتاح للناس أن يدركوا بالعقل، القيم التي لا تستطيع أعين البشر أن تراها مطلقا، والتحكم في الأشياء التي لا تستطيع الأيدي أن تلمسها بتاتا.

ومنذ قرون مضت كان الباحثون يعتقدون أننا نستخدم كلمة «رأس مال» (من الكلمة اللاتينية التي تعني «رأس») لأن الرأس هو المكان الذي نحفظ فيه الأدوات التي نخلق بها رأس المال. ويشير هذا إلى أن السبب في أن رأس المال قد غلغته الأسرار دوما هو أنه، مثله مثل الطاقة، لا يمكن اكتشافه وإدارته إلا بالعقل. إن الوسيلة الوحيدة للمس رأس المال هي قدرة نظام الملكية على تسجيل جوانبه الاقتصادية على الورق، وعزوها لموقع ومالك معينين.

ومن ثم، فالملكية ليست مجرد ورقة وإنما وسيلة وساطة تعكس وتخزن معظم مادة الأشياء المطلوبة لجعل اقتصاد السوق يعمل. إن الملكية تبذر بذور النظام، بإخضاع الناس للمساءلة وجعل الأصول منقولة وقابلة للاستبدال، ويتعقب المعاملات، ومن ثم توفير كل الآليات المطلوبة للنظام النقدي والمصرفي لكي يعمل وللاستثمار كي يثمر. إن العلاقة بين رأس المال والنقود الحديثة تمر خلال الملكية.

واليوم، فإن سجلات الملكية والمعاملات هي التي تزود السلطات النقدية بالأدلة الحاسمة التي تحتاجها لإصدار عطاءات قانونية إضافية. ومثلما كتب العالمان المتبصران جورج أ. ميلر وفيليب ن. جونسون - ليرد، في ١٩٧٦: فإن «العملات الورقية ترجع بأصولها إلى كتابة كمبيالات الديون. (ومن ثم) فإن النقود... تفترض سلفا وجود مؤسسة الملكية»^(٩). إن توثيق الملكية هو الذي يحدد ويثبت الخصائص الاقتصادية للأصول حتى يمكن استخدامها

لضمان المعاملات التجارية والمالية، وفى النهاية لتوفير مبرر تصدر بموجبه البنوك المركزية النقود. ولخلق الائتمان وتوليد الاستثمار، فإن ما يرهق الناس ليس الأصول المادية نفسها، وإنما تمثيل ملكيتها - سندات الملكية أو الأسهم المسجلة - التى تحكمها قواعد يمكن إنفاذها على النطاق الوطنى. إن النقود لا تكسب نقودا. ذلك أنك تحتاج إلى حق ملكية قبل أن تستطيع اجتناء النقود. وحتى إذا أقرضت نقودا، فإن الطريقة الوحيدة التى تستطيع بها أن تكسب منها هى أن تقرض أو تستثمر مقابل نوع ما من وثائق الملكية التى تثبت حقه فى أصل المبلغ والفوائد. ولنكرر القول بأن النقود تفترض سلفا الملكية.

ومثلما أوضح الاقتصاديان الألمانيان البارزان جونا هابنزون، وأوتو شتايجر، «إن النقود لم تخلق مطلقا من العدم من وجهة نظر الملكية، والتى يجب أن توجد دائما قبل أن تستطيع النقود الظهور إلى الوجود»^(١٠). ومع الإقرار بأوجه التشابه بين عملهما وعملى، فقد لفتا انتباهى لمشروع مقال لم ينشر يقول «إن الفائدة والنقود لا يمكن فهمهما بدون مؤسسة الملكية»^(١١). ويؤكدان أن هذه العلاقة غامضة بسبب سوء الفهم الشائع بأن البنوك المركزية تصدر النقود وتدعم قدرة البنوك التجارية على إجراء المدفوعات. وفى رأى هابنزون وشتايجر، فإن ما يفوت العين المجردة هو أن «كل التقدم تحقق فى مجال العمل المصرفى تلقاء الأوراق المالية»^(١٢). أو على حد تعبيرى، أوراق الملكية القانونية. ويتفقان مع هارولد ديمستز على أن أسس حقوق الملكية فى الرأسمالية اعتبرت أمرا مسلما به، ويلاحظان أن جوزيف شومبيتر كانت لديه فكرة غامضة بأن حقوق الملكية هى التى تكفل خلق النقود. ومثلما ذكر توم بيثل على نحو صحيح فى كتابه غير العادى «أنبل انتصار» (The Noblest Triumph) «فإن كثيرا من نعم نظام الملكية الخاصة لم يتم تحليله على نحو سليم»^(١٣).

ومن ثم، فرأس المال كما سبق أن ذكرت، لا تخلقه النقود؛ بل يخلقه الناس الذين تساعدنهم نظم الملكية الخاصة بهم على التعاون والتفكير فى كيف يستطيعون استخدام الأصول التى يراكمونها لنشر إنتاج إضافى؟ لقد تحققت

الزيادة الجوهرية في رأس المال في الغرب التي حدثت خلال القرنين الماضيين، نتيجة التحسين التدريجي لنظم الملكية، مما سمح للقوى الاقتصادية بأن تكتشف وتحقق الإمكانات الكامنة للأصول التي تملكها، ومن ثم تصبح في وضع يمكنها من إنتاج نقود غير تضخمية تمول بها، وتولد إنتاجا إضافيا.

ومن ثم، فنحن أقدر من السناجب التي تخزن الطعام من أجل الشتاء وتلجأ للاستهلاك المؤجل. ونحن نعرف من خلال الاستخدام الحاذق لمؤسسات الملكية، كيف نخلع على الأشياء التي نراكمها حياة موازية. فعندما حشدت الدول المتقدمة معا كل المعلومات والقواعد بشأن أصولها المعروفة، وأقامت نظاما للملكية تتعقب تطورها الاقتصادي، جمعت في نظام واحد كل العملية المؤسسية التي تشكل أساس خلق رأس المال. ولو كان للرأسمالية عقل، لوقع في نظام الملكية القانوني. ولكن مثلها مثل معظم الأشياء التي تخص العقل، فإن كثيرا من «الرأسمالية» الحالية يعمل على مستوى اللاوعي.

لماذا لم يقم الاقتصاديون الكلاسيكيون، الذين كانوا يعرفون أن رأس المال شيء مجرد ويتعين تحديده وتثبيته، صلة بين رأس المال والملكية؟ ربما يكمن أحد التفسيرات في أنه في أيام آدم سميث، بل وحتى ماركس، كانت نظم الملكية لاتزال مقيدة وغير متطورة، وكان من الصعب تقدير أهميتها. وربما كان الأمر الأهم، هو أن المعركة من أجل مستقبل الرأسمالية تحولت من الدراسات التي تزرع بها كتب المنظرين، إلى شبكة واسعة من منظمى المشروعات والممولين والسياسيين والفقهاء. لقد تحول انتباه العالم من النظريات إلى الصفقات الحقيقية التي تبرم في الواقع، يوما بعد يوم، وسنة مالية بعد سنة مالية.

وبمجرد أن تقوم آلة الرأسمالية الهائلة على أساس متين، وينشغل سادتها بخلق الثروة، فإن السؤال عن كيف تحقق كل ذلك يفقد الحاجة. فمثل الأشخاص الذين يعيشون في دلتا نهر طويل غنية وخصبة، فإن دعاة الرأسمالية لم يعدوا في حاجة ملحة لتقصي منابع مصدر ازدهارهم. فلماذا يهتمون؟ بيد أنه مع نهاية الحرب الباردة، أصبحت الرأسمالية هي الخيار الوحيد الجاد للتنمية.

ومن ثم اتجه باقى العالم إلى الغرب طلبا للمساعدة، وتم نصحه بتقليد ظروف المعيشة القائمة فى الدلتا: عملات مستقرة، أسواق مفتوحة، ومشروعات أعمال خاصة، وهى أهداف ما يسمى إصلاحات التصحيح الاقتصادى الكلى والهيكلى. ونسى الجميع أن سبب الحياة الغنية للدلتا يقع بعيدا عند أعالى النهر، فى منابع المياه غير المستكشفة. إن نظم الملكية القانونية التى يسهل الوصول إليها هى الغرين القادم من أعالى النهر الذى يسمح بازدهار رأس المال الحديث.

وهذا هو أحد الأسباب الرئيسية فى عدم نجاح الإصلاحات الاقتصادية الكلية. ذلك أن تقليد الرأسمالية على مستوى الدلتا، باستيراد تراخيص ماكدونالد وبلوكباستر، ليس كافيا لخلق الثروة. ذلك أن رأس المال هو المطلوب، ويتطلب هذا نظاما قادرا ومعقدا للملكية القانونية نعتبره جميعا أمرا مسلما به.

ناقوس برودل الزجاجى

يأتى معظم تهميش الفقراء فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة من عدم قدرتها على الاستفادة من الآثار الستة التى تحدثها الرأسمالية. ولا يتمثل التحدى الذى تواجهه هذه البلدان فيما إذا كانت يتعين عليها أم لا أن تنتج أو تتلقى مزيدا من النقود، وإنما فيما إذا كانت تقدر على استيعاب المؤسسات القانونية، واستجماع الإرادة السياسية اللازمة لبناء نظام للملكية يسهل على الفقراء الوصول إليه.

وقد وجد المؤرخ الفرنسى فيرنان برودل أن هناك سرا كبيرا فى أن الرأسمالية الغربية حذمت فى بدايتها قلة من ذوى الامتيازات فقط، مثلما تفعل فى أماكن أخرى من العالم حاليا:

إن المشكلة الأساسية هى التوصل إلى السبب فى أن هذا القطاع من المجتمع المنتمى للماضى، والذي لن أتردد فى أن أدعوه رأسماليا، قد عاش فيما يشبه الناقوس الزجاجى، منفصلا عن الباقي؛ والسبب فى أنه لم يقدر على أن يتوسع

ويغزو المجتمع كله؟.. (لماذا) لم يكن في الإمكان تحقيق معدل عال من تكوين رأس المال إلا في قطاعات معينة، وليس في اقتصاد السوق كله في ذلك العصر؟.. وربما يبدو من التناقض على نحو يغيظ القول بأنه أيا كان النقص في أشياء أخرى، فإن النقود لم تعان نقصا على وجه التأكيد... ومن ثم كان هذا عصرا تم فيه شراء أراضي الفقراء وبناء مساكن ريفية فخمة، وشيدت أثار كبرى، وتم تمويل التبذير الثقافي.. (كيف) نحل التناقض... بين المناخ الاقتصادي الكاسد، وبين أبهة فلورنسا في ظل لورنزو العظيم^(١٤)

أعتقد أن الإجابة على سؤال برودل تكمن في الفرص المقيدة للحصول على الملكية الرسمية، سواء في الغرب في الماضي، أو في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة في الوقت الحالي. إن لدى المستثمرين المحليين والأجانب رؤوس أموال؛ وأصولهم متكاملة بدرجة أو بأخرى، ومنقولة وقابلة للاستبدال، ومرتبطة في شبكة، وتحميها نظم الملكية الرسمية. لكنهم أقلية ضئيلة فقط - هؤلاء الذين يطبقون دفع أتعاب المحامين، ولهم صلات بأهل الداخل المسيطرين، ويبدون الصبر المطلوب للملاحة في أرجاء روتين نظم الملكية الخاصة بهم. أما الغالبية العظمى من الناس، الذين لا يستطيعون جنى ثمار عملهم الذي يمثله نظام الملكية الرسمية، فيعيشون خارج ناقوس برودل الزجاجي.

إن الناقوس الزجاجي يجعل الرأسمالية ناديا خاصا، مفتوحا فقط للقلة ذات الامتيازات، ويثير سخط المليارات الذين يقفون خارجه وينظرون إلى ما بداخله. ومن المحتم أن يستمر هذا الفصل العنصري الرأسمالي حتى تنفق جميعا على علاج العيب الحاسم في النظم القانونية والسياسية لكثير من البلدان، التي تحول دون دخول الأغلبية إلى نظام الملكية الرسمي.

لقد أن الأوان للتوصل للسبب في أن معظم البلدان لم تستطع إنشاء نظم مفتوحة للملكية الرسمية. لقد حلت اللحظة المناسبة، حيث إن بلدان العالم الثالث، والبلدان الشيوعية السابقة تعيش خلال أكثر مساعيها طموحا لإقامة نظم رأسمالية، وإزاحة الناقوس الزجاجي.

لكن قبل أن نجيب على ذلك السؤال، يتعين علينا كشف باقى سر السبب في أن الحكومات كانت جد بطيئة في إدراك أن الناقوس الزجاجي موجود.

الفصل الرابع

سرّ الوعى السياسى

الكلاب تواصل النباح، والشحانون يفدون للمدينة؛
بعضهم فى اسمال وبعضهم فى أثواب مشقوقة،
وبعضهم فى عبااءات حريرية.

— قصيدة انجليزية للأطفال

كان انهيار أنماط السكان والقانون الملزم، اتجاها لاختطئه العين فى البلدان النامية خلال الأربعين سنة الماضية، وفى البلدان الشيوعية السابقة خلال السنوات العشر المنصرمة. ومنذ أن بدأ الإصلاح الاقتصادى الذى قام به دنج زياوينج فى ١٩٧٩، ترك ١٠٠ مليون صينى ديارهم الرسمية، بحثا عن وظيفة لا تتمتع بحماية القانون. وخلق ثلاثة ملايين مهاجر غير شرعى يحاصرون بكين، خليطا مشوشا من الورش الصغيرة التى تدفع أجورا منخفضة وتسودها ظروف غير صحية فى أطراف المدينة. وقد نمت بورث - أو برنس خمس عشرة مرة عما كانت عليه؛ ونمت جواياكويل إحدى عشرة مرة، ونمت القاهرة أربع مرات. وتمثل السوق السرية حاليا ٥٠ فى المائة من الناتج المحلى الإجمالى فى روسيا وأوكرانيا، وتضم ٦٢ فى المائة فى جورجيا. وقد أوردت منظمة العمل الدولية أنه منذ ١٩٩٠، تم إنشاء ٨٥ فى المائة من جميع الوظائف فى منطقة أمريكا اللاتينية والكاريبى فى القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون. وفى زامبيا، فإن ١٠ فى المائة فقط من قوة العمل مستخدمة بصورة قانونية. ما الذى تفعله هذه البلدان إزاء ذلك؟ الكثير جدا. لقد شمרת عن ساعديها

وانخرطت في العمل، وتصدت لكل مشكلة من هذه المشكلات على حدة. ففي أغسطس ١٩٩٩ مثلاً، هدمت السلطات في بنجلاديش ٥٠ ألف كوخ في العاصمة دكا. وحيثما استحال الهدم، بنت الحكومات مدارس وأرصعة للملايين من واضعي اليد الذين غزوا الأراضي العامة والخاصة. وفي الوقت نفسه، دعمت الحكومات برامج لتمويل المشروعات الصغيرة جداً لمساعدة الورش التي تحول المساحات السكنية إلى مناطق صناعية في كل مكان. وحسّنت أكشاك الباعة المقامة على الأرصفة التي تسد شوارعها، وأزالّت أكواماً من الركاب من ميادين مدنها وغرست الورود مكانها، وشددت قوانين البناء والسلامة لمنع انهيار المباني مثلما حدث في تركيا خلال زلزال ١٩٩٩. وسعت الحكومات لإجبار الأتوبيسات الصغيرة المستقلة والتاكسيات البالية التي تتسبب في اكتظاظ المرور، على الوفاء بمعايير الحد الأدنى للسلامة؛ وطاردت سرقة وفقد المياه والكهرباء، وحاولت إنفاذ براءات الاختراع وحقوق المؤلف. وألقت القبض على، وأعدمت، أكبر عدد من رجال العصابات ومهربي المخدرات (على الأقل أشهرهم) وسجنتهم (على الأقل لفترة)؛ وشددت تدابير الأمن للسيطرة على نفوذ الفرق السياسية من المتطرفين بين الحشود النازحة والمعرضة للمعاناة.

ولكل من هذه المشكلات خاصيتها الأكاديمية التي تستدعي الدراسة، وكل منها يقتضي برنامجاً سياسياً للتصدي له. ويبدو أن القلة هي التي تدرك أن ما يواجهنا هنا هو ثورة صناعية ضخمة على النطاق العالمي: حركة عملاقة بعيداً عن الحياة المنظمة على نطاق صغير إلى حياة منظمة على نطاق كبير. وسواء كان ذلك أمراً طيباً أو سيئاً، فإن الناس خارج الغرب يهربون من الاكتفاء الذاتي والمجتمعات المنعزلة، في محاولة لرفع مستويات معيشتهم بأن يصبحوا معتمدين على بعضهم البعض في أسواق أكبر كثيراً.

وما يندر فهمه بدرجة كبيرة، هو أن مجتمعات العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة تشهد تقريباً نفس الثورة الصناعية التي حدثت في الغرب قبل ما يزيد على قرنين من الزمان. والفرق هو أن هذه الثورة الجديدة تهدر منطلقاً للأمام بصورة أسرع، وتغير حياة أعداد أكبر من الناس. لقد كانت

بريطانيا تعيل ٨ ملايين نسمة فحسب عندما بدأت تقدمها الذى استمر ٢٥٠ سنة من الزراعة إلى الكمبيوتر المحمول. وقطعت إندونيسيا نفس الرحلة فى أربعة عقود فقط، وأعالت سكانا يزيد عددهم على ٢٠٠ مليون. ولا غرو أن تكيف مؤسساتها كان بطيئا، لكنه كان لابد لها أن تتكيف. إن موجة هائلة من البشر انتقلت من المجتمعات والأسر المعيشية المغلقة إلى المشاركة فى دوائر متسعة دوما من التبادل الاقتصادى والفكرى. وهذه الموجة هى التى حولت جاكارتا، ومكسيكو سيتي، وساو باولو، ونيروبي، ويومباى، وشنغهاى، ومانيلا إلى مدن عملاقة تضم ١٠، ٢٠، ٣٠ مليونا وتسيطر على مؤسساتها السياسية والقانونية.

وأجبر إخفاق النظام القانونى عن مسايرة هذا الجيشان الاقتصادى والاجتماعى المدهش، المهاجرين الجدد على اختراع بدائل للقانون القائم، خارجة عن القانون. وفى حين أن كل ضروب معاملات الأعمال الغفل غير المسماة منتشرة فى البلدان المتقدمة، فإن المهاجرين فى العالم النامى لا يستطيعون التعامل إلا مع الناس الذين يعرفونهم ويثقون بهم. ومثل هذه الترتيبات غير الرسمية والخاصة بحالات محددة لأداء الأعمال، لاتعمل بصورة جيدة. فكلما اتسعت السوق، مثلما أوضح آدم سميث، زاد تقسيم العمل صغرا. وإذا يغدو العمل أكثر تخصصا، ينمو الاقتصاد بكفاءة أكبر، وترتفع الأجور والقيم الرأسمالية. إن الفشل القانونى الذى يحول دون قيام من يشروعون فى تنظيم المشروعات بالتفاوض مع الغرباء، يهزم تقسيم العمل ويربط من يرغبون فى أن يصبحوا منظمى مشروعات بحلقات أصغر من التخصص والإنتاجية المنخفضة.

لقد انتصرت القدرة على تنظيم المشروعات فى الغرب لأن القانون يدمج الجميع فى نظام واحد للملكية، ويوفر لهم وسائل التعاون وإنتاج مقادير ضخمة من فائض القيمة فى سوق أخذة فى التوسع. ولم يمكن تحقيق التقدم فى الغرب، وصولا إلى النمو الحالى بمعدل أسى فى تكنولوجيا المعلومات الإلكترونية والاتصالات السلكية واللاسلكية، إلا لأن نظم حقوق الملكية المطلوبة

لجعله يعمل، كانت قائمة بالفعل. فقد دمرت نظم الملكية القانونية المتكاملة المجموعات الأكثر انغلاقاً، فى حين حفزت على إنشاء شبكة أكبر حيث زادت الإمكانية الكامنة لخلق رأس المال بصورة كبيرة. وبهذا المعنى، فإن الملكية تخضع لما يعرف «بقانون ميتكاف» (المسمى باسم بوب ميتكاف، مخترع الشبكات المحلية لربط الحاسبات الشخصية بطريقة إيثرنت). وحسب قانون ميتكاف فإن:

قيمة شبكة ما - محددة بمنفعتها للسكان - تتناسب تقريباً مع مربع عدد المستخدمين لها. وشبكة التليفونات مثال لذلك. ذلك أن وجود تليفون واحد لا يفيد: ممن ستطلب به؟ ووجود تليفونين أفضل، ولكن ليس أفضل كثيراً. ذلك أنه عندما يوجد لدى معظم السكان تليفون، تصل قوة الشبكة على تغيير المجتمع لأقصاها^(١).

ونظم الملكية، مثلها مثل شبكات الكمبيوتر، التى وجدت قبل سنوات من التفكير فى الربط بينها، تصبح قوية وقادرة بصورة هائلة عندما يتم الربط بينها فى شبكة أكبر. فعندئذ فقط، لاتقتصر إمكانات حق معين للملكية على خيال مالكيها، وجيرانه، أو معارفه، وإنما تخضع لشبكة أكبر من خيال الآخرين. وعندئذ فقط، سيخضع الناس أنفسهم للالتزام بمدونة قانونية واحدة: لأنهم سيدركون أنه بدون هذه المرونة سيتوقف ازدهارهم. وعندئذ فقط، تستطيع الحكومة أن تشرع فى إدارة التنمية؛ بدلا من أن تندفع فى بطولة لسد كل مكان يتم منه التسرب. ولايمكن أن تستمر فى الحياة حكومة حديثة واقتصاد للسوق بدون وجود نظام رسمى متكامل للملكية. ويرجع كثير من مشكلات الأسواق غير الغربية حالياً أساساً إلى تفتت ترتيبات الملكية لديها، وعدم وجود قواعد معيارية تسمح بتفاعل الأصول والقوى الاقتصادية، وتتيح للحكومة أن تحكم بمقتضى القانون.

وعندما ينتقل المهاجرون من البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة إلى البلدان المتقدمة، فإن المؤسسات المتطورة جيداً تستوعبهم فى نهاية المطاف فى نظام للملكية يشكل شبكة تساعد على إنتاج فائض القيمة. ولايتكيف

الأشخاص الذين يهاجرون داخل بلادهم الخاصة بهذه الطريقة - على الأقل ليس بالسرعة الكافية. وتفتقر البلدان الأكثر فقرا إلى المؤسسات اللازمة لإدماج المهاجرين فى القطاع الرسمى، وتحديد وثبثيت أصولهم فى أشكال منقولة وقابلة للاستبدال، وجعل ملاكها قوى خاضعة للمساءلة، وتزويدهم بأدوات الاتصال والتأثير التى تتيح لهم التداخل بصورة منتجة وتوليد رأس المال داخل سوق قانونية كبيرة. لذلك يبتكر المهاجرون، على حساب النظام القانونى، تشكيلة متنوعة من الترتيبات غير القانونية لتحل محل القوانين والمؤسسات التى يحتاجون للتعاون معها فى سوق متوسعة.

ومن ثم، يتمثل العمى السياسى فى عدم الوعي بأن نمو القطاع غير القانونى، وإنهيار النظام القانونى القائم، يرجعان فى نهاية المطاف إلى التحرك العملاق بعيدا عن الحياة المنظمة على نطاق صغير إلى حياة منظمة فى سياق أكبر. إن ما يغيب عن الزعماء الوطنيين هو أن الناس ينتظمون بصورة تلقائية فى مجموعات منفصلة غير قانونية إلى أن تستطيع الحكومة تزويدهم بنظام قانونى واحد للملكية.

ولا تتمثل المشكلة الأساسية التى تواجهها الدول غير الغربية فى أن الناس ينتقلون إلى المراكز الحضرية، وأن القمامة تتكدس أكواما، وأن البنية الأساسية غير كافية، أو أن الريف يتم هجره. فكل ذلك حدث فى البلدان المتقدمة. ولا تكمن المشكلة ببساطة فى النمو الحضرى. فقط نمت لوس أنجلوس أسرع من كالكتا فى هذا القرن، ونمت طوكيو أكبر ثلاث مرات من دلهى. إن المشكلة الأساسية هى تأخر الاعتراف بأن معظم الاضطراب الحادث خارج الغرب هو نتيجة لحركة ثورية مملوءة بالوعود أكثر مما هى مملوءة بالمشاكل. وبمجرد أن يتم تسخير القيمة الكامنة للحركة، يصبح حل كثير من مشاكلها أكثر سهولة. ويتعين على البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة أن تختار إما إنشاء النظم التى تتيح لحكوماتها التكيف مع التغيرات المستمرة فى التقسيم الثورى للعمل، أو مواصلة العيش فى حالة بلبلة غير قانونية - والواقع أنه ليس فى هذا اختيار كبير.

لماذا أغفل الجميع المشكلة الحقيقية؟ لأن هناك بقعتين عمياويين: الأولى، أن معظمنا لا يرون أن التزايد الكبير فى عدد سكان العالم غير القانونيين خلال الأربعين عاما الماضية، قد ولّد طبقة جديدة من منظّمى المشروعات لها ترتيباتها القانونية الخاصة بها. فالسلطات الحكومية لا ترى سوى التدفق الضخم للداخل من الأشخاص والعمال غير القانونيين، وخطر المرض والجريمة. ولذلك، ففى حين تتعامل وزارة الإسكان مع القضايا الخاصة بها، وتركز وزارتا الصحة والعدل على قضاياهما، لم يلحظ أحد أن السكان ليسوا هم السبب الحقيقى فى الاضطراب، ولا النمو الحضرى، أو حتى الأقلية الفقيرة، وإنما النظام البالى للملكية القانونية.

إن معظمنا يشبهون العميان الستة فى وجود الفيل: فقد أمسك أحدهم مقدمة خرطومهم الدقيقة وظن أن الفيل ثعبان؛ ووجد آخر الذيل وظنه حبلا؛ وأغرت الثالث أذناه الكبيرتان فخاله شرعا؛ وضم آخر رجله وخلص إلى أن الفيل شجرة. لم ينظر أحد منهم للفيل فى تمامه، ومن ثم فلم يستطيعوا أن يتوصلوا لاستراتيجية للتعامل مع المشكلة الكبيرة جدا المطروحة. وكما رأينا، فإن الفقراء فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة يشكلون ثلثى سكان العالم - وليس لديهم من بديل سوى العيش خارج القانون. وكما شاهدنا أيضا، فإن لدى الفقراء وفرة من الأشياء، ولكن ليس هناك أى قانون يحدد حقوقهم فى الملكية. إن ملايين الأشخاص الذين يقيمون المشروعات ويشغلون ٨٥ فى المائة من الوظائف الجديدة فى أمريكا اللاتينية، والثلاثة ملايين صينى الذين يعملون فى ورش غير قانونية خارج بكين، وأولئك الروس الذين يولّدون نصف الناتج المحلى الإجمالى لبلادهم، يحققون ذلك على أساس ترتيبات غير قانونية. وفى الغالب الأعم، فإن ترتيبات الملكية الجماهيرية هذه تتناقض صراحة مع القانون المكتوب الرسمى. وذلك هو الفيل الذى يقف أمامنا.

إننى لا أعتقد أن ظهور جيوب صغيرة من القطاعات الاقتصادية المزدهرة فى خضم قطاعات كبيرة متخلفة أو غير رسمية يعد بشيرا بفجر انتقال غير

متكافئ، ومع ذلك فهو محتم، نحو النظم الرأسمالية. بل إن وجود جيوب مزدهرة فى بحر من الفقر، يخفى تخلفا مطبقا فى قدرة البلد على خلق واحترام وتوفير حقوق الملكية الرسمية لغالبية مواطنيه.

والنقطة العمياء الثانية هى أن القلة تسلم بأن المشكلات التى تواجهها ليست جديدة. إن الهجرة والمدن المبتلاة بالخروج على القانون فى العالم النامى والعالم الشيوعى السابق تشبهان بصورة وثيقة ما تعرضت له بلدان الغرب المتقدمة خلال ثورتها الصناعية. فقد ركزت هى أيضا بالدرجة الأولى على حل مشكلاتها الواحدة تلو الأخرى. والدرس المستفاد من الغرب هو أن الحلول الجزئية والتدابير البديلة المؤقتة لتخفيف عبء الفقر لم تكن كافية. فلم ترتفع مستويات المعيشة إلا عندما أصلحت الحكومات القانون ونظام الملكية لتيسير تقسيم العمل. ومن خلال القدرة على زيادة إنتاجيتهم باستغلال الآثار المفيدة لنظم الملكية المتكاملة، استطاع الناس العاديون التخصص فى أسواق أخذة فى التوسع دوما وزيادة تكوين رأس المال.

النقطة العمياء الأولى: الحياة خارج الناقوس الزجاجى حاليًا

لماذا لم نتبين هذه الثورة الصناعية الجديدة وهى قادمة؟ فإذا رجعنا إلى الثمانينيات من القرن العشرين، عندما بدأ عملنا فى بيرو أنا وزملائى، كان معظم المسؤولين يفترضون أن القانون يسيطر إلى حد كبير على الجزء الذى نشغله من العالم. ذلك أن لأمريكا اللاتينية تقاليد قانونية طويلة وراقية ومحترمة جدا. ولاريب، أنه كان هناك فقراء يشغلون وظائف ويملكون ملكيات خارج القانون، لكن هذا القطاع الخارج على القانون كان يعتبر صغيرا نسبيا، ومن ثم قضية «هامشية». وكان للبلدان المتقدمة نصيبها من الفقر والبطالة والسوق السوداء، وكان لنا نصيبنا. وكان التصدى لها هو أساسا وظيفة الشرطة أو حفنة من علماء الاجتماع الأكاديميين الذين كرسوا

مستقبلهم المهني لدراسة الغرائب الناشئة محليا. وفي أفضل الأحوال، كان الفقراء يشكلون موضوعا لعدد من مجلة «ناشونال جيوغرافيك» أو «قناة ديسكفري».

لكن لم يكن لدى أحد أى بيانات دقيقة، بل لم يكن أحد يعرف كيفية قياس ما يفعله الفقراء حقا، أو مقدار ما يملكونه على وجه الدقة. ومن ثم قررنا - أنا وزملائي - أن نطرح جانبا كتبنا ومجلاتنا الأكاديمية، ناهيك عن المقادير الكبيرة التي لدينا من الإحصاءات والخرائط الحكومية، وأن نزور الخبراء الحقيقيين في المشكلة: الفقراء أنفسهم. وبمجرد أن مضينا للشوارع وتلفتنا حولنا وأصغينا، بدأنا نصطدم بحقائق مذهشة. فعلى سبيل المثال، كانت صناعة التشييد في بيرو تعاني ركودا. إذ كان البناء متوقفا، والعمال يتم تسريحهم. بيد أنه مما يدعو للاستغراب، أن ماكينات محصلي النقدية في منافذ بيع مواد البناء، كانت لاتزال تعمل وأجراسها ترن. والواقع، أن بيع الأسمنت كان يتصاعد. أى شكائر الأسمنت. وبعد مزيد من التقصي، اكتشفنا أن الفقراء كانوا يشترون أسمنتا أكثر من أى وقت مضى لمشروعات التشييد الخاصة بهم - البيوت، المباني، مشروعات الأعمال غير المسجلة قانونا أو التي ليس لها سند ملكية، ومن ثم لم تظهر على شاشات الكمبيوتر الخاصة باقتصادى الحكومة وخبراء الإحصاء بها. وبدأنا نشعر بوجود اقتصاد نابض بالحياة، مستقل، وغير مرئى من الناحية الرسمية، ينز في المدن في كافة أنحاء العالم النامى. ففي البرازيل مثلا، أوردت صناعة التشييد أن النمو بها بلغ ١, ٠ في المائة فقط في ١٩٩٥؛ ومع ذلك تصاعدت مبيعات الأسمنت خلال الشهور الستة الأولى من ١٩٩٦ بما يقرب من ٢٠ في المائة. والسبب في هذا التذوذ الظاهر، حسب تحليل لهيئة «دويتشه مورجان جرينفل»، هو أن من ٦٠ إلى ٧٠ في المائة من التشييد في المنطقة لم يدرج مطلقا في السجلات^(٢).

وأدركنا أن القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون يصعب اعتباره قضية ثانوية. فقد كان ضخما.

المدن النامية

تضخم التحرك نحو المدن فى الستينيات فى معظم البلدان النامية، وفى الثمانينيات بالنسبة للصين. ولأسباب متباينة، تخلت الطوائف المكتفية ذاتيا عن عزلتها، وشرعت تحاول الاندماج فى المدن وفيما حولها. فمئذ الثمانينيات، تجمع ملايين الفلاحين الصينيين بصورة غير قانونية حول المدن إلى حد أن أعلنت جريدة «بيجنج يو ث ديلي» أن «إدارة السكان المهاجرين خرجت عن السيطرة»^(٣).

والظاهرة مألوفة أيضا فى البلدان المحيطة بالبحر المتوسط. وحسبما يقول هنرى بولدريك، فإنه بعد الحرب العالمية الثانية، اتجه المهاجرون من الريف فى تركيا صوب المدن، وينوا مساكنهم الخاصة على الأراضى الحكومية. وتآوى هذه المستوطنات العشوائية، التى تعرف باسم جيسيكوندوس، حاليا نصف سكان الحضر فى تركيا على الأقل. وعلى الرغم من أن البعض منها أضفى عليه طابع قانونى جزئيا على الأقل، ومن ثم استطاع الحصول على بعض الخدمات البلدية، فإن الغالبية لاتزال غير رسمية^(٤).

وفى الفلبين، دعت صحيفة «بيزنس وورلد» الحكومة إلى «استئصال موجة البشر التى تسبب اكتظاظ مدنتنا لحد الانفجار... إذ ترى البارونج - بارونج المصنوعة من الخرسانة وكتل البناء المجوفة - وتبدأ فى التساؤل: ما الذى تفعله الحكومة إزاء مشكلة المشردين المتنامية، ومشكلة واضعى اليد فى مدنتنا»^(٥).

وفى جنوب أفريقيا، يعتقد بعض المراقبين (وأنا منهم) أن القطاع العقارى غير القانونى على شفا توسع ثان كبير. وفى ١٩٩٨، أوردت «النيوزويك» أن «المزيد والمزيد (من السود فى جنوب أفريقيا) يملأون مخيمات واضعى اليد ومدن الاكواخ حول كل مدينة فى جنوب أفريقيا. وفى ظل الفصل العنصرى، كانت قوانين المرور العنصرية تقيد كثيرين من السود بالمناطق الريفية. أما اليوم، فهم يرتحلون بحرية - ولكن نادرا ما يتم ذلك بصورة مريحة»^(٦). وأكدت «الايكونومست» هذا الاتجاه بقولها: «رغم أن العنف السياسى المعادى للبيض

لم يتجسد حقا على الإطلاق، فإن إنتهاء العزل العنصرى جعل تجول فقراء السود فى مناطق البيض الغنية أكثر سهولة»^(٧).

وفى مصر، يعى المثقفون والتكنوقراط على ما يبدو القضية منذ بعض الوقت. فوفق أحد التقارير الأخيرة، فإنه فيما بين ١٩٤٧ و١٩٨٩ «زاد... إجمالى سكان الحضر فى مصر... من ٦,٢ مليون إلى ٢٣,٤٦ مليون»^(٨). وتبين الأرقام التى جمعها وصنفها جيرارد بارثيلمى أن سكان منطقة العاصمة فى بورث - أو - برنس، هاييتى، زادوا من ١٤٠ ألفا فى ١٩٥٠ إلى ١٥٥.٠٠٠ فى ١٩٩٨، ويقتربون حاليا من المليونين. ويقدر بارثيلمى أن نحو ثلثى هؤلاء السكان يعيشون فى مدن الأكواخ، أو ما يسميه أهل هاييتى «أحياء الأكواخ»^(٩).

وفى المكسيك، أصبح القطاع الخاص واعيا على نحو متزايد بالظاهرة غير القانونية، ويشارك بنشاط فى عمل شىء ما بشأنها. وحسب أحد التقارير الإخبارية:

قدّرت دراسة أجراها فى ١٩٨٧ «مركز الدراسات الاقتصادية للقطاع الخاص» أن القطاع غير الرسمى غير القانونى ولّد نشاطا اقتصاديا يساوى ما بين ٢٨٪ و٣٩٪ من الناتج المحلى الإجمالى المكسيكى الرسمى، وقدّرت دراسة أجريت فى ١٩٩٣... عدد الناس فى «القطاع غير الرسمى غير المسجل» بثمانية ملايين من إجمالى القوة العاملة البالغة ٢٣ مليوناً... ويقول أنطونيو مونتيل جويريرو، رئيس «الغرفة التجارية لمشروعات الأعمال الصغيرة فى مكسيكوسيتى»، وهى مجموعة تمثل ١٦٧ ألف مشروع رسمى مسجل صغير: «فى مقابل كل مشروع أعمال رسمى يوجد مشروعان غير رسميين للأعمال. وفى المنطقة الاتحادية (مكسيكوسيتى) يوجد نحو ٢٥٠ ألف مشروع أعمال غير رسمى صغير لعدد إجمالى من السكان يبلغ نحو ٨ ملايين». وما يترجمه ذلك بالنسبة إلى إجمالى سكان منطقة العاصمة مكسيكوسيتى والبالغ ٢٠ مليوناً يتجاوز تخمين أى إنسان، خاصة عندما تتركز مدن الأكواخ غير المنظمة والمتنامية خارج قلب المدينة المركزى^(١٠).

وتتسم المناطق غير القانونية فى البلدان النامية بالبيوت المتواضعة المتلاصقة على أطراف المدينة، وحشد من الورش فى وسطها، وجيوش من

الباعة الذين يتجولون ببضائعهم فى الشوارع، وعدد لا يحصى من خطوط المبنى باص المتقاطعة. وجميعها يبدو وقد انبثق من لا مكان. وتسببت تدفقات مطردة من عمال الحرف الصغيرة، الذين يحملون أدواتهم تحت إبطهم، فى توسع نطاق الأنشطة التى تتم فى المدينة وأضافت عمليات التطويق المحلية لعبقرية إلى إنتاج السلع والخدمات الأساسية، وغيّرت بصورة مثيرة مجالات سعيّة للصناعة التحويلية، وتوزيع التجزئة، والبناء والنقل. إن المشهد الخلفى السلبي الذى كان من قبل يحيط بمدن العالم الثالث أصبح هو أحدث امتداد للعواصم، واستسلمت المدن التى أصيغت نماذجها وفق الأسلوب الأوروبى لشخصية محلية أكثر ضجيجا، مختلطة بتقليد مبتذل للمساحات الضيقة الطويلة التجارية فى ضواحي أمريكا.

إن مجرد الحجم الصرف لمعظم هذه المدن يخلق لها فرصها الخاصة بها. لقد ظهر منظمو مشروعات أعمال جدد، كانوا على خلاف أسلافهم، من أصول متواضعة جدا. وتزايد الحراك لأعلى. وحلت محل أنماط الاستهلاك والترف المقصور على فئات بعينها فى المجتمع الحضرى القديم، أنماط أخرى أوسع انتشارا.

المسيرة نحو المدن

بالطبع، إن الهجرة هى العامل الرئيسى فى النمو الحضرى فى معظم البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة. بيد أنه من الصعب تحديد أسبابها بدقة. إذ يقدم المعلقون فى كل بلد تفسيرات متباينة: حرب، برنامج للإصلاح الزراعى، افتقار إلى الإصلاح الزراعى، حظر خارجى على التجارة الدولية، فتح التجارة الدولية، الإرهاب وفرق حرب العصابات، التفسخ الأخلاقى، فشل الرأسمالية، فشل الاشتراكية، والذوق السيئ (لقد كان الوضع أفضل لهم فى الريف، فلماذا لم يظلوا هناك؟).

بيد أن الآراء تلاقحت مؤخرا حول عدد قليل من الأسباب العامة. وكانت الطرق الأفضل هى التفسير الأكثر بروزا لموجة الهجرة فى كل أنحاء العالم

النامي. فقد نبّه بناء الطرق والكبارى، وتحويل الطرق غير المتصلة بغيرها إلى طرق سريعة جيدة، سكان الريف إلى إمكانية السفر، وبدأوا يتحركون إلى المدن. ووفرت وسائل الاتصال الجديدة حافزا إضافيا. وأثارت الإذاعة، بصفة خاصة، الآمال فى استهلاك ودخل متزايدين. فمن أماكن تبعد آلاف الأميال يأتى الإرسال الإذاعى معلنا عن الفرص وأسباب العيش الكريم والراحة التى توفرها الحياة الحضرية. وبدأت الحداثة فى تناول كل من لديه الشجاعة على السير على الطريق بحثا عنها.

وهناك أيضا اتفاق عريض تماما على أن الأزمات الزراعية فى كثير من البلدان كانت بالمثل عوامل حاسمة. وأدى تحديث الزراعة وعدم اليقين الذى أحاط بسوق بعض المحاصيل التقليدية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، إلى بدء عمليات تسريع ضخمة للعمال فى المزارع التقليدية، وأطلق حشودا واسعة من الناس المستعدين للبحث عن آفاق جديدة.

وكانت هناك أيضا مشكلة حقوق الملكية فى الريف. ولم تؤد العملية الطويلة والمعقدة للإصلاح الزراعى إلا إلى مضاعفة - وأخيرا تفاقم - الصعوبات التقليدية للحصول على الأرض الصالحة للزراعة. وإن عجز كثيرون عن امتلاك الأرض أو العثور على عمل فى الريف، فقد هاجروا إلى المدن.

وكان هناك عامل جذب قوى آخر، هو انخفاض معدلات وفيات الأطفال الرضع فى معظم المدن الرئيسية. واتسعت هذه الفجوة بين وفيات الرضع فى المدن، والمناطق الريفية، عندما شرعت الخدمات الطبية فى المدن فى التحسن بعد الحرب العالمية الثانية. كما كانت الأجور الأفضل حافزا مهما. ففي أمريكا اللاتينية فى ١٩٧٠، مثلا، استطاع الأشخاص الذين كانوا يتركزون الريف ليقوموا بعمل شبه ماهر فى مدن العواصم، أن يضاعفوا أو يزدادوا ثلاث مرات دخلهم الشهري. وربما ضاعفت الوظائف ذات الأجر دخولهم السابقة أربعة أمثال، وربما كسب المهنيون والتقنيون ما يزيد إلى ستة أمثال. والأجر الأعلى يعوض خطر البطالة: فالمهاجر الذى عانى البطالة لمدة عام يستطيع تعويض الدخل الضائع فى شهرين ونصف الشهر فى المدينة. فالحياة فى المدن المزدهرة لم تبد أفضل فقط؛ بل كانت أفضل بالفعل.

بل إن نمو البيروقراطيات الوطنية أصبح حافزا للهجرة. فقد كان تمركز السلطات فى أيدي الموظفين الحكوميين يعنى أن معظم المكاتب الحكومية المختصة بتقديم المشورة، والرد على الطلبات، وإصدار التصاريح، أو توفير الوظائف موجودة فى المدن. وكان أى مهاجر يسعى إلى مستقبل أكثر إشراقا لأطفاله يعرف أن فرص التعليم أفضل كثيرا فى المدن. وكان التعليم يعد استثمارا متزايدا القيمة والإنتاجية بالنسبة للفلاحين العاطلين جزئيا الذين ليس لديهم سبيل للحصول على الأصول سوى عبقريتهم. وكانت المدن تضم معظم خريجي المدارس الثانوية، وكذلك الطلاب الملتحقين بمراكز التدريب المهني، ومدارس ومعاهد التعليم العالي، والمتقدمين للجامعة والمقبولين بها. ومن ثم، يصعب اعتبار الهجرة عملا غير رشيد. وهى لاتتعلق كثيرا «بغريزة القطيع». إنها نتاج تقييم مدروس ورشيد من قبل سكان الريف لوضعهم الراهن، مقيسا فى ضوء الفرص المفتوحة لهم فى أماكن أخرى. وكانوا يعتقدون، صوابا أو خطأ، أن الهجرة لأسواق أكبر ستفيدهم. بيد أن التحرك لم يكن سهلا.

المقراء يعودون لديارهم

يواجه المهاجرون إلى المدن عالما معاديا. وسرعان ما يدركون أنه رغم أن لدى سكان الحضر صورة رومانسية بل وحانية عن المزارعين، وأنهم يسلمون سريعا بأن لكل المواطنين الحق فى السعادة، فإنهم يفضلون أن يلتمس المزارعون الجيدون سعادتهم فى ديارهم، ويؤكدون أن الفلاحين لايفترض أن يأتوا بحثا عن الحداثة. وتحقيقا لهذه الغاية، فإن كل بلد عمليا فى العالم النامى وفى العالم الشيوعى السابق، قصد أن تجلب برامج التنمية الحداثة إلى الريف. وجاء العداء الأكبر للمهاجرين من قبل النظام القانونى. ففى البدء، استطاع النظام بسهولة استيعابهم أو تجاهلهم؛ لأن احتمال قيام المجموعات الصغيرة التى كانت قد وصلت بإشاعة الاضطراب فى النظام القائم لم يكن قائما. بيد أنه مع نمو أعدادهم، إلى الحد الذى لم يعد يمكن معه تجاهلهم، وجد الوافدون

الجدد أنفسهم مبعدين عن الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية الراسخة قانونا. وكان من الصعب عليهم بصورة هائلة أن يحصلوا على المساكن، وأن يدخلوا لجال الأعمال الرسمية، أو أن يجدوا وظيفة قانونية. فقد تطورت المؤسسات القانونية فى معظم بلدان العالم الثالث على مرّ السنين لخدمة احتياجات ومصالح مجموعات حضرية معينة؛ وكان التعامل مع الفلاحين فى المناطق الريفية مسألة مختلفة. وطالما بقى الفلاحون فى أماكنهم لا يبرحونها، لم تبد للعيان التفرقة القانونية الضمنية. بيد أنه بمجرد أن يستقروا فى المدن، يعانون من الفصل العنصرى للقانون الرسمى. وفجأة يصبح الناقوس الزجاجى مرئيا.

كما يواجه بعض بلدان الاتحاد السوفيتى السابق فوضى فى نظم الملكية فيه، ويعترف بعض من النخب على الأقل بالمنافع الاقتصادية الناتجة عن تصحيح ذلك. وحسب تقرير أعد فى ١٩٩٦:

إن آليات... حماية حقوق الأرض زالت فى مرحلة طفولتها الأولى فى روسيا... وفى كثير من المناطق يتعين تسجيل الأرض لدى وكالة منفصلة عن تلك التى تسجل المباني. وبالإضافة لذلك، فإن الحماية القانونية التى يوفرها التسجيل غير واضحة... وينبغى أن تنشأ من الصفر الإجراءات والأعراف الخاصة بحماية واستخدام حقوق الأرض... ربما كانت الأرض أكثر موارد روسيا قيمة، فهى المورد الذى يمكن أن يستند إليه اقتصاد بأكمله ومجتمع ديمقراطى^(١١).

لقد وجدنا أنه فى كل أرجاء العالم الثالث، تزدهر الأنشطة غير القانونية عندما يفرض النظام القانونى قواعد تجهض آمال أولئك الذين يستبعدهم. ومثلما رأينا فى الفصل الثانى، فإن بلدانا كثيرة تجعل العقوبات التى تعترض الانضمام إلى نظم الملكية القانونية مرهقة ومكلفة بدرجة لاتجعل سوى قلة من المهاجرين هم الذين يستطيعون فى أى وقت شق طريقهم عبر الروتين. إذ يقتضى الأمر أربع عشرة سنة وسبعة وسبعين إجراء بيروقراطيا فى إحدى وثلاثين هيئة عامة وخاصة فى مصر، وتسع عشرة سنة و١٧ خطوة بيروقراطية لإضفاء المشروعية على شراء أرض خاصة فى هايتى.

وإذا كانت هناك تكلفة من أجل أن يصبح المرء متمتعاً بحماية القانون، فإن ذلك قمين بأن تكون هناك تكلفة أيضاً للبقاء خارج القانون. فقد وجدنا أن التشغيل خارج عالم العمل ومشروعات الأعمال القانونيين، أمر مكلف على نحو مدهش. ففى بيرو مثلاً، تتضمن تكلفة تشغيل مشروع أعمال بصورة غير قانونية، دفع من ١٠ إلى ١٥ فى المائة من دخله السنوى كرشاوى وعمولات للسلطات. ويضاف إلى هذه المدفوعات، تكاليف تفضادى العقوبات، وإجراء التحويلات خارج القنوات القانونية، والعمل من أماكن متفرقة وبدون ائتمان، ويتضح أن حياة منظم مشروعات الأعمال التى لا تتمتع بحماية القانون أكثر تكلفة بكثير، وأنها مملوءة بالمشاحنات اليومية بدرجة تفوق ما يتعرض له رجال الأعمال القانونيون.

وربما كانت أكبر تكلفة تنجم عن عدم وجود المؤسسات التى تخلق حوافز للناس لاغتنام الفرص الاقتصادية والاجتماعية للتخصص فى السوق. وقد وجدنا أن الناس الذين لا يستطيعون العمل فى إطار القانون، لا يستطيعون أيضاً حيازة الملكية بكفاءة أو إنفاذ العقود من خلال المحاكم؛ كما لا يستطيعون تقليل عدم اليقين من خلال نظم المسؤولية المحدودة وبوالص التأمين، أو إقامة شركات مساهمة لجذب رأسمال إضافى وتقاسم المخاطر. ونظراً لعجزهم عن جمع الأموال اللازمة للاستثمار، فإنهم لا يستطيعون تحقيق وفورات الحجم أو حماية مبتكراتهم من خلال الإتاوات وبراءات الاختراع.

وإذا حُرِم الفقراء من دخول الناقوس الزجاجى، فإنهم لم يستطيعوا مطلقاً أن يقتربوا من آليات الملكية القانونية الضرورية لتوليد رأس المال. وتتبدى الآثار الاقتصادية الشبيهة بالكارثة لهذا الفصل العنصرى القانونى، فى صورتها الصارخة، فى الافتقار إلى حقوق الملكية الرسمية إزاء العقارات. وفى كل بلد بحثنا الأوضاع فيه، وجدنا أن نحو ٨٠ فى المائة من قطع الأراضى لا تحمى سجلات مستكملة لآخر لحظة أو يحوزها ملاك خاضعون للمساءلة قانوناً. ومن ثم، فإن أى تبادل لمثل هذه الملكية التى لا تتمتع بحماية القانون كان مقصوراً على دوائر مغلقة من الشركاء فى التبادل، مما أبقى على أصول الملاك غير القانونيين خارج السوق الآخذة فى التوسع.

وهكذا تم حرمان ملأك الأصول بصورة غير قانونية من الحصول على الائتمان الذى يتيح لهم توسيع أعمالهم - وتلك خطوة أساسية تجاه بدء أو تنمية مشروع أعمال فى البلدان المتقدمة. ففى الولايات المتحدة مثلاً، يأتى ما يصل إلى ٧٠ فى المائة من الائتمان الذى تحصل عليه مشروعات الأعمال الجديدة من استخدام سندات الملكية الرسمية كضمان للرهن. كما أن العمل خارج القانون يعنى غياب حوافز الاستثمار التى توفرها الكفالة القانونية. وبانفصال المهاجرين عن النظام القانونى، فإن ضمان ازدهارهم لا يمكن إلا فى أيديهم. إذ يتعين عليهم التنافس ليس فقط على الأشخاص الآخرين، وإنما مع النظام أيضاً. وإن لم ترحب بهم النظم القانونية لبلادهم الأصلية، فلن يتوافر لهم بديل سوى إقامة النظم غير القانونية الخاصة بهم. وفى رأى، أن هذه النظم غير القانونية تشكل أهم تمرد على الوضع القائم فى تاريخ البلدان النامية منذ استقلالها، وفى بلدان الكتلة السوفيتية السابقة منذ انهيار الشيوعية.

تزايد العمل الذى لا يتمتع بحماية القانون

زاد سكان معظم مدن العالم الثالث الكبرى أربعة أمثال على الأقل فى العقود الأربعة الماضية. وبحلول عام ٢٠١٥، ستضم أكثر من خمسين مدينة فى البلدان النامية ٥ ملايين أو أكثر من البشر^(١٧)، يعيش معظمهم ويعملون غير متمتعين بحماية القانون. إن القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون موجود فى كل مكان فى البلدان النامية وفى البلدان الشيوعية السابقة. وقد ظهرت أنشطة جديدة وحلت تدريجياً محل الأنشطة التقليدية. فإذا تجولت فى معظم الشوارع، فلابد لك من أن تصطدم بالمحلات التى لا تتمتع بحماية القانون، وكذلك التبادل غير القانونى للعملات، والنقل التى لا تتمتع بحماية القانون، وغيره من الخدمات التى لا تتمتع بحماية القانون. بل إن كثيراً من الكتب المطروحة للبيع طبعت بصورة غير قانونية.

لقد تم شراء مجاورات بأكملها، وتطويرها عمرانياً وبناءها فى انتهاك للوائح الحكومية، أو فى تعارض مباشر معها، بواسطة المستوطنات

ومشروعات الأعمال القانونية. فمن كل مائة بيت تم بناؤها فى بيرو، فإن نحو ثلاثين فقط لها سند ملكية قانونى؛ فى حين تم بناء السبعين الباقية بصورة غير قانونية. وقد وجدنا فى كافة أنحاء أمريكا اللاتينية، أن ستة على الأقل من كل ثمانية مبان كانت فى القطاع الذى يعانى عدم كفاية رأس المال، وأن حيازة ٨٠ فى المائة من جميع العقارات لاتتمتع بحماية القانون. وحسب معظم التقديرات، فإن القطاعات الخارجة عن نطاق القانون فى البلدان النامية تضم من ٥٠ فى المائة إلى ٧٥ فى المائة من كل العاملين، وهى مسؤولة عن نسبة تتراوح بين خمس وأكثر من ثلثى الناتج الاقتصادى الإجمالى فى العالم الثالث.

ولننظر فى حالة البرازيل: فمئذ ثلاثين سنة مضت، كان أكثر من ثلثى بناء المساكن يتم من أجل تأجيرها؛ أما اليوم، فإن المساكن المؤجرة تمثل بالكاد ٣ فى المائة من عمليات التشييد فى البرازيل. لقد انتقل معظم السوق إلى الأجزاء غير الرسمية من المدن البرازيلية - الفافىلا. وحسبما يقول دونالد ستيوارت:

إن الناس لا يدركون حجم النشاط الاقتصادى الذى يوجد فى الفافىلا. وقد نشأت هذه الاقتصادات غير الرسمية من روح تنظيم المشروعات لدى الفلاحين من شمال شرق البرازيل، الذين اجتذبهم المراكز الحضرية. إنهم ينشطون خارج الاقتصاد الرسمى المنظم بصورة مفرطة، ويعملون حسب العرض والطلب. وعلى الرغم من النقص الواضح فى الموارد، فإن هذا الاقتصاد غير الرسمى يعمل بكفاءة. ففى الفافىلا، لا يوجد تحديد للإيجارات، وتدفع الإيجارات بالدولار الأمريكى، والمستأجرون الذين لا يدفعون يتم طردهم بسرعة. إن ربحية الاستثمار جيدة، ونتيجة لذلك هناك وفرة من العرض فى المساكن^(١٣).

وقد أوردت «وول ستريت جورنال» فى ١٩٩٧ أنه حسب ما قال فريق «أصدقاء الأرض»، فإن ١٠ فى المائة فقط من الأرض المسكونة فى غابات الأمازون البرازيلية تغطيه سندات ملكية^(١٤). وفى البلدان الأخرى، فإن العمل الذى لا يتمتع بحماية القانون أخذ فى التصاعد.

وعلى خلاف الوضع فى البلدان المتقدمة، حيث تمثل الفئة الواقعة فيما «دون الطبقات» أقلية صغيرة تعيش على هامش المجتمع، كان عدم التمتع بحماية القانون فى بعض البلدان على الدوام هو التيار الرئيسى. فعلى سبيل المثال، فقد وجدنا فى معظم البلدان التى قمنا بمسح لها، أن قيمة العقارات التى لا تتمتع بحماية القانون وحدها تزيد عدة مرات على إجمالى المدخرات والودائع لأجل فى البنوك التجارية، وقيمة الشركات المسجلة فى البورصات المحلية، وجميع الاستثمارات الأجنبية المباشرة، وجميع المشروعات العامة التى تمت خصخصتها والتى يتعين خصخصتها مأخوذة معا. وعند التأمل، نجد أن هذا يجب ألا يدعو للدهشة. إن العقارات تمثل نحو ٥٠ فى المائة من الثروة القومية للبلدان المتقدمة؛ وفى البلدان النامية، يقترب الرقم من ثلاثة أرباع. إن المستوطنات التى لا تتمتع بحماية القانون هى عادة الطريق الوحيد للاستثمار فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة، ومن ثم تمثل جزءا مهما من عملية الإسخار وتكوين رأس المال. وبالإضافة لذلك، فإن مساهمة المدن المتزايدة فى الناتج القومى الإجمالى توضح أن قدرا كبيرا من رأس المال الكامن والدراية التكنولوجية يتم تراكهما فى المناطق الحضرية أساسا.

إن الذين لا يتمتعون بحماية القانون جاءوا ليقبوا

إن انفجار النشاط الذى لا يتمتع بحماية القانون فى العالم الثالث، وعمليات وضع اليد الضخمة فى المناطق الريفية، وانتشار المدن غير القانونية - بوبيلوس جوفينيس فى بيرو، والفافيل فى البرازيل، والرانشو فى فنزويلا، والباريوس مارجينالس فى المكسيك، وأحياء الأكواخ فى المستعمرات الفرنسية السابقة، وكذلك مدن الأكواخ فى المستعمرات البريطانية السابقة - هى أكثر من مجرد تصاعد ضخّم فى أعداد السكان، أو الفقر، أو حتى الخروج على القانون. إنها موجات عارمة من الذى لا يتمتعون بحماية القانون ترتطم بالنواقيس الزجاجةى لامتيازات القانونية، ويمكن أن تكون أهم عامل يجبر السلطات على الترحيب بالثورة الصناعية والتجارية التى تقوم على ذلك.

ومعظم الحكومات فى معظم البلدان ليست فى وضع يمكنها من منافسة القوة الخارجية على القانون. فبالمقاييس المادية الصرفة، تفوقت المشروعات التى لا تتمتع بحماية القانون بالفعل على جهود الحكومات فى توفير الإسكان للمهاجرين والفقراء. فحتى نهاية ثمانينيات القرن العشرين فى بيرو مثلا، تأرجح الاستثمار الحكومى فى إسكان منخفضى الدخل حول ٢ فى المائة من الاستثمار فى الإسكان فى القطاع الذى لا تتمتع بحماية القانون. وبإدراج إسكان الطبقة المتوسطة فى هذا، لاتزيد حصة الحكومة إلا إلى ١٠ فى المائة من إجمالى الاستثمار غير الرسمى. وفى هايتى فى ١٩٩٥، زادت قيمة العقارات التى لا تتمتع بحماية القانون تقريبا على عشرة أمثال كل حيازات حكومة هايتى.

وهذا القطاع الذى لا تتمتع بحماية القانون هو منطقة رمادية لها حدود طويلة مع العالم القانونى، وهو مكان يستطيع الأفراد أن يجدوا فيه ملاذا حين ترجح تكاليف الامتثال للقانون المنافع. إن المهاجرين يصبحون خارجين على القانون ليستطيعوا البقاء: فهم يخرجون عن نطاق القانون لأنه لايسمح لهم بالوجود بداخله. فلكى يعيش سكان المدن الجدد ويتاجروا ويقوموا بالتصنيع والانتقال، وحتى لكى يستهلكوا، يتعين عليهم أن يفعلوا ذلك بصورة غير القانونية.

إن الترتيبات غير القانونية التى يضعونها معا بصورة غير متقنة هى التزامات صريحة بين أعضاء معينين فى المجتمع لتوفير الأمن للمكيثهم وأنشطتهم. وهى تمثل توليفات من القواعد المستعارة بصورة انتقائية من النظام القانونى الرسمى، والارتجال فى أحوال معينة، والأعراف المجلوبة أماكنهم الأصلية أو المستتبطة محليا، ويجمع بينها عقد اجتماعى يسانده المجتمع ككل وتنفعه سلطات اختارها المجتمع. ويتمثل عيب الترتيبات غير القانونية فى أنها ليست متكاملة فى نظام الملكية الرسمى، ونتيجة لذلك فلايمكن تبادلها ولاتطويعها لتلائم معظم المعاملات؛ وليست مرتبطة بالدائرة المالية والاستثمارية، وأعضاؤها غير خاضعين للمساءلة أمام سلطات خارج عقدها الاجتماعى.

وتدير هذه الترتيبات تشكيلة كبيرة من المنظمات، منها رابطات التنمية الحضرية، الجمعيات الزراعية، رابطات صغار التجار، منظمات مشروعات

الأعمال الصغيرة، ومجتمعات تنظيم المشروعات الصغيرة جداً، واتحادات النقل، ونوادي مطالب العاملين بالتعدين، والمنتفعون بالإصلاح الزراعي، وتعاونيات الإسكان الخاص، ومنظمات الاستيطان، والمجالس السكنية، واللجان الطائفية، ولجان المنتفعين بالإسكان الذي بنته الدولة، ومجتمعات السكان الأصليين، ورابطات صغار المزارعين، والمنظمات القروية. كما تدير هذه المنظمات توسعات وامتدادات المباني في الأراضي الصحراوية، وتوسعات وامتدادات المباني في الأراضي الزراعية، والترتيبات الخاصة بالأجزاء التاريخية من المدن، والتقسيمات من الباطن من الإسكان العام، والمستوطنات ذات العقود الخاصة، والمستوطنات ذات العقود العامة، وعمليات التخصيص من خلال الإيجار من الباطن بموافقة المالك، والإسكان الحكومي دون سندات ملكية كاملة، وعقود الحيازة غير القانونية المشهورة أمام سجل العقود وإن لم تسجل، وعقود الاستيطان المسجلة وإن لم تكن مشهورة أمام المسجل، والمستوطنات المعترف بها من قبل «عمليات سلام وطنية»، والمستوطنين الذين نقلوا من أماكنهم، والمستوطنات المسجلة لدى موردى الخدمات الأساسية أو سلطات الضرائب وإن لم تكن مسجلة لدى الأوصياء على الملكية الرسمية.

ونادراً ما يكون قصد العمل الذي لا يتمتع بحماية القانون العداء للمجتمع. إن «الجرائم» التي يرتكبها العاملون الذين لا يتمتعون بحماية القانون تهدف إلى تحقيق أهداف عادية مثل بناء بيت، توفير خدمة، أو إنشاء مشروع أعمال. فهذا النظام للقانون غير القانوني، والذي لا يعد سبباً للفوضى، هو الطريق الوحيد المتاح للمستوطنين لتنظيم حياتهم وأعمالهم. ونتيجة لذلك، فليس هناك شيء يمكن أن يكون أهم من ذلك من الناحية الاجتماعية بالنسبة للطريقة التي يعيش بها الفقراء ويعملون. ورغم أن «قوانينهم» قد تخرج على القانون الرسمي، فإنها عموماً، هي القوانين الوحيدة التي يستريح إليها هؤلاء الناس. ذلك هو العقد الاجتماعي الذي يعيشون به ويعملون.

قد تبدو المستوطنات غير القانونية التي يقطنها المهاجرون مثل أحياء الفقراء، لكنها مختلفة تماماً عن أحياء الفقراء القائمة في قلب المدن في البلدان المتقدمة. فالأخيرة تتكون من مبانٍ كانت محترمة من قبل ثم تهاوت من الإهمال

والفقر. أما فى العالم النامى، فالأرجح أن يتم تحسين المآوى الأساسية للفقراء وتعزيزها وإعادة بنائها وترميمها. وفى حين تفقد بيوت الفقراء فى البلدان المتقدمة قيمتها على مرّ الزمن، تصبح المباني القائمة فى مستوطنات الفقراء فى العالم النامى أكثر قيمة، وتتطور خلال العقود لتصيح ما يماثل مجتمعات الطبقة العاملة فى الغرب.

وقبل كل شيء، فإن المستوطنين الذى لا يتمتعون بحماية القانون، على النقيض من صورتهم كمتمردين على القانون، يشاركون المجتمع المدنى الرغبة فى حياة منتجة يسودها السلم. ومثلما كتب سيمون فاس فى ختام كتابه البالغ عن اقتصاد هاييتى.

إن هؤلاء الناس العاديين غير عاديين فى جانب واحد فحسب. إن دخولهم منخفضة جدا، منخفضة لحد أن خطأ خطيرا واحدا فى الحكم، أو عملا واحدا مشؤوما من أعمال القدر قد يهدد بقاء أسرهم ككيان مشترك، ويهدد أحيانا بقاء أعضائها ككيانات جسدية. وليس الفقر نفسه هو الأمر غير العادى، بل قدرة هؤلاء الناس على البقاء على الرغم منه... وليس هناك أى شيء يفعلونه فى هذه العملية بلا جدوى، وإنما إسهام مثمر فى البقاء والنمو، وللأصناف البسيطة التى يحصلون عليها وظائف محددة بوصفها مدخلات فى عملية الإنتاج^(١٥).

ومع نمو وتنوع الأنشطة الاقتصادية التى ترتبط بها هذه المنظمات التى لا تتمتع بحماية القانون، بدأت أيضا تتولى القيام بدور الحكومة. وأصبحت بدرجات متباينة مسؤولة عن توفير بنية أساسية مثل الطرق، وإمدادات المياه، وشبكات الصرف، والكهرباء، وإنشاء الأسواق، وتوفير خدمات النقل، بل إدارة العدالة والحفاظ على النظام.

وفى مواجهة زحف الذين لا يتمتعون بحماية القانون، تراجعت الحكومات. لكنها تنزع إلى اعتبار كل تنازل أمرا مؤقتا «حتى تمر الأزمة». بيد أن هذه الاستراتيجية هى فى الواقع مجرد طريقة لتأجيل الهزيمة الحتمية. وفى بعض الحالات، وضعت الحكومات استثناءات من أجل بعض المشروعات التى

لاتتمتع بحماية القانون، واعتبرتها كما لو كانت جيوبا قانونية، حيث تستطيع المشروعات التي كانت لاتتمتع بحماية القانون في الأصل أن تعمل بدون ملاحقة. ولكن بدون إدماجها بحيث تحظى بحماية ومنافع النظام القانوني بأسره. وتتفادى هذه الترتيبات المواجهة الصريحة، ويمكن اعتبارها في مجملها نوعا من معاهدة السلام القانوني المؤقت. ففي مصر مثلا، يتحدث الخبراء بالفعل عن «إسكان شبه رسمي»:

ومثل هذا الإسكان لايزيد فقط رصيد الإسكان في البلاد ويوفر إسكانا رخيصا نسبيا، ولكنه يوفر أيضا لنسبة كبيرة من سكان الحضر أصلا يمكنهم الاستثمار فيه. وفي هذا الإسكان درجة من الخروج على القانون. إن هياكل الإسكان لاتتطور من خلال الإجراءات الراسخة والمنظمة، ولايستخدم من يقومون بتشبيدها مؤسسات الإسكان المعترف بها. ويتم تشبيدها عادة على مساحات زراعية، يتم تقسيمها من الباطن بصورة غير قانونية إلى قطع صغيرة بواسطة القائمين بالتنمية العمرانية من القطاع الخاص...

وتشارك الحكومة عادة في عملية شراء الأرض في الإسكان شبه غير الرسمي. ففي مناطق الإسكان شبه الرسمي، حيث تم الاضطلاع بالبحث، كانت الأجهزة الحكومية هي التي استهلت عملية تطويرها، وبذا شجعت القائمين بالتنمية العمرانية من القطاع الخاص على تقسيم الأراضي من الباطن بصورة لاتتمتع بحماية القانون إلى قطع صغيرة في مرحلة لاحقة. لقد تغير استخدام الأرض من الاستخدام الزراعي إلى الاستخدام السكني من خلال دور مستتر للحكومة. ويشتري السكان في مثل هذه المناطق الأرض من خلال عملية غير رسمية لتقسيم الأرض من الباطن والتسويق غير الرسمي لها. وتعد مناطق حجر التواتية، وعزبة أبو سليمان، وعزبة نادى الصيد أفضل الأمثلة للمناطق من هذا النوع في مدينة الاسكندرية^(١٦).

وحتى في المناطق غير المرجحة لأقصى حد، هناك أدلة على أن الحكومات تسلم بأن مؤسساتها القانونية لم تتكيف مع الأحوال الاقتصادية الراهنة. ففي ١٩٩٢، أوردت «وكالة رويترز للأنباء» أن الزعيم الليبي معمر القذافي أحرق سندات ملكية الأراضي في ليبيا. وورد أن العقيد القذافي أخبر الحاضرين في

اجتماع فى وزارة العدل أن «جميع التسجيلات والوثائق الموجودة فى السجل القديم، التى تبين أن الأرض تخص هذه القبيلة أو تلك، جرى إحراقها». وأضاف: «لقد أحرقت لأنها قامت على الاستغلال والتزوير والنهب»^(١٧). وفى بعض البلدان، فإن القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون حاليا هو أساس النظام الاجتماعى. فأهل توبا فى السنغال، والذين يمكن مشاهدتهم وهم يطوفون بسلعهم على أرصفة نيويورك ومدن الولايات المتحدة الكبرى الأخرى، هم عادة جزء من شيعة إسلامية إفريقية محنكة تعيد ملايين الدولارات من الأرباح إلى المدينة التى جاءت منها. وقد وصفت «النيوزويك» توبا باعتبارها:

دولة داخل الدولة، وهى معفاة إلى حد كبير من قوانين السنغال... [و] أسرع مدينة نموا فى البلد. فقد تم نقل قرى بأكملها هنا، وأقيمت أكواخ ضئيلة الحجم بين فيلات الأغنياء المسورة... إن المدينة المعفاة من الرسوم، هى صُرة إمبراطوريتى النقل والعقارات، والقطاع غير الرسمى المزدهر، وتجارة الفول السودانى، والمصدر الرئيسى للنقد الأجنبى فى السنغال^(١٨).

وفى أنحاء أخرى من العالم، فإن مخاوف العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون من فقد ممتلكاتهم، قد تشعل صراعا صريحا. والمثال على هذا إندونيسيا، التى كثيرا ما احتلت مشاكلها عناوين الأخبار فى السنوات الأخيرة وفى فترة ترجع لست سنوات خلت، كتبت «الايكونومست» محذرة:

يشعر الناس بالانفعال إزاء فقد ممتلكاتهم لأن الحضرة والتصنيع يخلقان طلبا على الأرض، فى بلد تعد ملكية الأرض فيه شأنا يحوطه الضباب لأقصى حد. إن ٧٪ فقط من الأراضى فى الأرخبيل الإندونيسى لها مالك واضح. وكان من المحتم، أن تنشأ تجارة كبيرة فى الشهادات الحقيقية والزائفة على حد سواء. ويجد الناس الذين يحاولون شراء قطع من الأرض أحيانا عددا كبيرا من الملاك الظاهرين. وتحذر البنوك من قبول الأرض كضمان للقروض^(١٩).

وفى أماكن أخرى، يرتبط العمل خارج القانون باليؤس بصورة وثيقة: «ففى بومباى... يعيش ثلثا سكان المدينة البالغ عددهم ١٠ ملايين نسمة إما فى أكواخ مكونة من غرفة واحدة، أو على الأرصفة»^(٢٠). ومع ذلك، فإن من يعملون خارج إطار القانون فى بلدان أخرى يصعدون لأعلى السلم الاقتصادى. فوفق «منظمة التقييمات التقنية» فى بيرو، فإن قيمة الأراضى فى القطاع الرسمى فى ليما تبلغ فى المتوسط نحو ٥٠ دولارا للمتر المربع، فى حين أن قيمة المتر المربع فى جامارا، حيث يقع قدر كبير من قطاع الصناعة التحويلية غير الرسمية فى بيرو، قد ترتفع إلى ٣٠٠٠ دولار. وفى أفياسيون، وهى مركز غير قانونى آخر فى ليما، يساوى المتر المربع من الأرض ١٠٠٠ دولار؛ ويساوى ٤٠٠ دولار فى تشيمو فى قطاع زارات. وعلى النقيض من ذلك، تتراوح قيمة المتر المربع من الممتلكات التى لها سندات ملكية قانونية بين ٥٠٠ دولار و ١٠٠٠ دولار فى ميرافلورس وسان إيزيدرو، وهما من أكثر الأماكن تميزا فى ليما^(٢١).

إنها قصة قديمة

فور أن تدرك الحكومات أن الفقراء سيطروا بالفعل على مساحات شاسعة من العقارات والوحدات الاقتصادية الإنتاجية، ليصبح من الواضح أن كثيرا من المشاكل التى تواجهها ثارت نتيجة لأن القانون المكتوب لا يتفق مع الطريقة التى تعمل بها بلادها فى واقع الأمر. ومما يتفق مع المنطق، أنه إذا كانت القوانين المكتوبة تتصادم مع القوانين التى يحيا بها المواطنون، فلا ريب أنه سيتربط على ذلك، السخط والفساد والفقر والعنف.

والسؤال الوحيد الذى يظل مطروحا هو ما مدى مسارعة الحكومات بالشروع فى إضفاء طابع مشروع على تلك الحيازات التى لا تتمتع بحماية القانون، بإدماجها فى إطار قانونى منظم ومتناسك. والبديل هو استمرار الفوضى القانونية التى يظل فيها نظام حقوق الملكية القائم يتنافس باستمرار مع نظام غير قانونى. وإذا أرادت هذه البلدان فى أى وقت أن تنجز نظاما

قانونيا موحدا، فيتعين عليها أن تكيف القانون الرسمى مع واقع الاندفاع غير القانونية الحاشدة صوب حقوق الملكية الواسعة.

والخبر الطيب هو أن دعاة الإصلاح القانونى لن يخاطروا بالإنزلاق إلى الهاوية التى لا قرار لها. فالتحدى الذى يتصدون له، وإن كان ضخما، جابهته من قبل بلدان كثيرة. إذ إن البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة تواجه نفس التحديات التى تصدت لها البلدان المتقدمة فيما بين القرن الثامن عشر والحرب العالمية الثانية (وإن كان بأبعاد أكثر إثارة). ذلك أن العمل الذى لا يتمتع بحماية القانون على نطاق واسع ليس ظاهرة جديدة. فذلك هو ما يحدث دوما عندما تحقق الحكومات فى جعل القانون متفقا مع الطريقة التى يعيش بها الناس ويعملون.

وعندما بدأت الثورة الصناعية فى أوروبا، كانت الحكومات مبتلاة أيضا بالهجرة غير الخاضعة للسيطرة، ونمو القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون، والفقر الحضرى، والقلقل الاجتماعية. وعالجت هى أيضا هذه المشكلات بالتدرج.

النقطة العمياء الثانية: الحياة خارج نافوس الأمس الزجاجى

الانتقال إلى المدن

يربط معظم الباحثين بين قيام الثورة الصناعية والتجارية الكبرى فى أوروبا والهجرات الحاشدة لمدينتها، ونمو السكان نتيجة انخفاض الإصابة بالطاعون، وانخفاض الدخول فى الريف مقارنة بمثيلتها فى الحضر^(٢٢). وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر، بدأ العمال فى المدن يحصلون على أجور أعلى منها فى المناطق الريفية للقيام بمشروعات التشييد التى أمرت بها الطبقات الحاكمة. وكان من المحتم أن يهاجر إلى المدن الفلاحون الأكثر طموحا، تستحثهم على ذلك آفاق الحصول على أجور أعلى.

وقد بدأت موجة الهجرة الأولى فى إنجلترا فى أواخر القرن السادس عشر. وإذا شعرت السلطات بالقلق إزاء الأعداد المتنامية من المهاجرين فى

المدن والقلال الناجمة عن ذلك، فقد سعت إلى الحفاظ على السلام باتخاذ تدابير بديلة مؤقتة متباينة مثل توزيع الغذاء على الفقراء. كذلك كانت هناك تدابير مستمرة لإقناع الناس بالعودة إلى الريف. وتم سن سلسلة من القوانين فى ١٦٦٢ و ١٦٨٥ و ١٦٩٢، تطالب بعودة المواطنين إلى مسقط رأسهم، أو إلى سكنهم الثابت السابق، كشرط للحصول على المعونة. وكان الهدف هو منع هجرة مزيد من الأسر والعمال إلى المدن بحثاً عن فرص العمل وتم إصدار قانون فى ١٦٩٧ لا يسمح للمهاجرين بالانتقال فى إنجلترا إلا إذا حصلوا على شهادة توطن من السلطات القائمة فى أماكن سكنهم الجديدة. ورغم أن هذه القوانين شبط الهجرة بين الأسر والعجزة، فإن الرجال الشبان، الأصحاء الأجسام، والطموحين غير المتزوجين، استنبطوا طرقاً للعودة للمدن. وكانوا أيضاً هم الفئة التى شكلت منظّمى المشروعات الناجحين - أو الثوريين الذين يتسمون بالعنف.

ولم يجد معظم المهاجرين الوظائف التى كانوا يأملون فيها. فقد حدّت التنظيمات التقييدية، خاصة صعوبات الحصول على ترخيص بتوسيع الأنشطة أو تنويعها، من قدرة مشروعات الأعمال الرسمية على النمو وتوفير الوظائف للعمال الجدد. ووجد البعض عملاً مؤقتاً أو انضموا للخدمة فى المنازل^(٣٢). واضطر كثيرون إلى التوطن مؤقتاً فى ضواحي المدن الأوروبية، وفى «أطراف» المستوطنات غير القانونية القائمة حينذاك، فى انتظار قبولهم فى طائفة حرفية أو تجارية أو فى وظيفة فى مشروع أعمال رسمى.

وكانت القلاقل الاجتماعية قدراً محتوماً. فبمجرد أن بدأت الهجرة إلى المدن، حتى تخلّفت المؤسسات السياسية القائمة وراء الواقع المتغير سريعاً. وقد حالت صرامة القانون المرنكتالى والأعراف المرنكتالية دون استغلال المهاجرين لكامل إمكاناتهم الاقتصادية. وتفاقم الصراع الاجتماعى من جراء اكتظاظ الأعداد المتزايدة من سكان الحضر، والمرض، والصعوبات المحتومة التى يواجهها أهل الريف فى التكيف مع الحياة فى المدن. ويلاحظ د.س. كولمان أنه منذ فترة مبكرة ترجع إلى القرن السادس عشر، ثارت الشكاوى فى

البرلمان الإنجليزى من «حشود الشحاذين»، والزيادة الكبيرة فى أعداد الأوغاد والمشردين واللصوص» فى المدن^(٢٤).

وبدلاً من التكيف مع هذا الواقع الحضرى الجديد، سنت الحكومات مزيداً من القوانين واللوائح لمحاولة إخماده. وجلب المزيد من اللوائح مزيداً من الانتهاكات - وسرعان ما تم إصدار قوانين جديدة تقمع من انتهكوا القوانين القديمة. وتكاثرت القضايا، وانتشر التهريب والتزوير. ولجأت الحكومات للقمع للعنيف.

ظهور الأوضاع التى لا تتمتع بحماية القانون

بدأ المهاجرون الأوروبيون الذين لم يجدوا عملاً قانونياً تدريجياً فى فتح ورش لا تتمتع بحماية القانون فى بيوتهم. وكان جزء كبير من هذا العمل «يتكون من التصنيع والتجهيز المباشر، بقليل من المعدات الرأسمالية فيما وراء العدد اليدوية البسيطة»^(٢٥). وكان قاطنو المدن منذ زمن طويل يحتقرون العمل الذى يتم خارج الطوائف الحرفية والنظام الصناعى الرسمى.

وبالطبع، لم يكن فى مقدور المهاجرين الاختيار؛ وكان العمل الذى لا تتمتع بحماية القانون هو مصدرهم الوحيد للدخل، وبدأ القطاع غير القانونى من الاقتصاد ينتشر بسرعة. ويؤرد «إلى هكشر» تعليقاً أقتبسه من أوليفر جولد سميث فى ١٧٦٢، جاء فيه: «نادرًا ما كان هناك رجل إنجليزى لا ينتهك فى كل يوم من أيام حياته تقريباً القانون المعلن ويفلت من العقاب... ومن محاولات إنفاذه التى توقفها الرشوة والإرتزاق»^(٢٦). كما ذكر هكشر مرسومين فرنسيين (صدرا فى ١٦٨٧ و ١٦٩٣) يسلمان بأن من أسباب عدم الالتزام بمواصفات الإنتاج أن العمال، والذين كانوا حينذاك أكثر أمية حتى من عمال البلدان النامية حالياً، لم يستطيعوا الوفاء حتى بالشرط القانونى البسيط الذى يطالب صناع النسيج بوضع أسمائهم على الجزء الأمامى من القماش الذى ينتجون. ومع ذلك، فقد كان هؤلاء العمال المهاجرين أكفاء. وقد لاحظ آدم سميث من قبل، «لو كنت تريد التسامح مع العمل الذى تقوم به، فلا بد أن يتم فى الضواحي حيث ليس لدى العمال، الذين لا تتوافر لهم أى ميزة مقصورة عليهم،

شيء يعتمدون عليه سوى صفتهم، ثم تهرب ما ينتجونه إلى المدينة بقدر ما تستطيع»^(٢٧).

ولم تكن السلطات ورجال الأعمال القانونيون ميهورين بالمنافسة مثل آدم سميث. ففي إنجلترا، خلال العقود التي تلت استعادة الملكية في ١٦٦٠، بدأ بعض دعاة التمسك بالتقاليد يشكون من نمو أعداد الباعة الجائلين وباعة الشوارع، والاضطرابات التي تحدث أمام المحال الراسخة، وظهور أصحاب الحوانيت الجدد في كثير من المدن الصغيرة. وحاول التجار الرسميون دون جدوى التخلص من الوافدين الجدد. وفي باريس، استمرت المعركة القانونية بين الترتزية والمتعاملين في الملابس المستعملة أكثر من ثلاثمائة سنة. ولم تتوقف إلا بنشوب الثورة الفرنسية.

وتشير ديباجات القوانين والأوامر الإدارية الصادرة في هذه الحقبة بصورة متواترة إلى عدم الامتثال للقوانين واللوائح السابقة. وحسبما قال هكشر، تم حظر قماش الشيت المطبوع المستورد من الهند في سنة ١٧٠٠؛ بغية حماية صناعة الصوف الإنجليزية. وأنتج أصحاب المشروعات الصناعية الإنجليز قماش الشيت الخاص بهم، واستطاعوا دوما إيجاد الاستثناءات والشغرات في القانون. وتمثل أحد الطرق في الالتفاف على حظر المنسوجات المطبوعة المعتمدة على القطن، في استخدام نسيج الفستيان القطني - وهو الشيت الإنجليزي المصنوع بغلاف من الكتان. كما قمعت أسبانيا وعاقبت منظمي المشروعات الذين لا يتمتعون بحماية القانون. وفي ١٥٤٩، أصدر الإمبراطور شارل الأول خمسة وعشرين أمرا قانونيا تستهدف مشروعات الأعمال التي لا تتمتع بحماية القانون. ودعا أحد القوانين السلطات إلى إتلاف عينات القماش، بقطع حاشيته التي تحوى علامة الصانع؛ حتى يعرف المشتري أنه يبتاع بضاعة غير قانونية. وكان القصد من هذا إذلال الموزعين.

وكان قمع الحكومة لمن يعملون خارج إطار القانون متكررا وقاسيا، وكان مميتا في فرنسا. ففي منتصف القرن الثامن عشر، كانت القوانين التي تحظر على الجمهور الفرنسي صناعة، استيراد، أو بيع الاقطان المطبوعة، تتضمن عقوبات تتراوح بين الاستبعاد والسجن والموت. ولم يرتدع من يعملون خارج

نطاق القانون. ويقدر هكشر أنه خلال فترة عشر سنوات واحدة فى القرن الثامن عشر، أعدم الفرنسيون أكثر من ١٦ ألف مهرب وصانع سرى، بسبب تصنيع الشيت المطبوع أو استيراده بصورة غير قانونية، بل وحكم على عدد أكبر بالعمل عبيدا فى السفن أو عوقبوا بطريقة أخرى. وفى مدينة فالنسيا وحدها، تم شنق ٧٧ من منظمى المشروعات الذين لا يتمتعون بحماية القانون، وتم تكسير عظام ٥٨ على العجلات، وحكم على ٦٣١ بالعمل عبيدا فى السفن. ووجدت السلطات أن التصدى لمن يعملون خارج إطار القانون وحدهم أمر يوافق هواها.

وحسبما يقول روبرت إيكولوند وروبرت توليسون، فإن السبب فى أن السلطات اضطهدت من يعملون خارج القانون يمثل هذه القسوة لم يكن يرجع فقط إلى أنها كانت تريد حماية الصناعات القائمة؛ بل يرجع أيضا إلى أن الأقمشة المطبوعة بعدة ألوان جعلت تحصيل الضرائب أكثر صعوبة^(٢٨). وعلى الرغم من أنه كان من السهل تحديد منتجى الأقمشة المطبوعة بلون واحد، وبذا يتم التحقق ما إذا كانوا يدفعون كل ضرائبهم أم لا، فإن الشيت كان يمكن إنتاجه بتشكيلة من الألوان، بفضل النظام الجديد للطباعة، مما يجعل تحديد مصدره أكثر صعوبة.

واعتمدت الدولة بصورة كبيرة على الطوائف الحرفية - التى كانت وظيفتها الأساسية هى السيطرة على فرص التوصل إلى إقامة مشروعات قانونية - للمساعدة فى تحديد منتهكى القانون. وعن طريق جعل القوانين أكثر تشددا بدلا من تكييفها لإدراج التصنيع الذى لا يتمتع بحماية القانون، أجبرت السلطات منظمى المشروعات ببساطة على الرحيل للضواحي التى لا تتمتع بحماية القانون. وعندما حدد النظام الأساسى الإنجليزى للصناعات البارعين والصبيان المتمرنين، الصادر فى ١٥٦٣، معدلات الأجور بالنسبة للعمال وطالب بتصحيحها سنويا حسب أسعار سلع ضرورية أساسية محددة، نقل كثيرون من العاملين الأول الذين لا يتمتعون بحماية القانون مشروعاتهم للمدن النائية، أو أقاموا ضواحي جديدة حيث كان الإشراف الحكومى أقل صرامة وكانت اللوائح أكثر ارتخاء أو غير مطبقة ببساطة. كما سمح الإنسحاب للضواحي للعاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون بالهروب من ملاحقة الطوائف الحرفية الساهرة، التى لم تكن تشمل ولايتها إلا حدود المدينة.

وفى نهاية المطاف، زادت المنافسة من جانب المشروعات التى لا تتمتع بحماية القانون إلى حد لم يجد معه ملاك مشروعات الأعمال الرسمية بديلا سوى التعاقد من الباطن على جزء من إنتاجهم مع الورش القائمة فى الضواحي - مما ضيق الوعاء الضريبي وتسبب فى رفع الضرائب. وبدأت فى العمل دائرة مفرغة: إذ فاقت الضرائب الأعلى للبطالة والقلق، مما عجل بهجرة أكبر إلى الضواحي ومزيد من التعاقد من الباطن مع الصناع الذين لا يتمتعون بحماية القانون. وازدهرت أحوال بعض العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون، لحد أنهم اكتسبوا الحق فى دخول مجال الأعمال الرسمية - وإن لم يكن بدون دفع حصتهم من الرشاوى واستخدام الضغط السياسى.

وحاربت الطوائف الحرفية هذا وقاومته. ففى ظل حكم أسرة تيودور، حظرت قوانين كثيرة فى إنجلترا قيام الورش والخدمات غير القانونية فى الضواحي. لكن العدد المحصن للعاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون ومهارتهم فى تفتادى اكتشافهم، أجهضا هذه الجهود. وكان من أبرز جوانب الفشل ما حدث للطائفة الحرفية لصناع القبعات وأغطية الأسرة فى نورويتش، التى عجزت بعد حملة متطاولة صاحبها إعلان صاحب لمكافحة القائمين بالتشغيل الذين لا يتمتعون بحماية القانون عن إنفاذ حقها القانونى الحصرى فى صناعة القبعات وأغطية الأسرة^(٢٩). لقد جعلت المنافسة الطوائف الحرفية تترنح. ويعزو كولمان انهيارها إلى «زيادة عرض العمل، وتغير أنماط الطلب، وتوسع التجارة: (و) نمو الصناعات الجديدة، والامتداد الكبير للصناعة الريفية المنظمة على أساس نظام الإقراض»^(٣٠).

انهيار النظام القديم

اضطرت الحكومات الأوروبية تدريجيا إلى الانسحاب فى مواجهة نمو العمل الذى لا يتمتع بحماية القانون - مثلما تفعل حاليا الحكومات فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة. فبعد أن عجز الملك جوستاف أدولفوس عاهل السويد عن وقف إنشاء المستوطنات التى لا تتمتع بحماية القانون، كان عليه

أن يزور كل مستوطنة ويخلع عليها بركاته للحفاظ على مظهر السيطرة الحكومية. وفى إنجلترا، اضطرت الدولة إلى الاعتراف بأن الصناعات الجديدة أخذت تتطور فى المحل الأول فى الأماكن التى لا توجد فيها قيود قانونية أو سيطرة للطوائف الحرفية؛ والواقع أن العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون كانوا قد أقاموا الضواحي والمدن الخاصة بهم خصيصا لتفادى سيطرة الدولة والطوائف الحرفية. وبالإضافة لذلك، كانت الصناعات العاملة التى لا تتمتع بحماية القانون أكثر كفاءة ونجاحا. وكان من المعترف به على نطاق واسع أن صناعة المنسوجات القطنية قد ازدهرت لأنها ليست منظمة بصورة صارمة مثل صناعة الصوف. وسرعان ما بدأ الناس يلاحظون أن المستوطنات التى لا تتمتع بحماية القانون تنتج سلعا وخدمات أفضل من منافسيها من المستوطنات التى تتمتع بحماية القانون التى تعيش فى النواقيس الزجاجية. وفى ١٥٨٨، وصف تقرير للورد سيسل، وزير الملكة اليزابيث الأولى، مواطنى هاليفاكس، وهى من المستوطنات غير القانونية الجديدة بمايلى:

إنهم يبرزون الآخرين فى السياسة والصناعة، فى استخدام مهنتهم وأراضيهم. ورغم الطريقة الفظة والمتكبرة لموطنهم البرى، تجاوزوا الباقين فى الحكمة والثروة. كانوا يتخلون عن أنماطهم السابقة إذا استطاعوا أن يسمعو عن الجديد، الأكثر ملاءمة، كانوا يحتفون بالحديث بدلا من الاحتشاد حول الرسميات القديمة... (كان لديهم) حماس طبيعى للاختراعات الجديدة المرتبطة بصناعة لا تدر عائدا^(٢١).

كما بدأ العاملون الذين لا يتمتعون بحماية القانون البناء داخل المدن. ففى ألمانيا، حيث كان من الضروري اجتياز اختبار للحصول على الموافقة القانونية من أجل البناء، حسبما قال أحد المؤرخين، «أمكن إيجاد مناطق بأسرها تم فيها بناء وفرة من المنازل، رغم أنه لم يكن هناك من هو مؤهل قانونا للبناء فيها»^(٢٢).

وبدأت أعداد العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون ومثابرتهم ونجاحهم يقوض أسس النظام المركنتالى نفسها. وأيما كان النجاح الذى حققوه، فقد ظفروا به رغما عن الدولة، وكان قمينا بهم أن يعتبروا السلطات عدوا لهم. وفى

تلك البلدان التي جرّمت فيها الدولة وقمعت منظّمي المشروعات التي لا تتمتع بحماية القانون، بدلا من تكييف النظام لاستيعاب مشروعاتهم، لم يتأخر التقدم الاقتصادي فحسب، بل زادت القلاقل، وتحولت إلى العنف. وكانت الثورتان الفرنسية والروسية هما التجسّدين الأكثر شهرة لهذا.

بيد أن تلك البلدان التي تكيفت بسرعة، حققت انتقالا سلميا نسبيا إلى اقتصاد السوق. فبمجرد أن أدركت الدولة أن وجود قطاع عامل لا يتمتع بحماية القانون، هو أمر أفضل من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بالنسبة لعدد متنام من المهاجرين العاطلين، بدأت السلطات في سحب تأييدها للطوائف الحرفية. وكانت نتيجة ذلك في إنجلترا، هي التناقص المستمر في عدد الأشخاص المتقدمين بطلبات للانضمام إلى هذه الطوائف، مما هيأ المسرح للدولة لكي تغير بصورة جذرية الطريقة التي تدار بها الأعمال.

كما أنهارت سلطة الدولة. فأى نظام قانوني جامد يمثل جمود النظام الذي سبق الثورة الصناعية، كان قميئا بأن يضر بالفساد. وقد نصّ أمر صدر في إنجلترا في ١٦٩٢ على أن يزور مفتشو الضرائب في كثير من المناطق الورش والمصانع لمجرد تحصيل مدفوعات الضرائب المتفق عليها، دون أن يفحصوا مطلقا السلع ليتبينوا كم يستحق على المنتجين حقا للضرائب. وواجه معظم مشرفو الإنتاج، سواء كانوا ينتمون للطوائف الحرفية أو كانوا معينين من قبل الدولة، باستمرار الاتهام بالفساد والإهمال في أداء واجباتهم، وهو وضع كان يعزى إلى نقص الاحترام المدني للقانون.

بل لقد اشتهر أن أعضاء البرلمان، الذين كان لهم بحلول نهاية القرن السابع عشر سلطة الترخيص بإنشاء مشروعات الأعمال، يحصلون على رشاوى مقابل أداء خدمات محددة. وكانت السلطات المحلية أسوأ حالا. ففي ١٦٠١ حدد رئيس مجلس العموم قاضي الصلح باعتباره «مخلوقا حيّا يعفى من تطبيق دسنة من التشريعات العقابية مقابل نصف دسنة من الدجاج». وسعى الموظفون العموميون لإلقاء اللوم في الفشل التشريعي لا على القوانين السيئة، وإنما على الإنفاذ غير الكافي. وقد جاء في أحد الكتيبات الصادرة في ١٥٧٧ ما يلي: «أخلص إلى أنه لا يمكن إصدار قوانين أفضل في هذه

النقاط، وكل المطلوب هو التنفيذ». ويحاج جوزيف ريد بأن النظام القديم انهار بسبب الفساد المتفشى الذى غزا كل المؤسسات، وقسم السكان إلى من يستطيعون خداع النظام والذين لا يستطيعون ذلك. كما لاحظ أن النظام القانونى الذى شجع بعض الناس على انتهاك القانون وجعل آخرين يعانون منه، لابد وأن يفقد منزلته بين كلتا الدائرتين^(٣٣). ولم يكن لدى قضاة الصلح فى الضواحي حوافز كبيرة لإنفاذ القانون الذى تم وضعه فى المدن والذى لايقبله سكان الضواحي. وبنهاية القرن الثامن عشر، ضعف الجهاز القانونى بأسره، وأصبح فاسدا كلية فى بعض البلدان.

وفى الوقت الذى سيطرت فيه الحكومة على كل شىء، وضع الناس كل آمالهم الاقتصادية فى الدولة. وخلق هذا نمطا نموذجيا لما قبل الرأسمالية: فعندما ارتفعت الأجور أسرع من ارتفاع أسعار الأغذية، دعا التجار إلى وضع حدّ أعلى للأجور؛ وعندما ارتفعت أسعار الأغذية أسرع من ارتفاع الأجور طالب العمال بحدّ أدنى للأجور وحدّ أعلى لأسعار المواد الغذائية. وتم تثبيت الأسعار والدخول والأجور بتأثير الضغط السياسى والعمل السياسى، وهو وضع ثبطّ همة الإنتاج الصناعى والزراعى واكتراء العمال. ومن ثم، لم يستطع لا الحد الأدنى ولا الحد الأعلى للأسعار، أن يحل مشاكل الندرة ونقص الأغذية والبطالة. وقد كتب تشارلس ويلسون يقول: «كان ذلك العصر هو عصر العنف، عندما كان السعى لتحقيق الغايات الاقتصادية يتطلب باستمرار مساندة القوة»^(٣٤). كان الوقت قد حان لمعركة أيديولوجية ومعركة الحزب، فى البرلمانات وفى الشوارع.

ومن فترة مبكرة ترجع إلى ١٦٨٠، ظهر نوع من الإيمان بالقضاء والقدر فى وجه الاستحالة البادية لتحقيق تقدم اقتصادى كبير. «كان عموم فقراء الصناع يعتقدون أنهم لن يساوا مطلقا عشرة جنيهات... إذا أصبحوا كذلك فإنهم يستطيعون تزويد أنفسهم بما يكفى للحفاظ على طريقتهم فى الحياة بالعمل ثلاثة أيام فقط فى الأسبوع، وأنهم لن يعملوا أبدا أربعة أيام»^(٣٥).

وفى خضم مثل هذه الأزمة الاقتصادية والقلق الاجتماعى، اختار أقوى الناس وأكثرهم ثقة بالنفس الهجرة أو الانضمام إلى الحركات الثورية. ففيما

بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، هاجر مئات الآلاف من الإيطاليين والأسبان والفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين إلى بلاد أخرى سعياً وراء مستقبل أفضل. وفي فرنسا، عجل اضطهاد البروتستانت والعاملين خارج إطار القانون في قطاع النسيج برحيل كثيرين من منظمي المشروعات والعمال المهرة، أساساً إلى إنجلترا وهولندا، حيث استطاعوا الإزدهار هم ومضيفوهم.

أخيراً - بعد ثلاثمائة سنة

عندما عرقلت التنظيمات ذات الهياكل السيئة نشاط مشروعات الأعمال الرسمية، وعندما تحدى من لا يتمتعون بحماية القانون صراحة القانون وأغربوا عن سخطهم على دفعهم إلى الهامش، كان المسرح قد أعد لكى يتكيف السياسيون مع الحقائق القائمة على أرض الواقع. كان القانون قد تحجر تقريباً بنفس المعدل الذى أحاطت به مستوطنات المهاجرين بالمدن. وعندما غزا الباعة الجائلون والشحاذون واللصوص الشوارع، وعندما تكدست السلع المصنوعة بصورة لا تتمتع بحماية القانون أو المهرة فى الأسواق، أصبح فساد المسؤولين متفشياً، وأشاع العنف الفوضى فى المجتمع المدنى.

وبدأ القانون يتكيف مع احتياجات الناس العاديين، بما فى ذلك آمالهم بشأن حقوق الملكية فى معظم بلدان غرب أوروبا خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وبحلول ذلك الوقت، توصل الأوروبيون إلى أنه من المستحيل التحكم فى الثورة الصناعية ووجود حشد من الأعمال التى لا تتمتع بحماية القانون من خلال تصحيحات ثانوية ومخصصة لحالات محددة. وأدرك السياسيون فى نهاية المطاف أن المشكلة ليست فى الناس بل فى القانون، الذى كان يثبط همتهم ويمنعهم من أن يصبحوا أكثر إنتاجية.

وعلى الرغم من أن صورة المجتمع قبل الرأسمالى وظروف انهياره، متمثلتين تماماً فى معظم البلدان الأوروبية، فإن المحصلة لم تكن متماثلة دائماً. فقد ازدهرت البلدان التى قامت بجهود قانونية لإدماج المشروعات التى لا تتمتع بحماية القانون على نحو أسرع من البلدان التى قاومت التغيير.

واستأصل السياسيون الأوروبيون التناقضات فى نظمهم الاقتصادية والقانونية، وسمحوا لبلادهم بالوصول بالثورة الصناعية إلى نرى جديدة، وذلك بتيسير الحصول على الملكية الرسمية، وتقليل العقوبات التى خلقتها اللوائح البالية، والسماح للترتيبات المحلية القائمة بأن تؤثر فى صنع القانون. إن ماضى أوروبا يشبه بقوة حاضر البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة. وليست المشكلة الأساسية التى تواجهها الأخيرة هى أن الناس يغزون المدن ويتخمونها، وأن الخدمات العامة غير كافية، وأن القمامة تتراكم فى أكوام هائلة، وأن الأطفال فى أسمال بالية يشحذون فى الشوارع، أو حتى أن منافع برامج الإصلاح الاقتصادى الكلى لاتصل الأغلبية. فكثير من هذه الصعوبات شهرته أوروبا (وكذلك الولايات المتحدة) وتم التغلب عليها فى النهاية. إن المشكلة الحقيقية هى أننا مازلنا لم نعترف بأن كل هذه الصعوبات تشكّل تغييرا هائلا فى الآمال: فمع تدفق الفقراء على المدن وإبرامهم عقودا اجتماعية غير قانونية، يفرضون إعادة توزيع كبيرة للقوة. وبمجرد أن تقرر حكومات البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة بهذا، تستطيع أن تشرع فى السيطرة على الموجة بدلا من أن تبتلعها تلك الموجة.

الفصل الخامس

الدروس الغائبة عن التاريخ الأمريكي

إن هذه البلاد مباركة لأنها استطاعت التغلب على طاغية واحد فحسب: هو الوضع
القائم.

— ميلتون وروز فريدمان

مع ازدياد اهتمامى بدور نظم الملكية الرسمية فى التنمية الاقتصادية، قمت
برحلات عديدة إلى البلدان المتقدمة: للتوصل إلى المدى الذى يذهب إليه خبراءها
فى حقوق الملكية فى إدماج الأصول غير القانونية للبلد فى نظام موحد للملكية
القانونية. وبعد ذلك بثلاثة عشر عاما، وبعد قطع آلاف الأميال، ومزيد من الشعر
الأبيض، كنت قد زرت تقريبا كل التنظيمات الخاصة بالملكية فى العالم المتقدم -
من أصدقائى فى «سجل جلاله الملكة للأراضى» و«هيئة الأراضى» فى ألاسكا،
إلى هيئة «توكى بو» اليابانية. ولم يكن لدى أحد جواب. فقد اعترف كل الخبراء
الذين سألته، وكل المهنيين المرتبطين بحشد من المؤسسات والهيئات المرتبطة
بالملكية التى زرتها، بأنهم لم يفكروا فى السؤال مطلقا.

ولدى الأشخاص الذين يديرون نظم الملكية فى البلدان المتقدمة اهتمامات
وشواغل مختلفة. وهم مشغولون أساسا بالأمور المتعلقة بحقوق الملكية. بيد أن
شاغلى الأول لم يكن حق الملكية فى حد ذاته، وإنما «ما وراء الحق» - فرص
الحصول على حق الملكية أو الحق فى حق الملكية. ورغم أنه كان لدينا
موضوعات كثيرة تحظى باهتمام مشترك، مثل كيفية إجراء عملية إعادة

هندسة منظمة للإمساك بالسجلات لتحقيق تكامل المعلومات التي يتم جمعها ميدانيا في قاعدة بيانات موحدة، أو كيفية تطوير إجراءات وضع الحدود على الخرائط الأساسية في شكل رقمي، فإن خبراء الملكية لم يستطيعوا أن يخبروني بالطريقة التي يمكن بها دمج الأشخاص الذين يحوزون أصولهم بموجب ترتيبات لاتتمتع بحماية القانون في [نظام الملكية القانونية. كيف تمنح الناس الحق في حق الملكية القانونية]؟

وكان من الواضح من القدر القليل الذي قرأته من تاريخ الغرب، أن كل البلدان الغربية حققت في نقطة ما من ماضيها الانتقال من التدابير غير الرسمية المبعثرة إلى نظام قانوني متكامل للملكية. ومن ثم، فلماذا لا أمضى في ذلك - في تاريخ الغرب لأرى كيف تطورت نظم الملكية لديه؟ ووافق من استضافوني بحماس، وأرشدني المعجبون بالتاريخ في «سجل جلالة الملكة للأراضي» و«الرابطة الألمانية للمساحين المعتمدين» إلى كتبهم المفضلة.

وقادتنى قراءاتي لآلاف الصفحات فيما بعد، إلى نتيجة أساسية مؤداها أن الانتقال [إلى نظم الملكية القانونية المتكاملة] لايرتبط بالتكنولوجيا (رغم أن التكنولوجيا تلعب دورا داعما مهما للغاية، كما سنرى في الفصل السادس). فقد ارتبط التغيير الحاسم بتطويع القانون ليلائم الاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية لغالبية السكان. وتدرجيا، أصبحت البلدان الغربية قادرة على الإقرار بأن العقود الاجتماعية التي ظهرت خارج القانون الرسمي كانت مصدرا مشروعاً للقانون، وعلى التوصل إلى طرق لاستيعاب هذه العقود. وهكذا تم وضع القانون ليفيد تكوين رأس المال الرخيص والنمو الاقتصادي. وذلك هو ما يضيف على مؤسسات الملكية الحالية في الغرب حيويتها. وبالإضافة لذلك، كانت ثورة الملكية هذه على الدوام انتصارا سياسيا. وكانت في البلدان كافة نتيجة لجهد قلة مستنيرة من الرجال، قرروا أن القانون الرسمي لايصبح له معنى إذا عاش جزء كبير من السكان خارجه.

إن لدى مختلف تواريخ الملكية في أوروبا الغربية واليابان والولايات المتحدة جميعها شيئا مفيدا تقوله عن الشواغل الحالية للبلدان النامية والبلدان

الشيوعية السابقة. ففى كل بلد منها، لم يكن الخروج الواضح على القانون **يتعلق** حقا بالجرائم، وإنما بالتضارب بين صنع القانون على المستوى **الجهاميرى** وصنع القانون عند القمة. وتضمنت الثورة فى كل حالة اندماجا **تاريخيا** بين النظامين.

بيد أن إيراد التواريخ التفصيلية لهذه البلدان كافة أكبر مما يلزم لهذا **الكتاب**. ولذلك، قررت التركيز على الولايات المتحدة؛ لأنها كانت بلدا من العالم **الثالث** منذ أكثر من ١٥٠ عاما مضت. وكانت الحكومات والنظام القضائى فى **الولايات** الفتية، والتي لم تكن قد توحدت قانونا بعد، يحاولان مواجهة قوانين واضطرابات، المهاجرين، وواضعى اليد، والمنقبين عن الذهب، والعصابات المسلحة، وأصحاب المشروعات التى لا تتمتع بحماية القانون، وباقى **الشخصيات** النابضة بالحياة التى استوطنت الغرب الأمريكى، البرى بهذا **القدر** الكبير والرومانسى للغاية حتى لو جاء إدراك هذا متأخرا. وباعتبارى من أبناء العالم الثالث، فإن صورة هذا الماضى الغريب تبدو مألوفة على نحو **مدهش**. ورغم أننى أنا وزملائى نجد صعوبة فى التكيف مع دلالات مكونات **مؤشر** داو جونز العديدة، فإننا نجد ألفة كبيرة بين واضعى اليد فى فيرجينيا **توماس جيفرسون** أو فى مستوطنات الكبائن الخشبية فى كنتاكى دانييل بون. ومثلما تفعل **سلطات** العالم الثالث حاليا، فقد حاولت الحكومات الأمريكية أن توقف الزيادة [بمتوالية أسية] فى أعداد واضعى اليد، والترتيبات غير **القانونية**؛ لكنها على خلاف سلطات العالم الثالث، سلمت فى النهاية، على حد **تعبير** أحد أعضاء الكونجرس الأمريكى بأن: «نظام الأرض قد أنهار عمليا... وبدلا من التشريع لهم، فإننا نقوم بالتشريع وفقا لهم فى ملاحقة كاملة لمسيرة **روكى ماونتز**. أوباسفيك أوشن». وكان، ما تعلمه السياسيون الأمريكيون فى **نهاية** المطاف، مثلما أوضح فرانسيس فيلبريك، هو أن «القوى التى غيرت القانون بطرق ليست باليسيرة تكمن خارجه»^(١). وحتى «مرسوم هومستيد» الشهير الصادر فى ١٨٦٢، **والذى** أعطى للمستوطنين حق تملك ١٦٠ فدانا من **الأراضى** الخالية مقابل مجرد الموافقة على العيش فيها وتطويرها عمرانيا، لم يكن مرسوما صادرا عن الكرم، بقدر ما كان صادرا عن التسليم بالأمر

الواقع: إذ إن الأمريكيين طفقوا فى التوطن فى - أو تحسين - الأرض بصورة لا تتمتع بحماية القانون عقودا طويلة. وعكس السياسيون هناك تدريجيا القانون ليدمج هذا الواقع فى النظام القانونى الرسمى، واكتساب بعض النقاط السياسية فى المساومة. وإذ غير المسؤولون الأمريكيون بهذا قوانينهم لاستيعاب الترتيبات التى لا تتمتع بحماية القانون القائمة، جعلوا الأصول المملوكة للمستوطنين وأصحاب المناجم الأمريكيين صالحة للتحويل إلى رأس مال. ومثلما حدث فى الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر، فإن تحدى رسملة الفقراء فى بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة، هو فى أساسه تحد سياسى يتعين التصدى له بأدوات قانونية.

وفى وصف تطور الملكية فى الولايات المتحدة، مثلما ساورد فى هذا الفصل، لا أدعى إعادة كتابة تاريخ أمريكا؛ فمثل الشخص الأسطورى الذى سميت باسمه، فإننى سأستكشفها فحسب. وكما سترى، فقد عثرت أثناء هذه العملية على أمثلة كثيرة ذكرتني بالبلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة فى الوقت الحالى: هجرات حاشدة، وانفجار فى النشاط الذى لا يتمتع بحماية القانون، والقلق السياسى، والسخط العام على النظام القانونى البالى المهجور الذى رفض الاعتراف بأن مبادئه وصيغته ليس لهما صلة تذكر بعالم الواقع، كما توصلت إلى كيفية إدماج القانون الأمريكى تدريجيا للترتيبات التى لا تتمتع بحماية القانون للتوصل إلى نظام سلمى - مما أكد رأى القاضى هولز بأن «التجربة» هى التى تهب الحياة لتطبيقات القانون، مبينا، مثلما سنرى فى الفصل التالى، أن القانون يجب أن يوافق الطريقة التى يرتب الناس بها حياتهم فعلا. إن الطريقة التى يبقى بها القانون على قيد الحياة هى بارتباطه بالعقود الاجتماعية المبرمة بين الناس الحقيقيين فى أرض الواقع مأخوذة معا.

التماثل مع تاريخ الولايات المتحدة

من الصعب استيعاب قدر أهمية الضغط من قبل الذين لا يتمتعون بحماية القانون، والاستجابة السياسية له فى الولايات المتحدة، بمجرد القراءة

العشوائية فى قسم التاريخ الأمريكى فى مكتبة ما . كما لن يكون من السهل على معظم السياسيين والتكنوقراط ذوى العقلية الإصلاحية، اكتشاف التاريخ الأمريكى الذى ينبغى أن يهتموا به أكثر الاهتمام، وأساسا الصلة بين إضفاء طابع قانونى على الملكية وخلق رأس المال. ولكى يكون التاريخ مفيدا من الناحيتين الاجتماعية والسياسية، يتعين تجميعه لتوضيح المشكلة المطروحة. وعموما، فإن المتخصصين فى الملكية لم يكتبوا عن الانتقال من الحقوق غير القانونية إلى نظام قانونى متكامل للملكية. وقد تكون هناك عدة أسباب لهذا:

أولا، إن المسيرة التاريخية لم تكتمل بعد. فعلى عكس الاعتقاد الشائع، فإن نظم الملكية المفتوحة لكل المواطنين ظاهرة حديثة نسبيا - لايزيد عمرها على مائتى عام - ولم تظهر بعد التداعيات الكاملة لهذا الانتقال. ففى معظم دول الغرب، لم تكتمل المهمة الأساسية لإجراء إصلاح واسع النطاق للملكية إلا منذ قرن مضى؛ وفى اليابان يقل عمره عن خمسين عاما. وحيث إن العملية كلها التى خلقت نظاما متكاملة للملكية كانت نتيجة تطور غير واع بأكثر مما كانت نتيجة تخطيط واع، فلا يدعو للدهشة أنها تقتضى وقتا لكى تتضح كل الدروس المفيدة لخلق الملكية فى البلدان المتقدمة لكل الناس فى العالم النامى. ثانيا، جرى النظر تقليديا للملكية من وجهة نظر البلدان المتقدمة. وتعتبر معظم الأدبيات المزدهرة حاليا عن الملكية، أصلها الذى نشأ فى الغرب أمرا مسلما به.

ويكمن السبب الثالث فى صعوبة استيعاب عملية خلق الملكية الرسمية فى أنه من الصعب تتبع خيط الرواية. فقد غطت أحداث تاريخية أخرى على استيعاب القانون الرسمى البطيء للممارسات والعوائد والأعراف التى اتبعتها العاملون خارج إطار القانون. وعلى نحو نموذجى، عولجت مسألة منح حقوق الملكية الرسمية للمستوطنين وواضعى اليد فى الولايات المتحدة، وهى التى خلقت فى نهاية المطاف الأساس لتوليد رأس المال والمعاملات فى سوق أخذة فى التوسع، باعتبارها استراتيجية سياسية لمساعدة الطموحات الإمبريالية الأمريكية، ومساعدة الرواد على استغلال موارد البلاد الشاسعة، وتخفيف التوترات بين الطوائف. كما لم يركز المتخصصون فى شؤون الملكية فى المحل

الأول على أن هذه الخطوات نفسها ربما أتاحت للولايات المتحدة أيضا أن تتجاوز الصراع بين النظام القانوني والترتيبات غير القانونية لواضعي اليد وغيرهم من الرواد.

وأكرر القول ثانية إننى لا أستهدف فى هذا الفصل إعادة كتابة تاريخ الولايات المتحدة، بل إعادة ترتيب الرواية المألوفة بطريقة تساعدنا على فهم أن الفوضى البادية فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة هى فى الواقع بحث عن نظام قانونى جديد. ومن ثم، فلنتأمل انتقال «القانون» غير القانونى من الغابات والحقول فى الولايات المتحدة الوليدة إلى كتب القانون فيها.

التخلى عن القانون البريطانى المهجور

شهد القرن السادس عشر بداية هجرة غير مسبقة لأهل أوروبا الغربية إلى شواطئ أمريكا الشمالية والجنوبية. وهو ما أسماه المؤرخ برنارد بايلن «واحدا من أعظم الأحداث فى التاريخ المسجل»^(٢). ففى أمريكا الشمالية البريطانية، حسبما قال هوفر، «احتشد تجمع يشعر بالبرد والتعب والخوف من الرجال والنساء على البساطى الغربى للأطلنطى، متسللين إلى برية من الغابات الكثيفة. وإذا كانوا يتشبثون بإحكام بالحافلات المترنحة وبالأناجيل، فلا بد أن البعض منهم استدعى ذكرياته فى العالم الذى تركوه خلفهم»^(٣).

ومن بين هذه الذكريات كانت هناك أفكار عن كيفية بناء المجتمعات والحفاظ عليها، وتسوية المنازعات، والحصول على الأرض، وبناء المؤسسات الحكومية. ولعب النظام القانونى دورا بارزا فى حل المنازعات التى خلقتها هذه الأعمال على نحو دائم. والواقع أن القانون «مضى إلى كل مكان» فى أمريكا الأولى، حيث استندت الحكومات الاستعمارية الأولى على وثائق قانونية - «مواثيق»... وعملت الاقتصادات الاستعمارية بموجب قوانين تنظم الأسعار والأجور ونوعية السلع. وحدد القانون للناس وسائل بيع أراضيهم للآخرين أو التوصية بها لهم، ووفر منبرا لتسوية الخلافات حول الأسوار المهدمة والثروة الحيوانية

الضالة، بل أخبر الناس بكيفية العبادة، والزواج، وتربية أطفالهم، ومعاملة خدمهم وجيرانهم»^(٤).

وفى البدء حاول القائمون بتكوين المستعمرات تطبيق مبادئ قانون الملكية الإنجليزى لإقامة النظام. لكن القانون العادى الإنجليزى لم يكن يستهدف مجتمعا يولد بصورة سريعة أشكالا جديدة من فرص الحصول على الملكية بدون وجود نظام راسخ ومقبول بصفة عامة لسندات الملكية. فعلى سبيل المثال، لم يوفر القانون العادى الإنجليزى المشورة حول كيفية معالجة المحاكم لقضايا تشمل أشخاصا اشتروا أو ورثوا أرضا بسندات ملكية مشكوك فيها. ونتيجة لذلك، «أصبح التقاضى العلنى بشأن سندات الملكية فى المحاكم الإقليمية ضرورة مطلقة. وكان فى مقدور كل الأطراف المعنية أن تتقدم بشهادتها، وأصبحت قرارات المحاكم ضمانا فعالا نسبيا وعاما حيث لا يوجد ضمان آخر»^(٥).

بيد أن معظم هؤلاء المعمرين كانوا لا يفهمون كثيرا فى تقنيات القانون الإنجليزى. فلم يكن كثيرون يعرفون، أو لم يهتموا بمعرفة، الفرق بين حكم المحكمة، والقانون وحقوق المساهمين، وغير ذلك من المعانى الدقيقة. والأهم من ذلك أن قانون الملكية العادى الإنجليزى لم يكن عادة مؤهلا للتصدى للمشكلات التى واجهت المعمرين. لقد أتاحت وفرة الأراضى فى أمريكا الشمالية البريطانية للمستوطنين الأول فرصا لا يمكن تخيلها فى أوروبا. التى كانوا قد تركوها. فعند الوصول إلى «قارة كان كثير من الأرض فيها قد أخلته للزراعة، الطبيعة أو الهنود، اندفع الإنجليز (والأوروبيون الآخرون) لتقسيم مصدر ثروتهم الجديد... ونتيجة لذلك، ثم التجاوز بسهولة عن إيلاء اعتبار دقيق للتفاصيل. وكان يتم التغاضى عن عدم الدقة فى التخصيص والتسجيل، ولم يول سوى اهتمام قليل للخطط المنظمة التى كان يتعين اتباعها، كما هو متوقع [من قبل السلطات الاستعمارية]^(٦). لم تكن كل الأرض خصبة، وجيدة الصرف، أو فى مدى الوصول السهل للمراعى لتوفير إمداد من الأعلاف لماشية المستوطنين وخيولهم^(٧). وفى بحثهم عن الأراضى الملائمة، تحرك

المعمرون الأمريكيون عادة على هواهم، يرسمون الحدود، ويزرعون الحقول، ويبنون البيوت - ثم يهجرون كل ذلك للانتقال إلى إقليم آخر أكثر خصبا. وترتب على حقوق الملكية قدر كبير من التباين والعمل خارج إطار القانون. ويقدم ديفيد توماس كونيغ فى تحليله للتغير القانونى فى مستعمرة ماساتشوستس، ملخصا لأوجه الإخفاق البيروقراطى والتقنى الذى فاقم مشاكل الهجرة. فعلى سبيل المثال، أثار الافتقار إلى نظام موحد للمسح، اختلافات وأنواعا من الشذوذ عن القواعد. وفى كل أنحاء ماساتشوستس، اختلفت السلطات الاستعمارية عادة حول الكيفية التى ينبغى تقسيم الأراضى بها. «على سبيل المثال، لم يكن هناك اتفاق عما إذا كانت الخطوط المستقيمة أو الخصائص الطبيعية هى التى يتعين استخدامها للفصل بين حيازات الأراضى». فأحد المعمرين «افترض أن الملكية الممنوحة له وقدرها ثلاثمائة فدان فى ريدنج مستطيلة الشكل، ولكن أفزرعه فيما بعد أن يكتشف أن قطعة الأرض الخاصة بجاره فى المدينة المجاورة قد حددت فى «شكل دائرى» ينتقص قوسه من المساحة المخصصة [للمعمر]^(٨). كما زادت العيوب التقنية فى إجراءات المسح عدم اليقين والإرتباك. ويلاحظ كونيغ أن الصعوبات التى واجهها التعويض عن انحراف دائرة خط الطول فى أمريكا الشمالية، أثارت عادة ادعاءات متداخلة بشأن الملكية، حتى توصل جون وينشروب الرابع إلى [جدول انحراف القطب المغناطيسى عن القطب الجغرافى الخاص بمسح الأرض فى ١٧٦٣]^(٩).

وفى استنباط أحكام بصدد ذلك الحشد المثير للإرتباك من المنازعات على الملكية، والتى لم تكن هناك سوابق إنجليزية لطبيعتها، أو كان هناك القليل منها، لم تستطع السلطات الاستعمارية أن تنزل على أحكام القانون الإنجليزى. وبدلا من ذلك، «اتجهت المحاكم عادة لأعراف المدن المحلية، وحولتها إلى هيكل جديد من القانون يحقق استقرار المعاملات الخاصة بالأراضى»^(١٠). وفى أمور تتراوح من الاستقلال الذاتى السياسى المحلى إلى استخدام الأرض وتوزيعها، بدأ المعمرون يبتعدون بطرق واضحة عن القوانين الإنجليزية التى ليس لها أى صلة منطقية، أو لها صلة محدودة، بوقائع حياة

المعمرين. ومثلما يؤكد بيتر تشارلس هوفر: «فمن الناحية النظرية، كانت المستعمرات جزءاً من الملكية الشخصية للملك [وتخضع لكل قوانينه]، لكن الحقيقة غلبت النظرية. فالمستعمرات البعيدة عن إنجلترا، والمعمورة بعدد ضئيل من السكان، والغنية بالموارد الطبيعية، والتي يشغلها رجال ونساء يعرفون رغباتهم ويغتتمون الفرص حينما تلوح لهم، تحركت تدريجياً نحو الحكم الذاتى»^(١١).

التقاليد الأمريكية الأولى - وضع اليد

رغم أن المهاجرين الأول كانوا أساساً رعايا بريطانيين ويخضعون للقانون الإنجليزي، فإنهم بمجرد أن انتقلوا إلى أمريكا، وهى واقع مختلف، بدأت تغيير الطريقة التى يرتبطون بها مع بعضهم البعض. ففى إنجلترا، كان احتلال قطعة من الأرض مدة طويلة بدون سند للملكية - «وضع اليد» - مناقضاً للقانون. أما فى الولايات المتحدة، ومع عدم وجود أى مقاومة أولية وتوافر كثير من الفرص، سرعان ما أصبح وضع اليد على الأراضى المتوافرة ممارسة سائدة. ووضع اليد أقدم من نشوء الأمة نفسها. فحسب دراسة أميليا فورد للسوابق الاستعمارية لنظام الأراضى الأمريكى، فإنه «قبل وصول شركة ماساتشوستس باى إلى نيو إنجلند، كان هناك مستوطنون يعيشون بدون ميثاق أو منحة فى أماكن مختلفة داخل حدود الخليج... وكان المستوطنون الأول فى كونكتكت من الناحية القانونية من المعتدين على حرمة الإقليم الذى عاشوا فيه، ولم يستطيعوا أن يؤسسوا ملكيتهم إلا بالاحتلال والشراء من الهنود»^(١٢). وفى السنوات الأولى لماريلاند، شغل الفرنسيون وغيرهم من غير الإنجليز الأرض التى لم يستطيعوا تملكها بموجب شروط المنح. وفى ١٧٢٧، عارض المشرعون فى بنسلفانيا تلك «المجموعات [التى] كثيرا، ما تحتل أى قطعة من الأرض الشاغرة تستطيع العثور عليها». وبالفعل احتل واضعوا اليد الأمريكيون المعمرون هؤلاء ١٠٠ ألف فدان من الأراضى، وحسنوها بدون «ظل من الحق»، كما قال أحد المؤرخين^(١٣).

وفى نيو إنجلند، لم يجد السياسيون ذوى الأملاك أى فضيلة فى أنشطة واضعى اليد، والذين اعتبروهم مجرد معتدين بصورة غير قانونية. وفى فترة مبكرة ترجع إلى ١٦٣٤ فى ماساتشوستس، حاولت المحكمة العامة الحد من وضع اليد، بأن قضت بأن «كل الأراضى الممنوحة للرجال الأحرار يجب أن تسجل، وأن يرسل إليها نسخة من وثيقة التسجيل. وكان يتعين إجراء المسح فى كل مدينة بواسطة شرطى وأربعة غيره من الرجال الأحرار»^(١٤). ولم يجد هذا أيضا. واضطر التقاعس الواسع النطاق لمن يحتلون الأرض «عن الامتثال لأوامر قانونى ١٦٣٤ و١٦٣٥، المحكمة العامة [فى ١٦٣٧] للتحرك مرة أخرى والمطالبة «باتخاذ بعض الإجراءات الصارمة لجعل الناس يسجلون أراضيهم، أو تغريمهم على ذلك الإهمال»^(١٥).

بيد أنه، لم تكن هناك وسائل قانونية فعالة لتسوية المنازعات الكثيرة التى تشور. ونتيجة لذلك، اتجه واضعو اليد إلى أدوات الأمر الواقع التى فتحت فرصا لإضفاء المشروعية على وضع اليد. ووقع كثير من أشد المنازعات احتداما على الأراضى الطرفية الشاغرة بدرجة كبيرة، والتى تعرف الآن بفيرمونت وماين. قبل نشوب الثورة الأمريكية، ادعت نيويورك ونيو هامبشير ملكية إقليم فيرمونت^(١٦). وللتحاييل على ادعاء نيويورك، فإن حاكم نيو هامبشير، بنج وينتورث، «استند لمبدأ أن الملكية هى تسعة أعشار القانون... وقدم منحا مجانية فى المنطقة لكل من مواطنى نيو هامبشير وماساتشوستس... [والنتيجة هى أنه بين ١٧٦٤ و١٧٦٩] تم منح ١٣١ ناحية إلى أكثر من ستة آلاف... مجموعة منتقاة من الأفراد»^(١٧).

وفى أعقابهم مباشرة، سرعان ما أجتاح واضعوا اليد البلاد، فلم يكونوا يدينون بولاء كبير لأى ولاية. والواقع «أن المستوطنين بدأوا يتدفقون إلى فيرمونت ويستوطنون حيثما يلائم هواهم»^(١٨). وأدركوا مبكرا أهمية العمل الجماعى، وبدأوا «فى تقديم التماسات أولا إلى حاكم هامبشير ثم إلى حاكم نيويورك بأن تشمل منح الأراضى مستوطناتهم، أو أن يصدر أمرا يثبت أوضاعهم فى أراضيهم»^(١٩). ورغم أن كلتا المستعمرتين حاولتا إجهاض مطالب واضعى اليد، بتكرار إقامة دعاوى طرد ضدهم، فقد كانت هيمنة

واضعى اليد على الأراضى كاملة لدرجة أن ايثان ألن «وأتباعه من واضعى اليد» تولوا حكم فيرمونت فى أعقاب الثورة. وتمثلت النتيجة الأولى لهذا الانتصار غير العادى «لسلطة واضعى اليد» فى الاعتراف رسميا بترتيباتهم الخاصة بالملكية.

وكثيرا ما أشعل نيران عمليات وضع اليد، السياسيون ذوو الأملاك الملهفين على تطوير واستغلال موارد المستعمرات. ففى معظم المستعمرات، كان السياسيون يعتقدون أن تنمية الأراضى لا يمكن تحقيقها إلا من خلال الهجرة إليها. ولتحقيق هذا الهدف، قدم السياسيون العمرون منحاً للأفراد والمجموعات لكى يستقروا فى الأراضى التى لم تتم تنميتها عمرايا، معلنين أن سند الملكية ينتقل عن طريق احتلال الأرض وتحسينها. ففى فيرجينيا، حسبما قال فور، «كان الاستقرار فى قطعة الأرض وتملكها يعنى بناء منزل، وزراعة فدان واحد، والاحتفاظ برصيد يكفى لمدة عام واحد؛ وإن لم يتم هذا فى خلال ثلاث سنوات، تؤل الأرض للدولة»^(٢٠). ويموجب قانون ماساتشوستس، كانت واجبات المستوطن «تتضمن الاضطلاع بالملكية الفعلية، وخلال ثلاث سنوات، بناء منزل بحجم محدد، عادة ثمانية عشر أو عشرين قدما مربعا، وإخلاء وإعداد من خمسة إلى ثمانية أفدنة لزراعة العشب والفلاحة»^(٢١).

وفى ماريلاند خلال سبعينيات القرن السابع عشر، استخدام اللورد بالتييمور واضعى اليد «لتسوية النزاعات حول بعض الأراضى على الجانب الساحلى من «الشاطئ الشرقى» وخليج ديلاوير»^(٢٢). وفى إجراء للإبقاء على سلامة تدفق إيراداتهم، فإن أسرة «بن» مؤسس بنسلفانيا «أصدرت تعليمات بأن الأشخاص الذين استوطنوا على أى أرض يمكنهم الحصول عليها بالسعر السائد فى وقت الاستيطان، بفائدة تحتسب من ذلك الوقت ولكن مع خصم قيمة التحسينات؛ وأن من لا يستطيعون ذلك، ملزمون بدفع بدل يتناسب مع سعر الشراء»^(٢٣). بيد أنه مظلما اكتشفت أسرة «بن» سريعا، فقد ثبت أنه من الصعب لأقصى حد تنفيذ هذه التعليمات إن لم يرد واضعو اليد الدفع. والواقع أنه «أصبح واضحا أنه ما لم يتم وضع تسوية مؤقتة مع هؤلاء الرجال الذين عقدوا العزم والمتعطين للأرض، والذين لا يمكن طردهم، فإن إيرادات ضخمة ستضيع

حتما... وبالتالي تفاضى مكتب الأراضى [فى بنسلفانيا] عن، أو سمح باستخدامات كثيرة عجز عن أى يمنعها، ومن هنا نشأت إلى جانب حقوق المكتب العادية، أنواع كثيرة خاصة ومحلية، من سندات ملكية الأرض»^(٢٤).

وفى سعيهم لتأمين الحقوق التى كانوا يأملون فى الوصول إليها من خلال سياسات الاستيطان هذه، كثيرا ما تبين واضعو اليد أن النظام الرسمى جدّ مرهق أو معقد. ومثلما لاحظت أميليا فورد، «فقد كان مكتب الأراضى بعيدا جدا، وكانت الأمور جد مختلطة، والأساليب جد معوقة بحيث لاتناسب متطلبات [واضعى اليد] العمليين»^(٢٥). وأصبحت القوانين البريطانية على نحو متزايد منبئة الصلة بالطريقة التى يعيش بها أناس كثيرون ويعملون.

«عقد اجتماعى جديد:» «حقوق توماهوك»

فى ظل الفوضى التى أحاطت بالقانون والأرض والملكية، أدرك المهاجرون أنهم لو أرادوا أن يعيشوا فى سلام فيما بينهم، فإن عليهم أن يقيموا نوعا ما من النظام، حتى لو كان يتعين إقامته بعيدا عن القانون الرسمى. وبدأ واضعو اليد فى اختراع الأنواع الخاصة بهم من سندات الملكية غير القانونية المعروفة باسم «حقوق توماهوك»، «حقوق الكوخ»، و«حقوق الذرة». وكانت «حقوق توماهوك» يتم تأمينها بإماتة بعض الأشجار قرب منبع ينبوع ما، ووضع علامة على لحاء شجرة أو أكثر بالحروف الأولى للشخص الذى أجرى التحسين. وفى فترة مبكرة ترجع إلى ستينيات القرن السابع عشر، طور واضعو اليد فى ماريلاند عادة وضع علامات على الأشجار القائمة فى الأراضى التى يريدونها، قبل مسحها بإذن من «المساح العام» للمستعمرة^(٢٦). ومع نهاية الثورة الأمريكية، أصبح أسلوب وضع علامات على الأشجار لإثبات حق الملكية فى الأرض شهيرا لدرجة أن مسؤولا فى الجيش كتب إلى وزير الحربية يقول: «لقد اعتاد هؤلاء الناس الذين يعيشون على الحدود أن يستولوا على أفضل الأراضى، فارضين حق توما هوك أو تحسينا، كما يطلقون عليه، مفترضين أن ذلك يمثل سند ملكية كافيا»^(٢٧).

وكان «حق الكوخ»، و«حق الذرة»، يعنى تعليم حدود الأرض ببناء كوخ خشبى أو زراعة محصول للذرة. ومما له دلالة، أن هذه الحقوق غير القانونية كانت تشتترى وتباع وتنقل - تماما مثل سندات الملكية الرسمية^(٢٨). وعلى الرغم من أن حقوق الكوخ وحقوق الذرة هذه قد لاتخول قانونا أى شخص الحق فى ملكية الأرض، فلاشك أن حقوق الملكية غير القانونية هذه ساعدت على تفادى المنازعات، وكانت مقبولة على نطاق واسع فى مجتمعات الحدود فى أمريكا، وأصبحت مصدر سندات الملكية القانونية بعد ذلك بسنوات.

ورغم إزعان السياسيين المحليين الضمنى لهذه الترتيبات غير القانونية، ظل واضعو اليد يواجهون عالما معاديا. إذ كانوا يثيرون المنازعات باستمرار مع «أهل البلاد للأمريكيين الأصليين» بغزو أراضيهم. لكن واضعى اليد كانوا أيضا يمثلون تهديدا للصفوة التى كانت تخشى ضياع ممتلكاتها الشاسعة. وهذا هو السبب فى أن أحد أعضاء الصفوة - جورج واشنطن - اشتكى فى ١٧٨٣ من «قطاع الطرق الذين سيتحدون كل السلطات فى حين أنهم يقشدون، ويستحوذون على، زبدة البلاد على حساب الكثيرين»^(٢٩).

إطلاق النار على عمدة البلدة (الشريف)

بدأ المهاجرون يقيمون الحدود، ويحرثون الحقول، ويبننون البيوت، وينقلون ملكية الأرض، وينظمون الانتماء قبل وقت طويل من قيام الحكومة بخلع حق القيام بذلك عليهم. بيد أنه على الرغم من كدّهم، ظلت سلطات كثيرة مقتنعة بأن هؤلاء الأمريكيين الجدد ينتهكون القانون بصورة صارخة، وأنه يتعين قمعهم. ولكن لم يكن من السهل القيام بذلك. وحتى عندما حاول جورج واشنطن، الأب الروحى للولايات المتحدة، طرد الأشخاص الذين وضعوا أيديهم على أرضه الزراعية فى فيرجينيا، حذره محاميه من «أنه إذا نجح فى قضيته المقامة ضد المستوطنين فى ممتلكاته، فربما أحرقوا مخازن حبوبه وأسواره»^(٣٠). كما بدأت تتوتر العلاقات بين الولايات الأخرى وواضعى اليد المحليين. فحتى قبل الثورة، كان المهاجرون من ماساتشوستس قد بدأوا بالفعل فى

الإستييطان في ماين، وهي إقليم كانت ماساتشوستس قد طالبت به في فترة مبكرة ترجع إلى ١٦٩١. وتغاضى السياسيون في ماساتشوستس، في البداية، عن الزيادة السريعة في أعداد واضعى اليد في ماين البعيدة. بيد أنه بعد الثورة، ومع إفلاس خزانة ماساتشوستس وتخفيض قيمة عملتها، تطلع السياسيون فيها إلى أراضي ماين الشاسعة كمصدر كبير لإيرادات جديدة^(٣١). وفجأة، أصبح واضعو اليد في ماين عقبة أمام بيع مساحات كبيرة من الأرض. وفي ١٧٨٦، أصدر الحاكم بياناً يحظر وضع اليد في ماين^(٣٢).

ولطمانة المشتريين المحتملين، عينت ماساتشوستس لجنة لتقصي الحقائق ومطالبة «المتعدين» غير القانونيين بدفع مقابل^(٣٣). بيد أن معظم واضعى اليد رفضوا ببساطة الرحيل عن أراضيهم أو دفع مقابل. وبدلاً من التوصل لحل وسط مع واضعى اليد، أمرت الولاية عمُد القرى (الشريف) بإنفاذ الإجراءات القانونية للطرء، مما أشعل برميل البارود الذى أدى إلى ما وصفه المؤرخون بأنه «شىء شبيه بحرب علنية».

وقد علق أحد المحامين في ماين فى ١٨٠٠ بأن «أبرز سمة فى شخصية [واضع اليد] هى الكراهية العنيفة والحقودة للقانون». وأضاف: «إنهم كانوا يحكمون على «الشريف» وضباطهم بأنهم ينبغى التضحية بهم كقرايين، وأن الاسم المكروه لتنفيذ [الأحكام الصادرة فى قضايا الطرد] قصد بها إرهابهم فحسب. وأعلنوا أن مهنة القانون يجب التخلص منها، وأن المحامين يجب استئصالهم وأن يسد التراب مكاتبهم»^(٣٤). وعندما كان يقتل شريف وهو يحاول طرد واضع يد، كان المحلفون يرفضون إدانة القاتل المدعى عليه. ووافقت ماساتشوستس على تحويل ماين إلى ولاية فى ١٨٢٠، جزئياً نتيجة تفاقم العداء لها بين واضعى اليد فى ماين^(٣٥).

كما بذلت مستعمرات أخرى قصارى جهودها لاستئصال وضع اليد على الأراضى العامة والخاصة. ففى بنسلفانيا، بدأ المستوطنون الاسكتلنديون والأيرلنديون التحرك إلى أراضى الهنود فى فترة مبكرة ترجع إلى ١٧٣٠، وتصدى لهم أهل البلاد الأمريكيون. وحذرت السلطات الاستعمارية مرارا وتكرارا المستوطنين «من سرقة أراضى الهنود، وأصدرت تعليمات بحرق

أكواخهم»^(٣٦). والواقع، أنه من ١٧٦٣ إلى ١٧٦٨، حاولت جمعية بنسلفانيا ردع وضع اليد بفرض عقوبة «الإعدام»، فى حين أمر الحاكم ويليام بن الجنود بإبعاد المستوطنين غير الشرعيين^(٣٧). وعلى الرغم من هذه التدابير، تضاعف عدد واضعى اليد. وردا على ذلك، حسبما قال أحد مؤرخى الفترة، «أعلن الحاكم الذى استشاط غضبا إعدام من سيسوطنون أراضى الهنود. ولكن لم يكن فى الإمكان العثور على أى قاض لمحاكمة هؤلاء السجناء، أو محلفين يمثلون لذلك أو سجون مأمونة»^(٣٨).

فتح قانونى: «حق الشفعة»

فى بلد كان فيه كل مستوطن إما مهاجرا أو قريبا لمهاجر، كان واضعو اليد يضطرون للبحث عن مؤيدين لهم بين السلطات الاستعمارية، التى كانت تدرك مدى صعوبة تطبيق القانون العادى الإنجليزى على كثيرين من المستوطنين الجدد. فبموجب القانون الإنجليزى، فإنه حتى إذا وضع شخص ما يده عن طريق الخطأ على أرض شخص آخر وأدخل تحسينات عليها، فإنه لم يكن يستطيع أن يسترد قيمة ما فعله. بيد أنه نظرا للافتقار إلى حكومة فعالة وسجلات ومسوحات يعول عليها فى المستعمرات، كان على السلطات أن تسلم بأن التحسينات التى أدخلت على الأرض، والضرائب المدفوعة، والترتيبات المحلية المبرمة بين الجيران، كانت أيضا مصادر مقبولة لحقوق الملكية. وفى فترة مبكرة ترجع إلى ١٦٤٢، سمحت مستعمرة فيرجينيا للمالك عن طريق الخطأ بأن يسترد قيمة أى تحسينات أجراها من المالك الحقيقى. ولاحظ النظام الأساسى لفيرجينيا أنه «إذا استوطن شخص أو أشخاص، أيا كانوا، أى مزرعة أو أرض مملوكة بصورة سليمة لشخص آخر، يجب السماح بإيلاء اعتبار قيم لذلك فى حكم يصدره اثنا عشر رجلا»^(٣٩). وبالإضافة إلى ذلك، فإنه إذا لم يكن المالك الشرعى راغبا فى أن يسدد لواضع اليد مقابل هذه التحسينات، فإن واضع اليد يستطيع أن يشتري الأرض بسعر تحدده هيئة محلفين محلية^(٤٠). وسرعان ما استنسخت المستعمرات الأخرى هذا النظام

الأساسي. وتوضح هذه الأحكام مدى تعاطف النخب المحلية مع الأشخاص الذين كانوا يريدون توليد فائض القيمة من أرضهم.

وكان هذا الابتكار القانوني الذي يقضى بالسماح للمستوطن بشراء الأرض التي أدخل عليها تحسينات قبل عرضها للبيع العام، يعرف «بحق الشفعة» - وهو مبدأ شغل مفتاح إدماج ترتيبات الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون في القانون الأمريكي خلال المائتي عام التالية. وبدأ السياسيون وفقهاء القانون يفسرون «التحسينات» بطرق تفيد واضعي اليد بصورة بالغة. ففي نورث كارولينا وفيرجينيا، اعتبرت «حقوق الكوخ» و«حقوق الذرة» تحسينات^(٤١). وفي ماساتشوستس أدرجت «حقوق توماهوك»^(٤٢). ومما له دلالة، أن إدراج مثل هذه الترتيبات المحلية التي لا تتمتع بحماية القانون في القانون «لم يكن فقط اعترافاً بأن بعض التسامح استحققه عن جدارة المستوطنون الأول بسبب الأعباء والمخاطر التي تكبدوها؛ وإنما كان تعبيراً قانونياً عن شعور سائد... بأن واضع اليد كان حقاً بمثابة محسن للولاية، وليس متعدياً على الحرمات»^(٤٣). وبحلول زمن الثورة الأمريكية، كانت حقوق الذرة الخاصة بواضعي اليد المتنقلين، قد تحولت في عقول أشخاص كثيرين، إلى حقوق الامتلاك بوضع اليد من قبل الرواد الجسورين. وحتى عندما كان جورج واشنطن يلوم «قطّاع الطرق» الذين غزوا أرضه الخاصة، كان هناك سياسيون آخرون في مكان آخر من ولايته الأصلية فيرجينيا يشجعون واضعي اليد بحماية سندات ملكيتهم التي لا تتمتع بحماية القانون.

وكان حق الشفعة أيضاً مصدراً للإيرادات بالنسبة للولايات قليلة الدخل. إذ كانت تتقاضى رسوماً من واضعي اليد مقابل مسح الأرض التي أجروا فيها تحسينات، ومقابل إصدار سندات ملكية قانونية. ونتيجة لذلك، انتشرت قوانين حق الشفعة قبل الثورة وبعدها على حد سواء. وفي ١٧٧٧، فتحت نورث كارولينا مكتباً للملاك الأراضي لمقاطعة غربية، سمح للمستوطنين بتملك ٦٤٠ فداناً، مفضلاً الأشخاص الذين يضعون أيديهم بالفعل على أرض في المنطقة^(٤٤). وبعد ذلك بعامين، أصدرت فيرجينيا قانوناً أعطى للمستوطنين الذين وضعوا أيديهم على أرض على حدودها الغربية، حق الشفعة على الأرض التي أدخلوا تحسينات عليها^(٤٥).

مزيد من العقوبات القانونية - مزيد من العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون

على الرغم من أن واضعى اليد الأمريكىين كسبوا معارك كثيرة، فقد كانوا بعيدين عن كسب الحرب. واستمرت ازدواجية الموقف تجاه العاملين خارج إطار القانون خلال القرن الأول للولايات المتحدة، ولم يكن ذلك واضحا فى أى مكان آخر بقدر وضوحه فى الحكومة الاتحادية الجديدة، التى أصبحت فجأة تسيطر على أراضٍ عامة شاسعة. فمنذ نحو ١٧٨٤ إلى ١٨٥٠ استولت الولايات المتحدة على نحو ٩٠٠ مليون فدان من خلال الغزو والشراء؛ وشمل شراء لويزيانا (١٨٠٣) ٥٠٠ مليون فدان؛ وشراء فلوريدا (١٨١٩) ٤٣ مليون فدان؛ وشراء جادسن (١٨٥٣) ١٩ مليون فدان؛ وكسبت من الحرب مع المكسيك (١٨٤٨) ٣٣٤ مليون فدان^(٤٦). وبالإضافة لذلك، فإنه بحلول ١٨٠٢ استولت الحكومة الاتحادية على كل الأراضى الغربية للولايات الساحلية الشرقية.

وبداية من ١٧٨٤، بدأ كونجرس الولايات التى اتحدت معا فى شكل كونفيدرالى (وإن لم تتحد بعد دستوريا) فى وضع خطط لتقييد فرص الحصول على الممتلكات الوطنية والحقوق فيها. وكان أخطر قرار هو الذى فرض أن تصبح المستوطنات فى الإقليم الشمالى الغربى فى نهاية المطاف ولايات بنفس الحقوق والمزايا مثل الولايات الثلاث عشرة الأصلية^(٤٧). وفى ١٧٨٥، وسع الكونجرس القانون الذى كان قد أصدره فى العام السابق، بالنص على نظام لمسح وبيع الأراضى العامة. وعلى غرار النموذج المستخدم فى مستعمرات نيو إنجلند، قسّم نظام المسح الأراضى إلى نواح، مساحة كل منها ستة أميال مربعة، ثم تقسيم كل ناحية من الباطن إلى ستة وثلاثين قسما مساحة كل منها ميل مربع أو ٦٤٠ فداناً. وبمجرد مسح هذه المساحة، كان يتعين بيع هذه الأقسام التى يبلغ كل منها ٦٤٠ فداناً بسعر دولار واحد للفدان.

بعد ذلك بعامين غرّر الكونجرس فى ١٧٨٧ القانون السابق، بإصدار «قانون الشمال الغربى»، الذى ينص على تقسيم إقليم الشمال الغربى إلى

عدة أقسام، ويحدد ثلاث مراحل لزيادة التمثيل النيابي الذي يؤدي لإقامة ولاية. وبصفة خاصة، أرسى القانون مفهوم «ملكية الإقطاعة القابلة للتوريث» (حيازة الملكية على نحو مؤبد مع قدرة غير محدودة على بيعها أو التنازل عنها) ووَقَّر أول ضمان لحرية التعاقد في الولايات المتحدة^(٤٨). وعلى الرغم من أن هذه القوانين الاتحادية وفرت هيكلًا ممتازًا للقانون الرسمي لتوزيع الأراضي العامة - يعتبر المؤرخون «قانون الشمال الغربي» هو الإنجاز الرئيسي لحكومة الولايات المتحدة قبل وضع الدستور - فإنها لم تستطع أن تسيطر على، أو تحتوى، العدد المتزايد من الأشخاص الذين يهاجرون لأطراف البلاد. وتمثلت مشكلة أساسية في السعر الباهظ المانع للأراضي الاتحادية. وإن واجه الآلاف من مهاجري أمريكا بطاقة السعر المرتفعة هذه، والتي تبلغ ٦٤٠ دولارًا - وهو مبلغ ضخم في ذلك الوقت - قاموا فورًا بتحديد الأسعار بمعرفتهم خارج سوق الأراضي الاتحادية^(٤٩). بيد أن واضعى مشروع قانون الشمال الغربي كانوا قد افترضوا أن المستثمرين الأغنياء سيبيعون فائض قطع الأرض في مساحات صغيرة بسعر منخفض، ويوفرون الائتمان، أو يعرضون الأراضي بإيجارات مواتية. وحتى هذه الخيارات المأمولة، كانت تتجاوز إمكانات الرواد^(٥٠). وبدلاً من ذلك، فإن المهاجرين «اختاروا عدم اليقين المصاحب للاستيطان غير القانوني»^(٥١). وهكذا، أصبح عدد أكبر من الأمريكيين يقدر بعشرات الآلاف من واضعى اليد على أساس ترتيبات غير قانونية.

وبصورة مباشرة تقريباً، تحركت الحكومة الاتحادية لتهميش وعقاب واضعى اليد هؤلاء. فقد هوجموا بضراوة في المناقشات التي أحاطت باعتماد «قانون الشمال الغربي». وكتب ويليام باتلر ممثل نيويورك: «أفترض أن المجلس قد أحاط علماً بنذالة الناس في هذا البلد، الذين يتدفقون من كل الأوساط ويحتلون ويستولون لا على أراضي الولايات المتحدة فقط، بل على أراضي هذه الولاية، لقد عبرت مئات كثيرة النهر، وتدفقوا يومياً بأعداد كبيرة مع أسرهم، وأمل أن يتصدى المجلس بوسع حكمته لهذا الشر الجسيم والمتنامي»^(٥٢).

وإذ تأثر أعضاء الكونجرس كثيرا بمثل هذه المشاعر، فقد عملوا على ترحيل واضعى اليد، عادة بوسائل عنيفة. وفى ١٧٨٥، أصدر الكونجرس قرارا يحظر صراحة وضع اليد على الممتلكات العامة، ويحول وزير الحرية السلطة لترحيل المستوطنين بصورة غير قانونية من الأراضى الاتحادية فى إقليم الشمال الغربى. وتم تنفيذ هذه السياسة فى ربيع ١٧٨٥ عند نقطة اتصال نهري موسكنجام وأوهايو، حيث نزع الجيش الأمريكى ممتلكات عشر أسر بتدمير بيوتها، فى حين شيد حصنا لمنعهم من العودة^(٥٣). وبعد ذلك بأربع سنوات، أمر الرئيس جورج واشنطن بتدمير الأكواخ وترحيل الأسر التى استوطنت على أراضى حدود بنسلفانيا التى يملكها أهل أمريكا الأصليين^(٥٤).

بيد أنه على الرغم من أن معظم السياسيين كانوا يريدون الحفاظ على القانون القائم للدولة الجديدة ذات السيادة، فقد تشكك البعض منهم فى إمكان تنفيذه بطريقة تتفق مع مصالح البلاد على خير وجه. وهذا هو السبب فى إثارة مسألة حق الشفعة فوراً^(٥٥). فخلال نفس الجلسة الأولى للكونجرس الجديد فى ١٧٨٩، عرض أحد الأعضاء بصورة حادة الخيارات التى يواجهها واضعو اليد:

يوجد فى هذه اللحظة، عدد كبير من الناس فى الواقع، ممن يرغبون فى أن يملكوا عن طريق الشراء الحق فى الأرض التى وضعوا يدهم عليها. ما الذى سيعتقده هؤلاء الناس، الذين وضعوا أنفسهم فى مكان شاغر، منتظرين فى قلق تحويل الحكومة للملكية إليهم، والحصول على حقهم فى الشفعة فى أراض يتم احتكارها عن طريق شراء ملايين الأفدنة؟ هل سيتوقعون أن يقبوا فرائس لهؤلاء الرجال؟... إنهم سيفعلون أمراً من اثنين: إما التحرك إلى الأراضى الأسبانية، حيث لن يكونوا مدعويين غير مرغوب فيهم، ويصبحون مصدر قوة لدولة أجنبية تشكل بالنسبة لنا حدوداً خطيرة؛ أو يتخذون مسار التنقل فى أراضى الولايات المتحدة والتملك بدون إذن منكم. فما الذى سيصبح عليه الوضع عندهذا؟ لن يدفعوا لكم نقوداً. هل ستحشدون القوة عندئذ لطردهم؟ لقد تمت تجربة ذلك: فقد حشدت القوات، وتم إرسالها... لتحقيق هذا الغرض. وقامت بحرق الأكواخ، وتحطيم الأسوار، وبمرت المساحات الصغيرة المزروعة بالبطاطس؛ لكن بعد ثلاث ساعات من رحيل القوات،

عاد هؤلاء الناس ثانية، وأصلحوا الأضرار، وهم الآن يحتلون الأراضي في تحد صريح للاتحاد^(٥٦).

وكانت آراء لجنة الأراضي العامة في مجلس النواب نموذجاً للتناقض في موقف الكونجرس في ذلك الوقت. فعندما أوصت اللجنة في ١٨٠١ بأن يرفض الكونجرس طلبات واضعي اليد بشأن حقوق الشفعة، اعترفت بأن واضعي اليد «قد قاموا، بكثير من الجهد الذي بذلوه والصعاب التي واجهوها، بالاستيطان في أراضٍ محدودة وزرعوها وحسنوها... [ومن ثم] فإنهم لم يعززوا فقط قيمة الأراضي التي استوطنوها كل منهم، وإنما أيضا الأراضي الواقعة في جوارها، وكان في ذلك نفع كبير للولايات المتحدة». ورغم ذلك، حاجت اللجنة بأن منح «الغفران والتساهل المرجوين سيعبد تشجيعاً للاعتداء على الأراضي العامة وتضحية لا مبرر لها بالمصلحة العامة»^(٥٧). ولذا كان الشعور السائد بين رجال الكونجرس هو إنكار أي حقوق لهم.

ويعد عقدين من إنشائه بموجب المادة الأولى من الدستور الأمريكي، استمر الكونجرس في عدائه للمستوطنين الذين يقيمون بصورة غير قانونية في الأملاك العامة. وفي ١٧٩٦، رفع الحد الأدنى لسعر الأراضي العامة من دولار واحد للفدان المحدد في الأمر الإداري الصادر في ١٧٨٥ إلى دولارين للفدان^(٥٨). وفي ١٨٠٧، أقر الكونجرس إجراء ينص على فرض غرامات، والسجن على أي واضع يد يتقاعس عن الامتثال للقانون بمجرد إخطاره، ويبيح استخدام القوة لإبعاد المستوطنين غير القانونيين عند الضرورة^(٥٩). وفي ١٨١٢ لاحظت وثيقة للجنة المعنية بالأراضي العامة بالمجلس «أن الإستيطان غير الشرعي وغير المصرح به في الأراضي العامة يشكل في نواح عديدة اعتداء على الصالح العام»^(٦٠).

بيد أن المشكلة كانت تتمثل في أن الكونجرس كان بعيداً عن الواقع، كما هو الحال في كثير من البلدان حالياً: فلم يكن لديه مفهوم عن مقدار ضغط واضعي اليد، كما لم تكن لديه الوسائل اللازمة لفرض ولايته. وحتى المكتب العام للأراضي، الذي أنشئ في ١٨١٢، لمسح، وبيع، وتسجيل الأراضي

العامة، لم يستطع القيام بوظيفته. إذ كان على الوكالة الاتحادية الجديدة المكلفة بإثبات براءات الأرض المرسلة إليها من مكاتب المناطق، أن تشرف أيضا على إمساك سجلات الشراء الذى يتم بانتتمان. وكان واضعو القانون يأملون فى أن يعمل مكتب الأراضى كمركز للمعلومات يخدم المواطنين الذين يطلبون الحصول على أراضٍ. ولكن سرعان ما فاقت كل هذه المهام قدرة العدد الصغير من موظفيه، الذين سرعان ما تخلفوا عن أداء معظم واجباتهم^(٦١). ومثلما أوضحت باتريشيا نيلسون ليمرك، فقد أسهم أعضاء الكونجرس أنفسهم فى إثارة المشاكل لمكتب الأراضى: «فبالنيابة عن ناخبى دوائرهم، اشتكى أعضاء الكونجرس من البطء الذى يعمل به المكتب، وبالأصالة عن أنفسهم، قدم أعضاء الكونجرس طلبات كثيرة للحصول على معلومات مما التهم وقت الكتبة، ورفض أعضاء الكونجرس، بهدف التوفير وتقليل النفقات، زيادة مخصصات المكتب»^(٦٢).

وبالإضافة لذلك، كانت الموارد المالية للولايات المتحدة محدودة فى أيامها الأولى، وتعين عليها اللجوء لتقديم المنح من الأراضى لتعويض قطاعات معينة من السكان. ويعتقد كثيرون من المؤرخين، أن الحكومة شجعت الخروج على القانون ووضع اليد باتباع أسلوب إصدار «سندات بقطع صغيرة من الأرض»، والتى وصفت بأنها «المكافئ لطوابع الأغذية فى القرن التاسع عشر» - وهى أوراق يمكن استبدالها بالأرض^(٦٣). ومن ١٧٨٠ إلى ١٨٤٨، قدم الكونجرس مليونى فدان من الأرض للجنود الذين حاربوا فى الثورة، وهـ ملايين لقدامى المحاربين فى حرب ١٨١٢، و١٣ مليوناً لمن خاضوا الحرب مع المكسيك. وفيما بين ١٨٥١ و ١٨٦٠، أضاف الكونجرس ٤٤ مليون فدان أخرى لمن خدموا فى حرب الثورة، وحرب ١٨١٢، والحروب مع الهنود، والحرب المكسيكية الأمريكية^(٦٤). وعندما نظر الكونجرس الاتحادى للمرة الأولى فى سياسة سندات الأرض خلال الحرب من أجل الاستقلال، كان لهذه السياسة منطق محدد يتمثل فى أنها سمحت للحكومة الأمريكية بدفع مقابل لخدمات الضباط والجنود. كما كان الكونجرس يخشى استمرار التهديد العسكرى الذى كان يشكله السكان الأصليون للجمهورية الوليدة، سواء بمبادرة منهم أو باعتبارهم

مرتزقة للإنجليز أو الفرنسيين. وكان الهدف من توطين الجنود السابقين على الحدود هو حل كلتا المشكلتين في نفس الوقت.

بيد أنه بحلول منتصف القرن التاسع عشر، قامت سوق سوداء مزدهرة في سندات الأرض، مما أشعل وضع اليد والمضاربة على حد سواء. فمن بين كل مائة جندي حصلوا على سندات الأرض، باع أربعة وثمانون حقوقهم في السوق السوداء. وهو موقف لا يختلف عما يحدث اليوم في كثير من البلدان النامية والشيوعية السابقة، التي قدمت مساكن عامة لمجموعات معينة من المواطنين^(٦٥). ومثلما أوضح أحد المؤرخين، «لم يكن أحد يتوقع أن يشكل نصف مليون أرملة ورجل مسنّ ممن تلقوا [السندات] حاجزا أمام الغزو الأجنبي»^(٦٦).

كما منحت الحكومة الاتحادية ملايين الأفدنة من الأراضي الخالية لشركات السكك الحديدية الجديدة التي تقطع القارة جيئة وذهابا. وخلال القرن التاسع عشر، تم تسليم ما يزيد على ٢١٨ مليون فدان - تقريبا خمس الأراضي الاتحادية كافة - سواء بصورة مباشرة لشركات السكك الحديدية الخاصة، أو للولايات لتعيد توزيعها على السكك الحديدية. وكان المبرر لهذه المنح المجانية الضخمة أن ذلك سيشجع الإستيطان المنتظم على الحدود. ورغم أن قيمة كثير من الأراضي كانت قليلة، فإن نسبة كبيرة منها كانت تحتوى على معادن، أو صالحة للزراعة^(٦٧). وذهب نصيب الأسد إلى شركات السكك الحديدية الممتدة عبر القارة التي حصلت على قسم من كل قسمين على التوالي من الأرض الواقعة على امتداد مساراتها، مما خلق نمطا يشبه رقعة الشطرنج لتبادل وتعاقب الأرض الحكومية وأراضي شركات السكك الحديدية. وكان الكونجرس يعتقد أن شركات السكك الحديدية ستبيع الأراضي التي لا تحتاجها بصورة سريعة وبسعر رخيص لتشجيع الإستيطان^(٦٨). بيد أنه مرة ثانية، تعارض واقع استيطان الأرض مع آمال السياسيين. فحسبما قال أحد الباحثين، فإن ترتيب رقعة الشطرنج «أخر الإستيطان في ملايين الفدادين من أفضل الأراضي، وحجبها عن التملك»^(٦٩). بل لقد أدى في حالات معينة إلى حرب صريحة بين شركات السكك الحديدية والمستوطنين. ويورد ستيفن شوارتز تقارير عن النزاع الذي ثار في ١٨٨٠، في جنوبي وادي جواكين في كاليفورنيا، الذي كان حينذاك يسمى «موسل سلو»، عندما احتل المزارعون

ومربو الماشية أملاك شركات السكك الحديدية لكنهم لم يستطيعوا التوصل معها لاتفاق بشأن شرائها. ولم يؤد هذا فقط إلى نزاع قضائى لم يستطع حل المشكلة، وإنما لتبادل لإطلاق النار تسبب فى وفاة خمسة مستوطنين، اعترف فيه مدير الشرطة المسؤول بأنه «لم يكن متأكدا ممن بدأ بإطلاق النار». وفى افتتاحية عن الحادث، أدانت صحيفة «سان فرانسيسكو كرونكل» شركة السكك الحديدية، وذكرت «أنه أيا كانت حقوقها القانونية بالكامل، فلا يمكن إنكار أن كل مبادئ العدل فى صالح المستوطنين». وعلى أية حال، فإن القوة المادية أيضا كانت فى جانب المستوطنين، حيث رأى المسؤولون أن ترحيلهم لمكان ما، سيتطلب ما بين ٢٠٠ و ١٠٠٠ جندى متمرس^(٧٠).

ولم تستطع جهود الحكومة الاتحادية لإقامة نظام منتهج للملكية الأرض، التغلب على إرادة الناس العاديين فى تأكيد حقهم فى الممتلكات الوطنية. وقد حاج واضح ليد فصيح بقوله: «أقر بأن كل البشر المستعدين للموافقة على أى دستور يوضع فى أمريكا، لهم حق لاشك فيه للانتقال إلى كل بلد شاغر... وأن الكونجرس غير مخول لمنعهم»^(٧١). وخلال العقود الكثيرة الأولى من القرن التاسع عشر، تقابل السياسيون وواضعو اليد حول كيفية إضفاء حقوق الملكية. فبين السياسيين «ثار السؤال التالى: ما الذى يجب عمله إزاءها؟» وطالب البعض بإعطائها للجنود. وقال آخرون: لنستخدمها فى سداد الدين الوطنى. وظل آخرون ينصحون بالإبقاء عليها لاستخدامها فى المستقبل، وكان هناك من تبناوا رأى القائل بأن لكل من يرغب الحق فى الإستيطان فيها»^(٧٢).

خروج على القانون أم تعارض النظم القانونية؟

فى بداية القرن التاسع عشر، كان نظام الملكية فى الولايات المتحدة فى حالة فوضى. ولم يؤد قانون الملكية القائم والتناقض بين المشرعين إلا إلى تفاقم الأزمة التى كانت تواجه مهاجرى الأمة. ويحاج بول جيتس فى دراسته الرائعة فيما بعد عن واضعى اليد وقوانين الأرض فى فيرجينيا وكنتاكى، بأن القانون الرسمى أسهم «فى إحداث زيادة مستمرة فى تكاليف التقاضى على سندات

الملكية الخالصة، وفرز الأشخاص ذوى الإدعاءات المتعارضة، وحماية الأرض من التعدى والنهب». وكان عدم وفاء القانون الرسمى، مقترنا «برسوم المحاكم والفائدة المرتفعة على رأس المال المقترض»، يمثل تهديدا دائما لأمن الاستثمارات، وأبقى على المتقاضين فى حالة اضطراب مستمر^(٧٣).

وكما هو متوقع، فكثيرا ما كان لا يتوافر للمهاجرين الذين استوطنوا هذه الأراضى سندات رسمية بشأن ممتلكاتهم، وكان الأمر ينتهى بهم عادة إلى الاضطرار للتفاوض على سندات الملكية لا مع مالك واحد فقط بل مع اثنين من الملاك: وحتى بعد قيامهم بشراء الأرض وإدخال تحسينات عليها، كان من المرجح أن يواجهوا دعاوى طرد يقيمها آخرون لديهم حقوق سابقة على قطع الأرض هذه^(٧٤). وق لاحظ زائر أجنبى كان يجول خلال كنتاكى فى ١٨٠٢ أن كل منزل توقف عنده، أعرب المالك عن شكه فى سلامة سندات ملكية جيرانه^(٧٥).

وفيما بين ١٧٨٥ و ١٨٩٠، أصدر الكونجرس الأمريكى أكثر من خمسمائة قانون مختلفة لإصلاح نظام الملكية، الذى كان يستند بعناد على فكرة جيفرسون المثالية بوضع الملكية فى أيدى المواطنين الخاصين. بيد أن الإجراءات المعقدة المرتبطة بهذه القوانين، عرقلت عادة تحقيق هذا الهدف. ومما زاد الأمور ارتباكاً، أن الولايات فرادى طوّرت قواعدها الخاصة بالملكية وتوزيع الأرض التى أفادت وحثت إلى حد كبير الصفوة المالكة فيها فقط. ونتيجة لذلك، لم تؤد محاولات إصلاح نظام الملكية إلا إلى تفاقم الصعوبات المتعلقة بالأرض فى البلاد، فى حين جعلت المهاجرين يشعرون بالقلق لأقصى حدّ من فقد أى شىء يشبه سندات الملكية ربما يكونون قد امتلكوه. وفى تعليقه على الإصلاح فى كنتاكى، أكد أحد المعاصرين: «إن كثيرين من السكان يستمدون أمن ممتلكاتهم من هذه الفوضى... [وبالتالى] لايجرؤ كثيرون على إثبات حقوقهم، خوفاً من أن يضطروا إلى دفع تعويضات كبيرة»^(٧٦). وخلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، فإنه «مع حلّ مشاكل قديمة، ظهرت مشاكل جديدة. كانت هناك صعوبات مزمنة فى تحديد سندات الملكية... [عندما أصبحت سندات الملكية] مفهوما أكثر مراوغة من خطوط الطول، وأكثر

عدم وضوح من جذل شجرة أو جدول جار. وأصبحت سندات الملكية موضوعا مثيرا للحق ومستعصيا على العلاج مثل قانون الحيازة الملغى^(٧٧). وببساطة تامة، فإن المؤسسات القانونية للولايات المتحدة كانت قد فشلت، فى جوانب مهمة، فى أن تعالج بفعالية مشكلة تكاثر السكان المهاجرين.

وبحلول ١٨٢٠، كان نظام الملكية الأصلية فى الولايات المتحدة يشكو من الفوضى لحد أن قاضى المحكمة العليا، جوزيف ستورى، كتب: «ربما ستنتفىض عصور قبل تسوية المنازعات القضائية القائمة [على قانون الملكية الأمريكى]... وسيظل على الدوام قانونا مجهولا، له لهجات خاصة بجماعات معينة، يتعين استكشافها ودراستها، مثل النظام القضائى لبعض الدول الأجنبية»^(٧٨). ولم تفت القاضى ستورى مفارقة أن الولايات المتحدة «لم تكن مجتمعا قديما محافظا، وإنما دولة جديدة لها محيط قانونى»^(٧٩).

لقد أصبحت قوانين الولايات المتحدة مرهقة لحد أنها شغلت حجر عثرة كبيرة أمام المستوطنين الذين كانوا يريدون ضمان حقوقهم فى الملكية. ومن ثم يلفون وضعهم «كواضعى يد». ولم يترك لهم بديل سوى البدء فى تشكيل «قوانينهم» الخاصة، وبالأذات تلك المتعلقة بالملكية، بدمج القانون الإنجليزى بالتقاليد القانونية الأمريكية التى تطورت محليا مع فطرتهم السليمة. وكانت النتيجة «حشد منظم من حقوق الملكية الراسخة»^(٨٠) فى نظامين قانونيين واقتصاديين، تم تقنين وتدوين أحدهما وأدرج فى كتب النظم الأساسية، والآخر كان يعمل فى أرض الواقع. وهكذا وجدت الولايات المتحدة نفسها ولديها نظام قانونى تعددى، حدد فيه القانون غير القانونى كثيرا من الحقوق بشأن الملكية وترتيبات التملك.

ووقعت المؤسسات السياسية والقانونية بين فكى رعى التزامها بالقانون الرسمى، وتعاطفها تجاه حاجة المستوطنين لإنشاء الترتيبات الخاصة بهم. وعكس خطاب ألقاه توماس جيفرسون بصورة كاملة المشاعر المتناقضة التى شعر بها السياسيون دوما تجاه الترتيبات غير القانونية فيما بينهم. «لقد كانت [هذه الترتيبات] متعددة الأنواع، لحد أنه لا يمكن تطبيق أى من مبادئ القانون والإنصاف الراسخة لتحديدتها؛ فقد قام كثير منها على الأعراف

والعادات التي نشأت في المنطقة، وتأسست على وسائل الذبوع الخاصة بها، والتي دخلت تقريبا في كل سند ملكية بحيث لا يمكن إغفالها مطلقا»^(٨١).

جهود الدولة لرفع الناقوس الزجاجي

هكذا، توافرت للسياسيين الأمريكيين اختيارات ثلاثة. إذ كانوا يستطيعون الاستمرار في محاولة قمع أو تجاهل العاملين خارج القانون، أو أن يقدوا تنازلات وهم ناقلين، أو يصبحوا نصراء لحقوق العاملين خارج القانون. ويشير التوسع في قوانين شغل الأراضي - التي تعترف بالحقوق في الأرض استنادا للتحسينات التي يتم إدخالها عليها - في كل أنحاء الولايات المتحدة خلال الستين سنة الأولى من القرن التاسع عشر، إلى أن السياسيين أخذوا بالمدار الأخير على نحو متزايد. إن تاريخ الأخذ بقوانين شغل الأراضي في الولايات المتحدة هو تاريخ صعود العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون كقوة سياسية.

وجاءت نقطة التحول في ولاية كنتاكي الجديدة، التي كان نظام الملكية فيها، مثله مثل نظم كثير من الولايات، يشكو من فوضى تامة. فقد اشتكى حاكمها من أن الإبداعات في الأرض في الولاية الجديدة تبلغ ثلاثة أمثال مساحتها. ويحاج المؤرخ بول جيتس بأن هذا كان يرجع إلى إصدار السياسيين تشريعات تتملق الناخبين من العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون بين ١٧٩٧ و ١٨٢٠. وأسهمت هذه التدابير في «إرساء المبدأين العظيمين للإنصاف في القانون التشريعي [الأمريكي]: حق الشاغلين.. بموجب التحسينات التي أدخلوها، وحق المستوطنين في الأراضي المملوكة ملكية خاصة دون اعتراض لمدة سبع سنوات ويدفعون الضرائب عليها، في الحصول على سند ثابت وواضح للملكية، مهما كانت هناك سندات ملكية معارضة قائمة»^(٨٢). بيد أن أهمية تشريع كنتاكي لم تكن تكمن في إسهامه في العقيدة القانونية، وإنما في تعبيره عن القوة السياسية المتنامية للرواد. ومما له دلالة، أن الضغط الذي مارسه هؤلاء المستوطنون العاملون خارج القانون على المسؤولين المنتخبين

أدى بكثير من حكومات الولايات إلى رفض حكم للمحكمة العليا فى الولايات المتحدة خالف مصالح أعداد كبيرة من السكان العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون.

ففى ١٨٢١، أعلنت المحكمة أن قانون شغل الأراضى فى كنتاكى غير دستورى^(٨٣). وقد شملت القضية كلا من ورثة واحد من كبار الملاك، جون جرين، ومعه ريتشارد بيدل، وهو واضع يد استقر فى أراضى جرين بصورة غير قانونية. وكانت الأرض موضع النزاع فى الأصل فى فيرجينيا لكنها أصبحت حينذاك جزءا من كنتاكى. وفى قضية جرين ضد بيدل، قضت المحكمة العليا ضد قانون شغل الأراضى فى كنتاكى، بالإشارة إلى «قواعد الملكية الراسخة» بموجب سوابق القانون العادى الإنجليزى^(٨٤).

ولم يحاب الحكم صراحة سوى الأشخاص الذين لديهم سند ملكية قانونى فى الأرض التى يشغلونها. وحسب حكم المحكمة، فإن قانون كنتاكى «يسرى بطريقة غير عادلة وقهرية لأن المالك القانونى مجبر على دفع، ليس فقط مقابل التحسينات الفعلية التى أُدخلت على الأرض، وليس مقابل الزيادة فى قيمتها فقط، وإنما أيضا النفقات التى يتكبدها شاغل الأرض فى إجراء التحسينات المزعومة، وسواء كانت مفيدة أو وهمية فقط، أو كانت مسألة ذوق أو زينة لامتليها سوى أهوائه ونزواته»^(٨٥). وبعد إعادة النظر فى قضية جرين ضد بيدل، أكدت المحكمة مجددا فى ١٨٢٣ حكمها السابق، مؤكدة أن قوانين الشاغلين تحرم «المالك الشرعى للأرض، من الربيع والأرباح التى يحصل عليها الشاغلون».

ولام السياسيون الذين كانوا يسعون لحشد تأييد ناخبهم من العاملين خارج القانون، بيدل باعتباره «أكبر مدمر»، وأنه يثير «انزعاجا كبيرا» لأهل كنتاكى^(٨٦). ربما كانت المحكمة العليا قد غفلت عن الواقع السياسى - والقانونى - الجديد الذى طفق يتشكل فى منطقة الحدود الأمريكية الأخذة فى التوسع سريعا، لكن السياسيين الغربيين كان يتعين عليهم فقط أن ينظروا من نوافذهم ليروا مدى السرعة التى تتغير بها البلاد. وفى ذلك الوقت، كان عشرات الآلاف من المهاجرين المجتهدين قد اتجهوا غربا وهم مجهدون، قادمين من المستعمرات الأصلية الواقعة فوق جبال الأبلاش ليستقروا فى الأراضى

الخصبة العذراء في العقود الأولى من القرن التاسع عشر. كان سكان الولايات المتحدة يتضاعفون كل عشرين سنة. ففي ١٦٢٠، كان هناك بالتقريب ٥٠٠٠ مستوطن في كل أمريكا الشمالية البريطانية. وفي ١٨٦٠، زاد عدد سكان الولايات المتحدة على ٣٠ مليوناً. وكان خمسون في المائة من السكان الأمريكيين يعيشون غرب جبال الأبالاتش.

كان هؤلاء المهاجرون يودون أن تعترف المحاكم بحقهم في ملكية الأراضي التي حصلوا عليها^(٨٧). لذلك كان رد الفعل العكسي السياسي والقضائي لحكم المحكمة العليا في قضية جرين ضد بيدل في كنتاكي، يمثل انتصاراً ضخماً للعاملين خارج القانون، وسرعان ما انتقل هؤلاء إلى الهجوم. ورأى كثير من السياسيين ومحرري الصحف المحلية أن المحكمة العليا الأمريكية هي التي أصبحت تمثل «الوغد» حينذاك. وتحديث إحدى الصحف المحلية عن «السلوك الغادر» للقضاة الذي يهدد «باستئصال» حقوق «غير المقيمين والأغراب»^(٨٨). وفي خضم الغضب من سلطة المحكمة، أعلن الرجل القوي في كنتاكي، ريتشارد م. جونسون، في خطاب له أمام مجلس الشيوخ أن الحكم «سيقرب رأساً على عقب سياسة [كنتاكي] المقصودة... وأنه إذا استمر سيحدث نتائج كالكوارث، بإثارة كثير من عمليات التقاضي حول مشاكل تمت تسويتها منذ سنوات طوال، ويضع كل شيء يتعلق بالملكية الخاصة بالأراضي في حالة فوضى وارتباك كبيرة»^(٨٩). وسلم سناتور كنتاكي الآخر، والذي ربما كان أكثر نفوذاً، وهو هنري كلاي، والذي كان خصماً لمدة طويلة لتوسيع حقوق واضعي اليد بصورة ليبرالية: «بأنهم أقاموا البيوت، وزرعوا البساتين، وسوروا الحقول، وزرعوا الأرض، ونشأوا أسرهم حولها. وفي الوقت نفسه، فإن موجة تدفقات الهجرة عليها، وارتفاع قيمة مزارعهم التي أدخلوا عليها تحسينات، وقيام طلب عليها، جعلهم يبيعون لوافدين جدد بريح كبير، ويمضون لدى أبعد غرباً... وبهذه الطريقة، شرع الآلاف وعشرات الآلاف يومياً في تحسين أحوالهم وجعل ظروفهم أفضل»^(٩٠). كما أعرب حاكم كنتاكي والهيئة التشريعية فيها، كلاهما عن معارضتهما لحكم المحكمة العليا^(٩١).

ومنذ بدايتها، كانت المحكمة هدفاً أولياً لنقد السياسيين لسلطة مجموعة للصفوة من القضاة الذين لم ينتخبهم أحد. ولكن في تحول غير عادي للأحداث، رفض قضاة كنتاكي أيضاً حكم المحكمة العليا. وفي قضية مماثلة بعد ذلك بعامين، لاحظ قاض في كنتاكي أن قضية جرين ضد بيل لا يمكن الإقتداء بها، لأن القضية «حكم فيها ثلاث قضاة فقط من سبعة قضاة يشكلون المحكمة العليا للولايات المتحدة؛ وأن رأى ما يقل عن غالبية القضاة لا يمكن اعتباره أنه يرسى مبدأً دستورياً»^(٩٢). وفي ١٨٢٧، رفض قاض آخر قضية بيل، مؤكداً أن قانون مطالبات الشاغلين كان دستورياً «في قضايا أكثر من أن يستشهد بها»^(٩٣).

وفي أعقاب الغضب على قضية جرين ضد بيل، بدأ السياسيون الغربيون والديمقراطيون من شتى أنحاء البلاد ينظرون إلى الحشود المتنامية لدوائر الناخبين من واضعي اليد من منظور مختلف. فلم يعودوا المجرمين الخسيسين الذين يقشدون زبدة أراضي الأمة، بل أصبحوا «الرواد النبلاء» الذين يساعدون في تنمية البلاد. بالطبع، كانوا أيضاً ناخبين محتملين^(٩٤). وبدأ السياسيون المتعاطفون يهاجمون نظام الملكية. وأكد أحد أعضاء الكونجرس من كنساس أن «في كل أنحاء ولايته، استولى المستوطنون على الأراضي العامة، وأجروا تحسيناتهم، ودفعوا الرسوم المستحقة عليهم، وبعد ذلك أمروا بترك الأرض بدون تعويض بقرار من وزير الداخلية، لسبب أو لآخر»^(٩٥).

الجهود الاتحادية لرفع الناقوس الزجاجي

في خضم النزاع حول قضية جرين ضد بيل، كاد يظفر بالرئاسة أندرو جاكسون، وهو من أبطال حرب ١٨١٢ ضد البريطانيين ومدافع بحماس عن الرواد. وبعد ذلك بأربع سنوات، أصبح جاكسون في النهاية رئيساً. وخلال إدارته التي امتدت فترتين، ومع اختفاء آخر اشتراطات الملكية المؤهلة للاقتراع والترشيح للمناصب السياسية، ومع انتشار المدارس العامة، ومع إضفاء الولايات طابعاً إنسانياً على قوانين العقوبات وإغلاق سجون المدينين، زاد

التعاطف مع حقوق واضعى اليد. كذلك زاد عداء الرأى العام تجاه القضاة والمحامين، الذين ساد تصور بأنهم وكلاء متحمسون للأغنياء والأقوياء»^(٩٦).

وبحلول عام ١٨٣٠، أصبحت الولايات الثلاث عشرة الأصلية أربعاً وعشرين ولاية، منها سبع ولايات فى الغرب كان ممثلوها فى واشنطن ملتزمين بصورة كاملة بالسياسات التى تحابى واضعى اليد. وللظفر بدعم هذه الكتلة المتزايدة النفوذ، تنافست الولايات الشمالية والجنوبية على إظهار مدى موالاتها للغرب^(٩٧). وبدأت الولايات الغربية وواضعو اليد الذين يسيطرون على أراضيها يستعرضان عضلاتهما السياسية المتنامية، وكانت النتائج مثيرة للإعجاب. ففيما بين ١٨٣٤ و١٨٥٦، اعتمدت ميزورى، وألاباما وأركنسس، وميتشيجان، وأيوا، والميسيسبى، وويسكونسن، ومينيسوتا، وأوريجون، وكانساس، وكاليفورنيا، جميعها قوانين عن شغل الأرض مماثلة لقانون كنتاكي الذى رفضته المحكمة العليا فى قضية جرين ضد بيل^(٩٨). وحاج بول جيتس بأنه «لم يتم إسقاط حكم أصدرته المحكمة العليا على نحو كامل بهذه الصورة، نتيجة لتسريعات الولايات وأحكام محاكم الولايات، وفشل المحاكم الاتحادية فى الاستفادة من القضية، وأخيراً المرسوم الذى لم يجد اعتراضاً الذى أصدره الكونجرس والذى يمدّ تغطية المحاكم الاتحادية لتشمل الشاغلين، مثلما حدث فى قضية جرين ضد بيل»^(٩٩).

وأخيراً بدأت واشنطن تستوعب الرسالة. ففى حين أنه فى ١٨٠٦، لامت لجنة الأراضى العامة واضعى اليد على الصعاب التى يلاقونها، فإنه بحلول عام ١٨٢٨، كانت هذه اللجنة نفسها تخطر مجلس النواب بأن واضعى اليد الأمريكين قدموا خدمة عامة قيّمة يستحقون عنها التعويض^(١٠٠)، وأصبح واضع اليد الذى كان من قبل شخصاً مروعاً، «إنساناً أنشأ بمبادرته وحكته لنفسه ولاسرتة منزلاً فى البرية [و] يستحق المكافأة. لقد وقرّ التسهيلات اللازمة لبيع الأراضى العامة، ووضع موضع المنافسة أراضى لم تكن بغير هذا تستحق ثمناً، ولم يكن أحد ليتقدم بعرض للحصول عليها، إلا بعد أن يدخل تحسيناته عليها»^(١٠١).

وبدأ أعضاء الكونجرس يقدمون مشاريع تشريعات تمهد الطريق لاستيعاب ترتيبات المستوطنين فى النظام القانونى^(١٠٢). وكان فى القلب من ذلك، الأداة القانونية التى شكلت وسيلة الخلاص لوضاعى اليد خلال الفترة الاستعمارية (والتي عارضها الكونجرس الأمريكى بعناد)، ألا وهى حق الشفعة. وفى ١٨٣٠، أقرّ ائتلاف من أعضاء الكونجرس من الغرب والجنوب قانون الشفعة العام، الذى ينطبق «على كل مستوطن أو شاغل للأراضى العامة... الذى يحوزها حينذاك، ويزرع أى جزء منها فى العام ألف وثمانمائة تسعة وعشرين»^(١٠٣). وكان فى مقدور واضع اليد أن يطالب بمائة وستين فدانا من الأرض، بما فى ذلك الأراضى التى أدخل عليها تجسينات، مقابل ١,٢٥ دولار للفدان. وكان مطلوباً الدفع قبل طرح الأرض فى المزاد العام، وتم منع نقل أو بيع حقوق الشفعة بصورة قاطعة.

وفى السنوات ١٨٣٢، و١٨٣٨، و١٨٤٠، جدّد الكونجرس قانون الشفعة العام الصادر فى ١٨٣٠. وحاول فى كل مرة تدعيم حقوق أصغر واضعى اليد، فى حين حاول القضاء على بعض أوجه إساءة استغلال مبدأ الشفعة. فعلى سبيل المثال، خفض قانون ١٨٣٢ الحد الأدنى من مساحة الأراضى التى يتعين على واضع اليد شراءها من ١٦٠ إلى ٤٠ فدانا.

ويحلول عام ١٨٤١، كان مبدأ الشفعة قد أصبح راسخاً بصورة ثابتة، لدرجة أن الكونجرس أصدر قانوناً عاماً للشفعة يسرى على المستقبل. ولم يشمل مرسوم ١٨٤١ واضعى اليد القائمين فحسب، وإنما شمل «كل شخص... يقوم بعد ذلك بالاستيطان على الأراضى العامة»^(١٠٤). وكان يتعين مسح الأرض التى تم الإستيطان بها، ولكن حتى هذا الحكم تم تجاهله فى النهاية^(١٠٥).

الجهود غير القانونية لرفع الناقوس الزجاجى

قام كثيرون من واضعى اليد، المعزولين عادة من الناحية الجغرافية عن المناقشات السياسية والدستورية بشأن الملكية، بكل ما فى وسعهم لتأمين الأرض التى يشغلونها؛ بل لقد دفع بعضهم ثمن نفس قطعة الأرض مرتين، فى

حين دفع آخرون للمحامين أتعاباً ضخمة لمساعدتهم فى جعل ملكيتهم للأرض قانونية^(١٠٦). ولم تتوافر للكثيرين الوسائل اللازمة لتغطية تكاليف النظام القانونى الرسمى، ومن ثم أنشأوا ترتيباتهم غير القانونية الخاصة، وبذلك خلقوا مسالك جديدة للحصول على الملكية وحيازتها على الحدود الأمريكية. وفى جميع الأغراض العملية، أخذوا القانون بين أيديهم - وأجبروا المؤسسة القانونية على أن تتبع خطاهم. واقتضى الأمر مرور بعض الوقت، قبل أن يستيقظ السياسيون على حقيقة أنه إلى جانب القانون الرسمى، تشكلت عقود اجتماعية غير قانونية من أجل الملكية، وأصبحت تمثل جزءاً أساسياً من نظام حقوق الملكية فى البلاد. ولإقامة نظام قانونى شامل يمكن تطبيقه عبر البلاد كلها، كان عليهم استيعاب الطريقة التى كان الناس يحددون بها حقوق الملكية ويستخدمونها ويوزعونها.

وهناك مثالان مهمان يفيدان فى توضيح ظهور المنظمات غير القانونية لحماية حقوق الملكية التى تم الحصول عليها بصورة غير رسمية: جمعيات الحقوق المدعى بها التى تكاثرت فى كل أنحاء الغرب الأوسط الأمريكى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، ومنظمات القائمين بالتعدين التى اكتظ بها الغرب الأمريكى بعد اكتشاف الذهب فى كاليفورنيا. ويرى كثيرون من المؤرخين الأمريكيين أن جمعيات الحقوق المدعى بها، ومنظمات القائمين بالتعدين، كانتا تمثلان «تجسيداً لقدرة الإنسان الذى يعيش على الحدود على العمل الديمقراطى»^(١٠٧). وحاج آخرون بأن هذه المنظمات عملت «كستار من دخان لإخفاء سرقة الأراضى من الملاك حسن النية»^(١٠٨). وليس هذا موضع بحثى، ذلك أن ما يهمنى عن جمعيات الحقوق المدعى بها ومنظمات القائمين بالتعدين هو أنها تبين أن المجموعات التى لا تتمتع بحماية القانون لعبت دوراً مهماً فى تحديد حقوق الملكية فى الولايات المتحدة وزيادة قيمة الأرض. ورغم أن واضعى اليد هؤلاء كانوا من الناحية الفنية متعدين على حرمة الملكية، إلا أنهم امتلكوا على حد تعبير المؤرخ دونالد بيسانى، «عقلية قانونية ترسخت جذورها فى الاعتقاد بأن... «الناس» حقا فى تحديد القواعد وتفسيرها أكبر من حق خبراء القانون»^(١٠٩). وتحقيقاً لهذه الغاية، قامت المنظمات غير

القانونية بدائرة واسعة من الوظائف، من التفاوض مع الحكومة إلى تسجيل الملكيات والحقوق التى يدعى بها واضعو اليد.

جميعيات الحقوق المدعى بها

فى الأصل، شكّل المستوطنون جميعيات الحقوق المدعى بها فى الغرب الأوسط الأمريكى لحماية حقوقهم ضد المضارين والمغتصبين ذوى الإدعاءات غير الصحيحة. فعلى سبيل المثال، وافقت جميعتان للحقوق المدعى بها فى أيوا، فى دساتيرهما، على [حماية حقوق كل عضو مدع بالملكية لفترة سنتين] بعد بيع الأرض^(١١٠). ولاحظ الآن بوج أن «واضع اليد كان فى مقدوره أن يتوقع أن يهبَ رفاقه فى النادى لمساعدته إذا هُذِّدَ مغتصبو الحقوق المدعى بها بحياته... وأن أصدقاء سيدحرون المضاربين الذين قد يسعون لإخراجه من المزارد على الأرض عن طريق المغالاة»^(١١١). ولاحظ مؤرخ محلى فى أيوا أنه «عندما يستقر مستوطن فعلى - شخص يريد أرضا لبناء منزل ولكى يشغلها فوراً... على جزء من الملكية العامة [الجمعية ما]، تتصدى له فوراً كلاب الحراسة، ويطلب منه إما أن يتخلى عن ادعائه أو يدفع لهم مقابل ما يؤكدون أنه حقهم». وإذا «أعرب المستوطن عن شكه فى أن لهم حقوقاً مدعى بها سابقة على موقعهم، فإن [جمعية الحقوق المدعى بها] يكون لديها دائماً شاهد أو أكثر جاهزين للشهادة بصحة المصلحة التى يدعونها»^(١١٢).

وكانت هذه الجمعيات توفر عدالتها الصارمة والبدائية الخاصة. وقد سأل وزير محلى ذات مرة أحد أعضاء جمعية ما عما سيحدث إذا نجح أحد مغتصبى الحق المدعى به فى شراء ما يدعيه. ورد واضح اليد، «لماذا، سأقلته؛ ويحكم اتفاق المستوطنين، ستنتم حمايتى، وإذا حوكت لن يجرؤ أى مستوطن إذا اختير ضمن المحلفين، على إدانتى»^(١١٣). بيد أنه فى الغالب الأعم، كانت جميعيات الحقوق المدعى بها توفر على الأقل وهم اتباع العمليات السليمة - بعقد اجتماعات للمحلفين - من الزملاء واضعى اليد - للفصل فى قضايا

مغتصبى الحق المدعى به. وفى إحدى مقاطعات أيوا، تم اقتياد مغتصب حق مدعى به، حاول أن يشغل قطعة أرض شاغرة يملكها عضو فى جمعية الحقوق المدعى بها، «خلال ساعة»، بواسطة «عدد لا يحصى من الرجال المتجهمين الغاضبين» أمام هيئة محلفين من المستوطنين^(١١٤).

لكن وظيفة جمعيات الحقوق المدعى بها امتدت أيضا إلى ما وراء الحماية ضد الطرف الثالث، لتستمر طوال الطريق إلى القانون الرسمى. فعلى سبيل المثال، فإن أعضاء الجمعيات، «وهم عادة من واضعى اليد الذين كانوا أول من استحوذوا على الأرض فى منطقة ما، وافقوا على عدم المزايدة على بعضهم البعض فى مزايدات الأرض، ومنع الآخرين من المزايدة على أعضاء [الجمعيات]»^(١١٥). وبصراحة تصف ديباجة دستور إحدى جمعيات الحقوق المدعى بها مهمتها بأنها:

فى حين أننا أصبحنا بتصديق من الحكومة مستوطنين لأراضيها، وأنفقنا وقتنا ومالنا فى تحسينها، فإننا نعتقد ويعدل أن من حقنا شرائها بالثمن العادى. وفى حين أنه قد يكون هناك أشخاص مستعدين للتدخل فى حقوقنا، وبذا يخلقون جوا من عدم الثقة، والإثارة والشعور بالخطر: لذلك فقد استقر عزمنا على أن السلامة فى حالتنا، لا تتحقق إلا بالاتحاد - والتصميم على التسوية الودية لأى منازعات بيننا، وأن نتبادل الامتيازات، وأن نتغاضى كل شىء، قد يكون له اتجاه لخلق عدم الثقة والإثارة - وأن نبقى صراحة مع حراس اللجان العديدة، وأن ندافع عنهم فى القيام بالواجبات الموكولة إليهم^(١١٦).

وهذه الوثيقة صارخة بشكل خاص فى تشابهها مع «عقود الاستيطان» التى أبرمتها مجموعات واضعى اليد عبر كثير من أنحاء العالم الثالث اليوم. لقد وضعت كل جمعية دستورها الخاص وقانونها الداخلى وانتخبَت المسؤولين فيها، ووضعت قواعد لفض المنازعات، وحددت إجراء لتسجيل الإدعاءات بالملكية وحمايتها^(١١٧). فعلى سبيل المثال، نص دستور جمعية مقاطعة جونسون، فى أيوا، على اختيار رئيس ونائب رئيس وكاتب ومسجل: وعلى انتخاب سبعة قضاة، أى خمسة منهم يستطيعون تشكيل محكمة

وتسوية المنازعات؛ وانتخاب مسؤولي شرطة مكلفين بإنفاذ قوانين الجمعية؛ والإجراءات التي تحدد حقوق الملكية في الأرض^(١١٨). وحسبما يقول آلان بوج، وهو مؤرخ «نوادى الحقوق المدعى بها» هذه في أيوا، فإن معظم «اللوائح كانت تغطي حجم الحقوق المدعى بها المسموح بها؛ وتوجيه من أجل تمييز حقوق الملكية المدعى بها وتسجيلها ونقلها؛ والإجراء الذي يتعين اتباعه عندما يتنازع أعضاء الجمعية على الحقوق مع بعضهم البعض، وعندما يهدد مغتصبو الحقوق المدعى بها الأعضاء، وعندما يحلّ تاريخ بيع الأرض»^(١١٩).

وقد عملت عقود التسوية الخاصة بالجمعيات بوضوح على زيادة قيمة الأرض التي يطالب بها واضعو اليد. وفي مقاطعات باوشيك وجونسون وويستر في أيوا، وضعت الجمعيات مشروعات محددة «للوائح تحدد درجة التحسين التي ينبغي أن يدخلها العضو على الأرض التي يطالب بها»^(١٢٠). كما أرست الجمعيات حدودا عليا ودينا لحجم الحق المدعى به المطلوب حمايته، وسمح معظمها للأعضاء ببيع الحقوق المدعى بها، بغية تحديد قيمة ملكيتهم. بيد أن أعضاء كثيرين «لم يكونوا راضين بمقدار الأراضي الذي يخوله لهم القانون، وقدموا ادعاءات مزعومة في نسبة جدّ كبيرة من الأراضي بحيث كان من الصعب في بعض الحالات على المشتري أن يجدوا قطعة أرض لإطالب بها أحد»^(١٢١). وحظيت هذه الممارسة بمساندة ضمنية من كل أعضاء الجمعيات. وعلى الرغم من أن أعضاء الجمعيات أدانوا كبار المضاربين، فقد كانوا هم أنفسهم، مثلما أوضح بوج، «من صغار المضاربين»^(١٢٢). لقد كانت هذه الجمعيات في التاريخ الأمريكي أكثر من مجرد خطة لحماية المسكن وما حوله من أرض؛ فقد استخدمت أيضا لحماية المهنة في مجال الحقوق المدعى بها^(١٢٣).

وهكذا ساعدت هذه الجمعيات في إنشاء «نوع من القانون العادي... الذي تم وضعه بالاتفاق المشترك، والضرورة المشتركة»^(١٢٤). ومثلما أوضح أحد مؤرخي المستوطنين، فإنه «على الرغم من أن قانون الحقوق المدعى بها ليس قانونا مستمدا من الولايات المتحدة، أو من كتاب النظام الأساسي للبلاد، فإنه رغم ذلك هو القانون الذي صنعه أصحاب السيادة أنفسهم واستمد منهم، وولايته حتمية»^(١٢٥). بيد أن المستوطنين لم يستغنوا عن القانون الرسمي بشكل

كامل. فقد عملت ترتيباتهم غير القانونية كاستراحة مؤقتة على طريق احترام القانون.

منظمات القائمين بالتعدين

فى ٢٤ يناير ١٨٤٨، اكتشف جيمس مارشال ومجموعة من الهنود والمورمون الذهب على امتداد النهر الأمريكى فى كاليفورنيا. وعلى الرغم من أن القائمين بالتعدين أقسموا على الحفاظ على السرّ، فإنه خلال أربعة أشهر، وصلت أخبار اكتشافهم إلى صحف سان فرانسيسكو. و«آثار» هذا الاكتشاف «ربما ما كان يشكل أكبر هجرة إنسانية طوعية فى التاريخ العالمى فى ذلك الوقت، فى اندفاعة إلى كاليفورنيا من أجل الذهب»^(١٢٦). وكان الأثر المباشر لذلك عميقا: «فقد ترك المزارعون محاربتهم فى الحقول. وفرّ الجنود والبحارة من الخدمة. وهجر أصحاب الحوانيت أعمالهم. وبين عشية وضحاها أصبحت سان فرانسيسكو مدينة الأشباح»^(١٢٧). وخلال عام واحد، كان هناك ١٠٠ ألف من العاملين بالتعدين فى كاليفورنيا؛ وبعد ذلك بعامين كان يوجد ٣٠٠ ألف منهم.

وعندما اندفع هؤلاء المنقبون المفعمون بالأمل إلى كاليفورنيا ليثروها، «لم يجدوا أسوارا ولا احتكارات للمساحين»^(١٢٨). ومع ذلك، فقد كانوا من الناحية القانونية متعددين؛ حيث كان معظم الأراضى التى كانوا يتقنون فيها محل مئات المصالح المتضاربة^(١٢٩). وفى زمن هوجة الذهب، كانت الحكومة الاتحادية تملك معظم الأراضى، وكان ما يصل إلى ٩ فى المائة من مساحة كاليفورنيا الكلية مشمولا بمنح الأراضى المكسيكية، فى حين كان قدر كبير من الباقى صحارى وجبال، أو غير ذلك مما لا يمكن الوصول إليه^(١٣٠). وعلى الرغم من حقيقة أن الحكومة الاتحادية كانت - كما رأينا - تتخض عن فئات من النظم الأساسية واللوائح التى تنظم استخدام الأرض، فلم يكن فى الولايات المتحدة قانون ينظم بيع أو إيجار الأراضى الاتحادية التى تحوى

معادن ثمينة^(١٣١). وبالإضافة لذلك، استبعد الكونجرس صراحة «أراضى المناجم» من قانون الشفعة العام الصادر فى ١٨٤١.

لقد خلقت السلسلة المترابطة القابلة للاشتعال من منح الأراضى المكسيكية، والملأك الغائبين، والمستوطنين المتعطشين للأرض، وعدم وجود قانون اتحادى يمكن إنفاذه، حاجة مباشرة للترتيبات غير القانونية. وكان مؤرخون مثل بيسانى يعتقدون أنه لم يكن أمام المستوطنين خيارات كثيرة. فإذا «استقروا على أراض عليها حقوق مكسيكية مدعى بها بأمل رفضها، كانوا يواجهون احتمال فقد تكاليف التحسينات التى أجروها. ولكن إذا اشتروا الأرض من صاحب حق مدعى به، يتم تعديل حدوده بعد ذلك، أو يتم رفض طلبه بعد ذلك، فقد يفقدون تكلفة الأرض وكذلك قيمة التحسينات التى أجروها»^(١٣٢). وفى حين وضع المستوطنون ترتيباتهم الخاصة، حاولت الحكومة إيجاد حلٍ يستند إلى القانون الرسمى القائم. والمشكلة أن الحكومة كانت جدً بطيئة. وفى ١٨٥١، أقام الكونجرس لجنة للحكم على سلامة منح الأراضى المكسيكية والأسبانية. ورغم أن ولاية اللجنة الرسمية استمرت حتى ١٨٥٦، فإن المحاكم والمكتب العام للأراضى أجلا اتخاذ إجراءات لما بعد ذلك بسنوات. وكانت النتيجة هى أنه كان يتعين على المستوطنين أن يعتمدوا على نحو متزايد على قانونهم غير القانونى للحفاظ على شكل ما من النظام. وقد اضطروا لذلك لأنه على حد تعبير أحد المؤرخين القانونيين، «كلما استطل أجل عملية إثبات الحق، زادت فرص التقاضى والعنف»^(١٣٣).

ومثل واضعى اليد المنتمين لنوادى الحقوق المدعى بها فى الغرب الأوسط، كان لدى القائمين بالتعدين سابقتان إلى جانبهم: حق الشفعة، وحق الشاغلين فى التحسينات الى أجروها^(١٣٤). ولذلك شكلوا تنظيمات تحكم حقوقهم غير القانونية، وتحديد التزامات القائمين بالتعدين فرادى تجاه الأراضى التى غزوها. وعرفت عقود الاستيطان هذه باسم «تنظيمات مناطق التعدين». وكان القائمون بالتعدين يعرفون أنهم إذا صاغوا لوائحهم بحرص، مع أكبر مراعاة ممكنة للقانون القائم، فإنه سيتعين على الحكومة، عاجلا أو آجلا، أن تصل لاتفاق معهم.

ولم يترك القائمون بالتعدين مجالا كبيرا للمصادفة والحظ. فقد تضمن معظم تنظيمات مناطق التعدين بصفة عامة تسع مراحل متميزة: الأولى، يقدم القائمون بالتعدين إخطارا أو يدلون بإعلان في اجتماع جماهيري حاشد في موقع معروف جيدا لتكوين منطقة جديدة. الثانية، فإن البند الأول في جدول الاجتماع، هو أن يعيّن القائمون بالتعدين حدود ونطاق المنطقة ويطلقون عليها اسما (عادة سمة جغرافية ما في المنطقة، أو صاحب حق مدعى به مطروح، أو تكريما لرجل نظم المنطقة). الثالثة، يضع القائمون بالتعدين قيودا على الملكية بالنسبة لعدد الحقوق المدعى بها حسب الموقع والشراء. وفي معظم مناطق التعدين، كان يسمح بالطبع لمكتشف عرق معدنى جديد بحق مدعى به مزدوج، في حين يسمح للآخرين بحق واحد لكل شخص. ولم يكن هناك حدّ على الحقوق التى يمكن شراؤها، بشرط أن يتم الشراء «بحسن نية بالنسبة لإيلاء اعتبار مهم للصبوك المسجلة وشهادات الملكية التى يصدرها المسجل».

الرابعة، قصر العضوية فى مناطق التعدين والحقوق الممنوحة على مواطنى الولايات المتحدة، أو أولئك المخولين بموجب القانون القائم لأن يصبحوا مواطنين. وهكذا، ثم بصفة عامة استبعاد المكسيكيين والآسيويين بسبب الأحكام العنصرية المسبقة فى ذلك الوقت. بل لقد وجه الاتهام للقائمين بالتعدين المكسيكيين أو الآسيويين بأنهم لم يسهموا «بشئ» فى ازدهار الناس الذين استولوا لأنفسهم على ثرواتهم التى اكتسبوها بشق الأنفس»، وأنهم يشكلون خطرا على أخلاق «الشباب [الأمريكى] وهم الشباب الذين لم تؤثر فيهم بيوتهم». الخامسة، حددت اللوائح أبعاد حق التعدين المدعى به نفسه من ١٥٠ إلى ٣٠٠ قدم طولاً بالنسبة للحقوق المدعى بها الكبيرة، إلى حجم جاروف القائم بالتعدين بالنسبة لعمليات الحفر الصغيرة. وقد أعطى حق الطريق على كل من جانبي الحق المدعى به لإقامة الأنفاق والحفر على أى مسافة طالما أنها لا تنتهك حقوق الجار. السادسة، أرست اللوائح مبادئ توجيهية لكيفية تحديد القائمين بالتعدين لحدود حقوقهم المدعى بها. وكانت المطالبة بالحق المدعى به تبدأ عادة بتقديم إخطار مؤرخ بالحق مع ذكر أسماء المستقرين فى المكان، والمنطقة، والمقاطعة.

السابعة، حددت اللوائح إنشاء مكتب المسجل، حيث يتم الاحتفاظ بالسجلات الرسمية للمنطقة، وبيّنت كيفية تسجيل الحقوق المدعى بها. وكان يتم انتخاب المسجلين لمدة عام عادة. بل والأكثر أهمية، أن اللوائح طالبت القائمين بالتعدين «بتقديم ملفات إخطاراتهم بالعمل إلى المسجل خلال مدة تمتد من خمسة أيام إلى ثلاثين يوما من تقديم إدعاء الملكية، ومطالبة المسجل بإمسك دفاتر لمثل هذه الملفات، وكذلك تسجيل نقل سندات الملكية داخل المنطقة». الثامنة، حددت اللوائح اشتراطات تنمية الحقوق المدعاة بالنص على «زمن، ومدى، وطبيعة» العمل الذى يتعين القيام به بغية حيازة الحق المدعى به. «وكانت عقوبة عدم الامتثال على الدوام هي إمكانية المصادرة». وأخيرا، حددت اللوائح نظاما لحل المنازعات^(١٣٥).

وإذ واجه القائمون بالتعدين فراغا قانونيا فى قانون التعدين الاتحادى، فقد أقاموا ببعض الفطنة القانونية، نوعان من قانون التعدين كبديل مؤقت. وبالتفاوض فيما بينهم، عملوا على حماية حقوقهم وزيادة قيمة ممتلكاتهم إلى أن تستطيع الحكومة الشروع فى التصديق على سلامة حقوقهم المدعى بها. ولم يكن إنشاء حقوق ملكية من خلال وسائل غير قانونية أمرا نادرا. إذ كان العمل خارج القانون - كما هو حاليا فى العالم الثالث - منتشرا. وفى السنوات التالية مباشرة لاكتشاف الذهب، كان فى كاليفورنيا ثمانمائة سلطة قضائية مستقلة، لكل منها لوائحها الخاصة^(١٣٦). وكانت كل سلطة تحصل على مشروعيتها الأولى وقوتها من توافق آراء أعضائها. ويلاحظ المؤرخ تشارلس هوارد شين أنه «لم يُفرض أى الكالد [عمدة]، أو أى مجلس، أو أى قاض للصالح، على منطقة ما من قبل قوة خارجية. فقد كانت المنطقة هي وحدة التنظيم السياسى، فى كثير من الأقاليم، بعد زمن طويل من إقامة الولايات؛ وكان المندوبون من المناطق المجاورة يجتمعون للتشاور بشأن الحدود، أو شؤون الحكم الحلى، ويقدمون تقارير إلى ناخبهم فى اجتماعات مفتوحة، على سفح تل أو شاطئ» نهر^(١٣٧).

وأيد معظم السياسيين مطالب القائمين بالتعدين، وشرعت المحاكم فى إقرار ترتيباتهم غير القانونية. وفى ١٨٦١، علق قاض من محكمة كاليفورنيا العليا على

مشروعية الترتيبات غير القانونية للقائمين بالتعدين في قضية جور ضد ماكبراير: يكفي أن يوافق القائمون بالتعدين - سواء في اجتماع عام، أو بعد إخطار مناسب - على قوانينهم المحلية، والاعتراف بهذه القوانين باعتبارها قواعد للجوار، مالم يظهر فيما بعد أنه كان هناك غش، أو سبب آخر مماثل لرفض القوانين»^(١٣٨).

وكان هناك سبب لسهولة قبول تنظيمات مناطق القائمين بالتعدين، هو أن مشروعاتها كانت توضع عادة على أساس مبادئ وأفكار وإجراءات لا تختلف كثيرا عن تلك الواردة في القانون الرسمي. ويوضح لاسي أن لوائح المناطق «عكست الحكمة والأعراف المتراكمة... لجمع القصدير الذي كان يضم أصحاب مناجم القصدير في كورنوال؛ وممارسات منطقة هاى بيك ومحكمة بارموت في ديربيشاير؛ وتنظيم وممارسات بورجرمايستر في ساكسوني؛ [والقوانين الكولونيالية] الأسبانية لنواب الملك في أسبانيا الجديدة وبيرو؛ وبعض ممارسات مناطق التعدين في حزام الرصاص في ميزوري»^(١٣٩). فعلى سبيل المثال، «عندما يتقدم أحد القائمين بالتعدين بحقه المدعى به وفق قواعد وأعراف التعدين، فإن الملكية الفعلية لجزء له تخوم محددة من الحق المدعى به، تعطيه حق الملكية في مجموع الحق المدعى به. ويبدو هذا أكثر قليلا من مجرد تطبيق [لجانب] من قانون التملك المناوي»^(١٤٠). وقد ناقش أحد محامى القائمين بالتعدين كيف كان قانونهم موازيا لنظام حقوق الملكية الرسمي، وكيف أدى إلى تبسيطه:

في ظل قانون القائمين بالتعدين، فإن محتل الموقع هو مسؤول التنفيذ الخاص بنفسه، وذلك فيما يتعلق بالاستيلاء على الأرض، ومنح نفسه سند ملكية، وتعيين الحدود، وإعلان نفسه مالكا... والإخطار بيد للطلب المكتوب؛ ويحقق وضع علامات للحدود غرض المسح؛ وقانون التعدين هو الإمتياز، والتسجيل لدى المسؤول المحلي هو الإثبات والتسجيل. والمسؤول الوحيد المنوط به الأمر هو الجمهور العام، الذي يمثله القائمون بالتعدين، والذي يعد قانونه قانونا صارما لايعرف التساهل^(١٤١).

وقد ملأ هذا الدمج بين النماذج القانونية القائمة، والنماذج غير الرسمية، فراغ القانون الرسمي في أراضى التعدين الشاسعة في أمريكا - مثلما تفعل

منظمات واضعى اليد حاليا فى العالم الثالث. وخلال خمسينيات القرن التاسع عشر، لم يبذل الكونجرس جهدا لتولى أمر موارد التعدين الغربية. ويعتقد المؤرخون أنه ربما راق نجاح القائمين بالتعدين فى الحكم الذاتى للفلسفة السياسية السائدة حينذاك، أو ربما كانت الأمة مشغولة أكثر من اللازم بقضية العبودية وخطر انفصال الولايات الجنوبية^(١٤٢). وربما سلم رجال القانون بين المشرعين فى الولايات المتحدة ببساطة بعملية صنع القانون الجيدة عندما رأوها. بيد أن هناك أمر واضحا هو: أن الافتقار إلى التحرك من جانب الكونجرس لم يؤد إلا إلى زيادة مصداقية العقد الاجتماعى الذى لم يستنبطه القائمون بالتعدين فحسب، بل جعلوه مجديا أيضا^(١٤٣).

بيد أنه بحلول ستينيات القرن التاسع عشر، اضطرت الحرب الأهلية، والحاجة إلى أموال لخوضها، وشواغل المستثمرين فى كاليفورنيا ونييفادا وكولورادو، الكونجرس إلى النظر فى دمج الآلاف من قوانين التعدين فى نظام متكامل. ولعبت شواغل المستثمرين بشأن سندات ملكية الأرض دورا بارزا فى هذا النقاش. ولاحظ أحد المعاصرين أنه نظرا للافتقار إلى نظام معيارى لسندات الملكية، «لم يكن الرأسماليون راغبين فى إنفاق أموالهم فى حفر مداخل ومهابط مكلفة للمناجم، وتركيب الآلات وإقامة المباني، لاختبار عرق معدنى، يمكن بموجب قانون القائمين بالتعدين تقسيمه من الباطن إلى ما لا نهاية حسب ثرائه»^(١٤٤). وبدأت الحكومة الاتحادية بشكل جاد تنظر فى الطرق التى يمكن بها تنظيم التعدين فى الأراضى الاتحادية^(١٤٥). وحسبما قال لاسى، كان أحد الشواغل الأساسية لأعضاء الكونجرس من الغرب يتمثل فى «الضجة المثارة بشأن تأمين سندات الملكية، والقدرة على شراء أراضى التعدين بسعر معقول»^(١٤٦).

وفى ١٨٦٦، أعلن الكونجرس رسميا لأول مرة أن أراضى التعدين فى البلاد مفتوحة أمام المواطنين الأمريكيين للتنقيب فيها - بعد ثمانى عشرة سنة من قيا مئات الآلاف من القائمين بالتعدين للمرة الأولى بالتنقيب عن الذهب فى الأراضى الاتحادية فى كاليفورنيا. وأعلن نظام ١٨٦٦ الأساسى صراحة أن كل عمليات التنقيب عن المعادن يجب أن تخضع لتلك «الأعراف والقواعد

المحلية للقائمين بالتعدين فى مناطق التعدين العديدة»، والتي لا تتعارض مع قوانين الولايات المتحدة^(١٤٧). لم يكن هدف القانون هو تدمير حقوق نشأت بصورة غير قانونية، وإنما تدعيمها «ببعض اللوائح الحكيمه فيما يتعلق بطريقة حيازتها وتشغيلها، والتي لا تتعارض مع قوانين التعدين القائمة، وإنما تضى ببساطة تجانسا واتساقا على النظام بأسره»^(١٤٨). وكان هناك جانب مهم آخر لقانون التعدين الأول هذا هو أن «جوهر القانون نبع مباشرة من لوائح التعدين الوفيرة لمنطقة التعدين فى وادى العشب فى مقاطعة نيفادا بكاليفورنيا... ومنطقة التعدين فى وادى الذهب فى مقاطعة ستورى بنيفادا»^(١٤٩). وفى إصداره للقانون، ذهب الكونجرس إلى حد الإشادة بالعبقريه الأمريكيه فى إنشاء ترتيبات غير قانونية:

والعنصر الأساسى أن هذا النظام العظيم الذى شاده الناس بقدراتهم وصفاتهم الأولية، والذى يتبدى فى أرقى شهادة عليه فى العبقريه الخاصه للشعب الأمريكى فى تأسيس إمبراطوريه ونظام، سيتم الحفاظ عليه وترسيخه. وتتبدى السيادة الشعبيه هنا فى واحد من أعظم مظاهرها، وهى ببساطة لانهيب بنا أن ندمرها، وإنما أن نضى عليها طابع القوة الوطنيه والسلطة التى لا منازع فيها^(١٥٠).

وهكذا، فإن تشريع ١٨٦٦ لم يعترف فقط بمشروعيه العقود الاجتماعيه التى نشأت خارج القانون الرسمى، وإنما أدمج أيضا المبادئ، والحقوق التى ظفر بها المستوطنون من خلال حق الشفعة والحقوق المدعى بها فى الإستيطان. كما مدّ القانون حقوق براءة التملك لأى شخص أو رابطة أنفقت ١٠٠٠ دولار فى العمل وفى تحسين الحق المدعى به، سواء تم مسحه أم لا. وكان هذا اعترافا صريحا بأن القيمة المضافه للأصول، أمر يقتضى أن يشجعه القانون ويحميه.

وفى ١٠ مايو ١٨٧٢، أصدر الكونجرس قانون التعدين العام، الذى يحدد إطارا رسميا أساسيا لقانون التعدين الأمريكى الذى استمر حتى اليوم. وقد احتفظ هذا القانون بأهم مبدئين فى قانون ١٨٦٦: الاعتراف بقوانين القائمين بالتعدين، وحق أى شخص يدخل تحسينات على منجم ما فى شراء سند

ملكية من الحكومة بسعر مناسب^(١٥١). وخلال فترة قدرها عشرين عاما، اندمجت حقوق وترتيبات القائمين بالتعدين التى نشأت بصورة غير قانونية فى نظام رسمى جديد. وحتى المحكمة العليا التى أثار عداؤها للحقوق غير الرسمية رد فعل مناصر لواضعى اليد، أكدت مجددا سلامة قانونى التعدين الاتحاديين الصادرين فى ١٨٦٦ و ١٨٧٢ فى قضية جنيسون ضد كيرك. فوفق ما أعلنته المحكمة، فإن النظامين الأساسيين «أضفيا تصديق الحكومة على حقوق التملك المكتسبة بموجب الأعراف والقوانين المحلية وأحكام المحاكم... [و] اعترفا بالتزام الحكومة باحترام الحقوق الخاصة التى استقرت فى ظل موافقتها ورضائها الضمنيين. ولم تقترح أى نظام جديد، وإنما صادقت على ونظمت، واعترفت بنظام راسخ بالفعل، ارتبط به الناس»^(١٥٢). وبحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، تم إدماج قواعد وأعراف مناطق التعدين غير القانونية فى نظام احد متماسك من قوانين الملكية الرسمية^(١٥٣).

* * *

فى نهاية القرن التاسع عشر، كان السياسيون والقضاة الأمريكيون قد قطعوا شوطا طويلا فى ميدان قانون الملكية - وكان واضعوا اليد هم الذين قادوهم فى هذا الاتجاه. ويصدق هذا أيضا على الإسكان: ففى ١٨٦٢، عندما أصدر الكونجرس «قانون هومستيد» الشهير، والذي أعطى ١٦٠ فدانا خالية لأبى مستوطن يرغب فى العيش على الأرض لمدة خمس سنوات وتعميرها، كان ذلك مجرد تصديق عما كان المستوطنون يفعلونه عمليا بأنفسهم^(١٥٤). ورغم الشهرة الأسطورية للقانون، فإن معظم المستوطنات قام قبل إصداره. «وفى ما بين ١٨٦٢ و ١٨٩٠، نما سكان الولايات المتحدة بمقدار ٢٢ مليون نسمة - ولكن نحو مليونين فقط منهم استقروا فى ٣٧٢٦٤٩ مزرعة مدعى بالحق فيها من خلال قانون هومستيد»^(١٥٥). وفى الوقت الذى اعتمد فيه الكونجرس القانون بصورة نهائية، كان لدى المستوطنين بالفعل بدائل قانونية كثيرة للحصول على

سندات ملكية الاراضى العامة^(١٥٦). بيد أنه من الناحية التاريخية، كان للقانون قيمة رمزية كبيرة: إذ كان يعنى إنتهاء صراع طويل ومرهق وممرير بين قانون الصفوة، والنظام الجديد الذى أنشأته الهجرة الحاشدة واحتياجات مجتمع مفتوح وقادر على الاستمرار. وإذ ضم القانون الرسمى فى نهاية المطاف كثيرا من ترتيبات المستوطنين غير القانونية، فإنه أضفى بذلك المشروعية على نفسه، وأصبح القاعدة لمعظم الناس فى الولايات المتحدة وليس الإستثناء.

دلالة ذلك بالنسبة لبلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة

للتجربة الأمريكية دلالة بالغة بالنسبة للبلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة التى تسعى لتحقيق الانتقال إلى الرأسمالية. فقد كان الاعتراف بحقوق الملكية غير القانونية وإدماجها عنصرا أساسيا فى تحول الولايات المتحدة إلى أهم اقتصاد سوق، وأكبر منتج لرأس المال فى العالم. ومثلما يؤكد جوردون وود، فإنه خلال هذا الوقت «كان شئ هائل يحدث فى المجتمع والثقافة أطلق طموحات وطاقت الناس العاديين مثلما لم يحدث مطلقا من قبل فى التاريخ الأمريكى»^(١٥٧).

وكان الشئ «الهائل» ثورة فى الحق فى الملكية. فقد أضفى الأمريكيون، وإن لم يكن بحماس ووعى دائما، تدريجيا، المشروعية على قواعد وترتيبات الملكية غير القانونية التى أنشأها أكثر الأمريكيين فقرا، وأدمجوها فى قانون الأرض. وفى بداية القرن التاسع عشر، كانت المعلومات بشأن الملكية والقواعد التى تحكمها مبعثرة ومتضائلة وغير مترابطة. كانت متوافرة فى دفاتر الأستاذ البدائية، والمذكرات الشخصية، والدساتير غير الرسمية، ولوائح المناطق، أو الشهادات الشفوية فى كل مزرعة، منجم، أو مستوطنة حضرية. وكما هو الحال حاليا فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة، كان معظم هذه المعلومات يتعلق فقط بالمجتمع المحلى ولايتوافر فى أى شبكة

متسقة تمثله بصورة منتظمة. وعلى الرغم من أن المسؤولين الأمريكيين ربما لم يقصدوا ذلك أو لم يدركوه، فإنهم عندما وضعوا القوانين الوطنية مثل قانون حق الشفعة وقانون التعدين، كانوا ينشئون الأشكال التمثيلية التى تضم كل بيانات الملكية المتفرقة والمنعزلة هذه فى نظام رسمى جديد للملكية.

لم يكن ذلك مهمة سهلة أو سريعة: كما لم تخل من العنف. لكن التجربة الأمريكية تشبه كثيرا ما يتم حاليا فى بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة: عجز القانون الرسمى عن مسايرة المبادرة الشعبية، وفقد الحكومة للسيطرة. ونتيجة لذلك، فإن الناس خارج الغرب يعيشون حاليا فى عالم المتناقضات، والذي لا يختلف عن العالم الذى وصفه المؤرخ ج. ادوارد هوابت: «عندما كان القائم بالتعدين يترك كوخه ويمضى للعمل، كان يستخدم أحدث ما فى تكنولوجيا الصناعة. وعندما كان المزارع يذلف إلى خارج كوخه، كان يستخدم عادة أحدث الآلات الزراعية»^(١٥٨). كما يعيش سكان العالم الثالث ويعملون فى أكواخ وأحياء فقيرة، جنباً إلى جنب مع أجهزة التلفزيون والحاسبات الإلكترونية. وهم جدٌ منظمين فى نواياهم للحقوق المدعى بها. كما بدأت حكوماتهم فى إعطائهم حق الشفعة.

ولكن الذى لايزالون يفتقدونه هو حق قانونى تمت صياغته بكفاءة فى إدماج ملكيتهم فى النظام القانونى الرسمى، بما يسمح لهم باستخدامه لخلق رأس المال. ومن خلال قوانين الشغل، والشفعة، وتعمير البيوت والتملك بموجب «قانون هومستيد»، وقانون القائمين بالتعدين، شاد الأمريكيون مفهوما جديدا للملكية: «يؤكد جوانبها الدينامية، ويربطها بالنمو الاقتصادى»، ويحل محل مفهوم «يركز على طابعها الاستاتيكي ويربطها بالتأمين من التغير السريع جدا»^(١٥٩). لقد تغيرت الملكية الأمريكية من كونها وسيلة للحفاظ على نظام اقتصادى قديم، لتصبح بدلا من ذلك أداة قوية لإقامة نظام جديد. وكانت النتيجة هى قيام أسواق متوسعة وخلق رأس المال اللازم لتزويد النمو الاقتصادى المتفجر بالوقود اللازم. كان ذلك هو التغير «الهائل» الذى لايزال يحرك النمو الاقتصادى فى الولايات المتحدة.

وأخيراً، فإن الدروس المستفادة من انتقال الولايات المتحدة إلى الطابع الرسمي لن نجد لها في التفاصيل الفنية وإنما في التغيرات في المواقف السياسية وفي الاتجاهات القانونية العريضة. وفي إصدار قوانين لدمج السكان العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون، عبر السياسيين الأمريكيين عن فكرة ثورية هي أن المؤسسات القانونية لا تستطيع الاستمرار إلا إذا استجابت للاحتياجات الاجتماعية^(١٦٠). لقد استمد النظام القانوني الأمريكي طاقته من أنه قام على خبرة الأمريكيين العاديين على مستوى القاعدة، وعلى الترتيبات غير القانونية التي وضعوها، في حين رفض مبادئ القانون العادي الإنجليزي الذي ليس له صلة كبيرة بالنسبة للمشاكل الفريدة للولايات المتحدة. وفي العملية الطويلة والمرهقة لإدماج حقوق الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون، أنشأ المشرعون والفقهاء الأمريكيون نظاماً جديداً يفضي بدرجة أكبر لقيام اقتصاد سوق منتج ودينامي. وقد شكلت هذه العملية ثورة نشأت عن التوقعات المعيارية للناس العاديين، طورتها الحكومة إلى هيكل رسمي منظم ومهني.

ولا يعني هذا القول بأنه يتعين على البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة أن تقلد الانتقال الأمريكي على نحو خانع وأعمى. فهناك فيض من النتائج السلبية في التجربة الأمريكية عليها أن تحرص على تفاديها. ولكن كما رأينا بالفعل، هناك الكثير لتتعلمه. والدرس الأول هو أن الزعم بأن الترتيبات غير القانونية غير موجودة أو محاولة إخمادها، بدون استراتيجية لتوجيهها إلى القطاع القانوني، عمل أحمق. خاصة في العالم النامي؛ حيث يضم القطاع غير القانوني حالياً - مثلما رأينا في الفصل الثاني - غالبية السكان في تلك البلاد، ويشمل تريليونات الدولارات في صورة رأس مال غير منتج.

وستواجه الجهود المبذولة لخلق ثورة في الملكية في أماكن أخرى في بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة، متطلباتها وعقباتها وفرصها الفريدة الخاصة. يتعين علينا أن نباري الثورات الأخرى الجارية في تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات والحضرة السريعة. لكن الوضع الأساسي هو نفسه. فحالياً، لم يعد لقانون الملكية في كثير من البلدان النامية والبلدان الشيوعية

السابقة أهمية بالنسبة للكيفية التى تعيش بها غالبية الناس ويعملون. كيف يطمح نظام قانونى إلى المشروعية إذا كان يستبعد ٨٠ فى المائة من الناس؟ ويتمثل التحدى فى تصحيح هذا الفشل القانونى. وتبين التجربة الأمريكية أن هذه مهمة ثلاثية: إذ يتعين علينا التوصل إلى العقود الاجتماعية الحقيقية بشأن الملكية، وإدماجها فى القانون الرسمى، واستنباط استراتيجية سياسية تجعل الإصلاح ممكناً. وموضوع الفصل التالى هو كيف تستطيع الحكومات أن تتصدى لهذه التحديات.

الفصل السادس

سرّ الفصل القانوني

لم تكن حياة القانون منطقية؛ لقد كانت اختباراً.

— أوليفر ويندل هولمز، القاضي بالمحكمة العليا الأمريكية

لدى كل البلدان النامية والشيوعية السابقة تقريبا نظام رسمي للملكية. والمشكلة هي أن معظم المواطنين لا تتوافر لهم فرصة الوصول إليه. إنهم يصطدمون بالناقوس الزجاجي لفيرناند برودل، هذا الهيكل الخفى فى ماضى الغرب الذى احتفظ بالرأسمالية لقطاع صغير جدا من المجتمع. وكان البديل الوحيد أمامهم، كما رأينا فى الفصل الثانى، هو الانسحاب بأصولهم إلى القطاع غير الرسمي حيث يستطيعون أن يعيشوا ويقوموا بالأعمال - ولكن دون أن يتمكنوا مطلقا من تحويل أصولهم إلى رأس مال.

ومن المهم قبل أن نستطيع رفع الناقوس الزجاجى، أن نعرف أننا لن نكون أول من يحاول. فكما سنرى فى هذا الفصل، فقد حاولت حكومات البلدان النامية لمدة ١٨٠ عاما أن تفتح نظم الملكية فيها للفقراء.

لماذا فشلت؟ يتمثل السبب في أنها عملت عادة في ظل خمسة مفاهيم أساسية خاطئة:

- أن جميع الناس الذين يختبئون في القطاعات التي لا تتمتع بحماية القانون أو السرية، يفعلون ذلك للتهرب من أداء الضرائب؛
- حيازة الأصول العقارية ليست قانونية لأنه لم يتم مسحها ورسم خرائطها وتسجيلها بشكل سليم؛
- أن إصدار قانون ملزم بشأن الملكية كاف، وتستطيع الحكومة تجاهل تكاليف الامتثال لذلك القانون؛
- يمكن تجاهل الترتيبات التي لا تتمتع بحماية القانون أو «العقود الاجتماعية» القائمة؛
- يمكن تغيير أمور أساسية مثل أعراف الناس بشأن كيفية تمكنهم من حيازة أصولهم، القانونية والتي لا تتمتع بحماية القانون، بدون قيادة سياسية عالية المستوى.

إن تفسير أسباب قيام الاقتصادات السرية في هذه البلدان، التي يعمل فيها بصورة نموذجية من ٥٠ إلى ٨٠ في المائة من السكان، من حيث التهرب الضريبي، تفسير غير سليم جزئياً على الأقل. فلا يلجأ معظم الناس إلى القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون لأنه ملاذ من الضرائب، ولكن لأن القانون القائم، مهما كانت رشاقة صياغته، لا يعالج احتياجاتهم أو طموحاتهم. ففي بيرو، حيث صمم الفريق العامل معى برنامج إدماج صغار منظمى المشروعات غير القانونيين فى النظام القانونى، سجل نحو ٢٧٦ ألفاً من منظمى المشروعات هؤلاء مشروعاتهم طوعاً فى مكاتب التسجيل الجديدة التى أنشأناها لتناسبهم - مع عدم الوعد بإجراء تخفيضات فى الضرائب. لم تكن مشروعاتهم السرية تدفع أية ضرائب على الإطلاق؛ وبعد ذلك بأربع سنوات، بلغ مجموع الضرائب من مشروعات الأعمال التى لم تكن قانونية من قبل، ١,٢ مليار دولار.

لقد نجحنا لأننا طوعنا قانون الشركات والملكية ليلانم احتياجات منظمى المشروعات الذين كانوا قد اعتادوا على القواعد التى لا تتمتع بحماية القانون.

كما خففنا بصورة مثيرّة التكاليف البيروقراطية لتسجيل المشروعات. ولايعنى هذا القول إن الناس لايهتمون بفاتورة الضرائب التى يدفعونها. لكن الصنّاع وأصحاب الحوانيت التى لاتتمتع بحماية القانون - الذين يعملون بهامش ربح فى سمك حدّ الموسى، ويحسبون بالسنت وليس بالدولار - يعرفون مبادئ الحساب الأساسية. كان كل ما يتعين علينا عمله هو أن نتأكد أن تكاليف العمل بصورة قانونية تقل عن تكاليف البقاء فى القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون، وتسهيل العمل الورقى اللازم للتشريع، وبذل مجهود قوى للإبلاغ بمزايا البرنامج، ثم مراقبة مئات الألوف من منظمى المشروعات وهم سعداء بترك العمل فى السر.

وعلى خلاف الحكمة الشائعة، فإن العمل فى السرّ من الصعب أن يخلو من التكلفة. فالمشروعات التى لاتتمتع بحماية القانون يتم فرض ضريبة عليها عن طريق الاقتتار لقانون جيد للملكية، واضطرابها بصورة مستمرة لإخفاء عملياتها عن السلطات. ونظر لأنها لاتتخذ شكل شركات، فإن مشروعات منظمى الأعمال التى لاتتمتع بحماية القانون لايمكنها أن تغرى المستثمرين ببيع الأسهم؛ ولاتستطيع تأمين الحصول على ائتمان رسمى منخفض التكلفة لأنه لاتتوافر لها حتى عناوين قانونية. ولايمكنها أن تقلل المخاطر بإعلان المسؤولية المحدودة أو الحصول على تغطية تأمينية. و«التأمين» الوحيد المتاح لها هو ذلك الذى يقدمه الجيران، والحماية التى يرغب البلطجية المحليون أو المافيا المحلية فى بيعها لها. وبالإضافة لذلك، فإنه نظرا لأن منظمى المشروعات التى لاتتمتع بحماية القانون يعيشون فى خوف دائم من اكتشاف الحكومة لهم ومن ابتزاز الموظفين الفاسدين، فإنهم يضطرون إلى تقسيم وتجزئة مرافقهم الإنتاجية بين عدة مواقع، وبذلك نادرا ما يحققون وفورات حجم كبيرة. ففى بيرو، تُدفع نسبة ١٥ فى المائة من الدخل الإجمالى للصناعة فى القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون كرشاوى، تتراوح من «العينات المجانية» و«الهدايا» الخاصة من السلع للنقد الصراح. وإذا يركز منظمو المشروعات السرية بصرهم دائما على الحذر من الشرطة، فإنهم لايسطيعون الإعلان صراحة عن بضائعهم لتشكيل دائرة من الزبائن لهم، أو إرسال شحنات ضخمة أقل تكلفة للزبائن.

وقد أكدت البحوث التي أجريناها في البلدان التي عملنا معها أن التحرر من تكاليف القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون وإزعاجه، يعوض عادة دفع الضرائب. ذلك أنك ستدفع ضرائب، سواء كنت داخل الناقوس الزجاجي أم خارجه. والتكلفة النسبية للعمل بصورة قانونية هي التي تحدد ما إذا كنت ستظل خارجه أم لا.

وهناك مفهوم خاطئ رئيسي آخر هو أن الأصول العقارية لا يمكن تسجيلها رسمياً إلا إذا تم مسحها ورسم خرائط لها وتسجيلها بأرقى تكنولوجيا عصرية للمعلومات الجغرافية. وفي أفضل الأحوال يصدق هذا بدوره بصورة جزئية. فقد استطاع الأوروبيون والأمريكيون تسجيل كافة أصولهم العقارية قبل اختراع الكمبيوتر ونظم المعلومات الجغرافية بعقود. وكما رأينا في الفصل السابق، فقد تعثر المسح طوال القرن التاسع عشر في الأراضي التي كان قد تم الاستيطان فيها مؤخراً في الولايات المتحدة سنوات كثيرة وراء نقل حقوق الملكية. وفي اليابان، فحصت الوثائق المتاحة في مكاتب التسجيل، ورأيت كيف تم تسجيل بعض الأصول من الأراضي بعد الحرب العالمية الثانية باستخدام خرائط من العصر «الذي كانت طوكيو تسمى فيه «ايدو» - قبل اختراع التصوير الجوي والنظم العالمية لتحديد المواقع بفترة تبلغ من ثلاثة إلى أربعة قرون.

وهذا لا يعنى القول بأن أرقى النظم العصرية للمعلومات الجغرافية والحساب الآلى ليست مهمة لأقصى حد بالنسبة لأى جهود حكومية لفتح نظام الملكية أمام الفقراء. إن ما يعنيه هو أن نقص الرسملة الشائع، ووضع اليد غير الرسمى والإسكان غير القانونى فى كل أنحاء العالم غير الغربى، لم ينجم عن الافتقار للتكنولوجيا المتقدمة للمعلومات ورسم الخرائط.

إن ناقوس برودل الزجاجى ليس مصنوعاً من الضرائب والخرائط والحسابات الآلية، وإنما من القوانين. إن ما يحول دون استخدام معظم الناس فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة للملكية الرسمية الحديثة لخلق رأس المال، هو النظام القانونى والإدارى السيئ. إذ توجد داخل الناقوس الزجاجى نخب تحوز الملكية، وتستخدم القانون المصنف المستعار من الغرب.

وخارج الناقوس الزجاجى، حيث يعيش معظم الناس، يتم استخدام الملكية وحمايتها بكل أنواع الترتيبات التى لاتتمتع بحماية القانون التى تضرب بجذورها فى توافق الرأى غير الرسمى والمبعثرة عبر مجالات شاسعة. وتمثل هذه العقود الاجتماعية المحلية فهما جماعيا لكيفية امتلاك الأشياء، وكيف يرتبط الملاك ببعضهم البعض. ويتضمن وضع عقد اجتماعى وطنى واحد بشأن الملكية فهم العمليات السيكولوجية والاجتماعية - المعتقدات، الرغبات، النوايا، الأعراف، والقواعد - التى تضمنها هذه العقود الاجتماعية المحلية، تم استخدام الأدوات التى يوفرها القانون المهنى لتسجها معا فى عقد اجتماعى وطنى رسمى واحد. وهذا هو ما حققته البلدان الغربية منذ زمن ليس ببعيد.

والنقطة الحاسمة لفهم الموضوع هى أن الملكية ليست الشئ المادى الذى يمكن تصويره أو رسم خريطة له. إن الملكية ليست سمة أولية للأصول، وإنما التعبير القانونى عن توافق آراء هادف من الناحية الاقتصادية/إزاء الأصول. إن القانون هو الأداة التى تحدد وتثبت رأس المال وتجسده. وفى الغرب، فإن اهتمام القانون بتمثيل الواقع المادى للمبانى أو العقارات أقل من اهتمامه بتوفير عملية أو قواعد تتيح للمجتمع أن يستخلص فائض القيمة المحتمل من تلك الأصول. إن الملكية ليست هى الأصول نفسها، وإنما توافق الرأى بين الناس حول الكيفية التى ينبغى بها حيازة هذه الأصول واستخدامها وتبادلها. ولايمثل التحدى حاليا فى معظم البلدان غير الغربية فى وضع كل أراضى الأمة ومبانيها فى نفس الخريطة (والذى ربما تحقق بالفعل) وإنما فى إدماج الأعراف القانونية الرسمية القائمة داخل الناقوس الزجاجى مع الأعراف غير القانونية القائمة خارجه.

ولن يتحقق هذا بأى قدر من المسح ووضع الخرائط. ولن يحول أى قدر من الحساب الكلى الأصول إلى شكل يسمح لها بالدخول للأسواق المتوسعة وأن تصبح رأس مال. فمثلا رأينا فى الفصل الثالث، فإن الأصول نفسها ليس لها تأثير على السلوك الاجتماعى: فهى لا تخلق حوافز، وهى لا تخضع أى شخص للمساءلة، ولا تجعل أى عقد قابل للإنفاذ. إن الأصول ليست «منقولة وقابلة للاستبدال» بحكم جوهرها الداخلى - [قابلة للتقسيم، والتجميع أو للحشد] لتلائم أى تعامل. إن جميع هذه الخصائص تنبع من قانون الملكية

الحديث. إن القانون هو الذى يفصل ويثبت الإمكانيات الاقتصادية للأصول كقيمة منفصلة عن الأصول المادية نفسها، ويتيح للبشر أن يكتشفوا ويجسدوا هذه الإمكانيات. إن القانون هو الذى يربط بين الأصول فى دوائر مالية واستثمارية. وهو تمثيل للأصول فى وثائق قانونية للملكية تعطيها القدرة على خلق فائض القيمة.

منذ أكثر من ستين سنة خلت، كتب المؤرخ القانونى البارز سى. راينولد نويس:

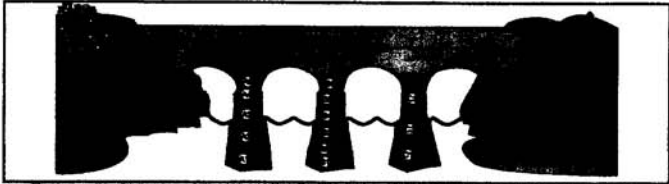
لم تعد فيشُّ اللعبة الاقتصادية حالياً هى السلع المادية والخدمات الفعلية التى جرى بحثها على وجه الحصر تقريباً فى كتب الاقتصاد الدراسية، بقدر ما يتمثل فى إقامة علاقات قانونية نسميها الملكية... وبدراسة تطور الواقع الاجتماعى، ينتهى المرء إلى اعتباره شبكة من الروابط غير الملموسة - بيت للعنكبوت من خيوط غير مرئية - تحيط بالفرد وتستوعبه، وبذلك تنظم المجتمع... والعملية التى ندرك بها العالم الفعلى الذى نعيشه هى عملية تحويل هذه العلاقات لأشياء ندرك بالحواس^(١).

ومن ثم، فإن رفع الناقد الزجاجى هو بالأساس تحد قانونى: فلا بد أن يتفاعل النظام القانونى الرسمى مع الترتيبات التى لا تتمتع بحماية القانون القائمة خارج الناقد الزجاجى لخلق عقد اجتماعى بشأن الملكية ورأس المال. ولتحقيق هذا التكامل، يستلزم الأمر بالطبع تضافر عدة نظم أخرى للمعرفة: فعلى الاقتصاديين أن يحددوا التكاليف والأعداد بدقة؛ ويتعين على المخططين الحضريين والمهندسين الزراعيين أن يحددوا الأولويات؛ ولاغنى عن واضعى الخرائط والمساحين وخبراء الكمبيوتر فى تشغيل نظم المعلومات. ولكن فى نهاية المطاف، لن يتجسد عقد اجتماعى وطنى متكامل إلا فى القوانين. وكل أنظمة المعرفة الأخرى لا تلعب إلا دوراً مسانداً.

هل يعنى ذلك أن القانونيين يجب أن يقودوا مسيرة التكامل؟ لا. ذلك أن إجراء تغيير قانونى أساسى هو مسؤولية سياسية. وهناك أسباب مختلفة لذلك. أولاً، إن القانون يتعلق بصفة عامة بحماية حقوق الملكية. ومع ذلك، فلا تتمثل المهمة الحقيقية فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة فى تحسين الحقوق القائمة مثل منح الجميع الحق فى حقوق الملكية - «أسمى الحقوق» إن أردت. إن منح مثل هذه الحقوق السامية، وتخريب الناس من القانون السيئ،

عمل سياسى. ثانيا، من المرجح أن تعارض قلة من أصحاب المصالح، صغيرة وإن كانت راسخة بقوة - يمثلها أساسا أفضل رجال القانون التجارى فى البلاد - التغيير، إلا إذا اقتنعت بغير ذلك. ولا يتطلب جذب الأشخاص المتربطين جيدا والأثرياء ذوى الأموال للإنحياز لموكب الدعاية للتغيير، مستشارين ملتزمين بخدمة عملائهم، وإنما يتطلب سياسيين موهوبين ملتزمين بخدمة شعوبهم. ثالثا، إن إقامة نظام متكامل لاتتعلق بوضع مشروعات القوانين واللوائح التى تبدو جيدة على الورق، وإنما تتعلق بتصميم قواعد جذورها راسخة فى معتقدات الناس، ومن ثم يزداد احتمال إطاعتها وإنفاذها. ومهمة السياسى هى الارتباط بالناس الحقيقيين. رابعا، إن حدث الاقتصادات السرية على أن تصبح قانونية هى وظيفة أساسية لترويج السياسات. ويتعين على الحكومات أن تقنع أفقر المواطنين - الذين يفتقرون إلى الثقة فى الحكومة ويبقون على ترتيبات ضيقة صارمة - وبعض رجال المافيا الذين يحمونهم، بشراء تذكرة دخول إلى لعبة أكبر وفضفاضة بصورة أشد. ويتعين على الحكومات أن تقنع أيضا اليساريين ذوى النفوذ، الأقرب إلى الجماهير فى بلدان كثيرة، بأن تمكين الدوائر المناصرة لهم من إنتاج رأس المال هو أفضل وسيلة لمساعدتهم. إن المواطنين الذين يعيشون داخل الناقوس الزجاجى وخارجه يحتاجون إلى الحكومة فى إثبات أن نظاما للملكية متكاملا وأعيد تصميمه، أقل تكلفة، وأكثر كفاءة وأفضل للامة من الترتيبات الفوضوية القائمة. وبدون النجاح على هاتين الجبهتين القانونية والسياسية، لا يستطيع أى بلد أن يتغلب على الفصل العنصرى القانونى بين من يستطيعون خلق رأس المال ومن لا يستطيعون ذلك. وبدون وجود ملكية رسمية، لا يستطيع الناس تحقيق الازدهار فى مجتمع رأسمالى، مهما بلغ قدر الأصول التى يراكمونها، ومهما بلغ اجتهادهم فى العمل. إذ سيقفون خارج رادار صانعى السياسة، خارج متناول السجلات الرسمية، ومن ثم يبقون غير مرئيين من الناحية الاقتصادية. لقد نجحت الحكومات الغربية فى رفع الناقوس الزجاجى، لكنها كانت عملية غريبة الأطوار تفتقر للوعى استغرقت مئات السنين. وقد جمعنا - أنا وزملائي - ما اعتقدنا أنهم فعلوه صوابا فى صيغة أسميناها «عملية الرسملة»، نساعد بها مختلف الحكومات فى شتى أرجاء العالم. والصيغة موجزة فى

شكل (٦ - ١) عملية الرسملة: التحرك من رأس المال غير المنتج إلى رأس المال المنتج



A - استراتيجيات الاكتشاف

- A.1 تحديد وتعيين موقع وتصنيف الأصول التي لا تتمتع بحماية القانون (رأس المال غير المنتج)
- A.1.1 وضع مواصفات تحديد مدنية للتدخل في القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون.
- A.1.2 تحديد أسباب تراكم الأصول التي لا تتمتع بحماية القانون بغرض وضع دراسات جديدة لترموح
- A.1.3 تحديد القطاعات الاقتصادية والمناطق الجغرافية التي تكون فيها الأنشطة التي لا تتمتع بحماية القانون أكثر شيوعا
- A.2 تحديد القيمة الفعلية والمحتملة للأصول التي لا تتمتع بحماية القانون (رأس المال غير المنتج).
- A.2.1 وضع المنهجيات للعثور على تقدير قيم الأصول التي لا تتمتع بحماية القانون باستخدام المعلومات وجمع المعلومات ميدانيا.
- A.2.2 تعديل المعايير للعثور على موضع من أجل جمع وتجهيز المعلومات وتأكيد النتائج
- A.2.3 تحديد أهمية قيمة الأصول التي لا تتمتع بحماية القانون.
- A.3 تحليل تفاعل القطاع خارج القانون مع باقي المجتمع
- A.3.1 بحث الروابط المهمة بين الحكومة والأصول التي لا تتمتع بحماية القانون.
- A.3.2 بحث الروابط المهمة بين مشروعات الأعمال القانونية والأصول التي لا تتمتع بحماية القانون.
- A.3.3 تحديد العمليات التي تعاملت فيها الحكومة بنجاح مع الأصول التي لا تتمتع بحماية القانون.
- A.4 تحديد الأعراف خارج القانون التي تحكم الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون.
- A.4.1 اكتشاف وفك شفرة الأعراف التي لا تتمتع بحماية القانون التي تحدد الطريقة التي تختلف بها حقوق الملكية وتعارض بواسطة مجتمعات محلية مختلفة التي لا تتمتع بحماية القانون في البلاد
- A.5 تحديد التكاليف التي لنحدها البلاد نتيجة العمل الذي لا تتمتع بحماية القانون
- A.5.1 التكاليف بالنسبة للقطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون
- A.5.2 التكاليف بالنسبة للقطاع الإصلاحي القانوني
- A.5.3 التكاليف بالنسبة للحكومة

B - الإستراتيجية السياسية والقانونية

- B.1 كفالة أن يعمل أعلى مستوى سياسي بالمسؤولية عن رسملة الفقراء
- B.2 تمثيل الهيئات التي تسمح بالتغيير السريع
- B.2.1 التحديد والربط بمعينة الرسملة لخطوط المؤسسات التي تحكم حاليا حقوق الملكية أو نفس قدرتها على توليد فائض القيمة.
- B.2.2 تصميم الحصول على الموافقة على وتشغيل الهيئات التي تسمح بالإصلاح السريع للتغييرات في مختلف العمليات المطلوبة للرسملة. وإذا أمكن إنشاء منظمة واحدة لها لوجها الوالية على رسملة الأصول ومكان لا مركزي لتقديم الخدمات في كل أنحاء البلاد.
- B.2.3 تضمن أن تشمل عملية الرسملة الأولويات السياسية لتسوية وتعكس توافق الرأي داخل المجتمع مما ييسر تنفيذ العملية على حد سواء.
- B.3 إزالة الانقسامات الإدارية والقانونية
- B.3.1 حساب تكاليف رسملة الأصول خارج القانون، بما في ذلك:
 - B.3.1.1 اشتراطات التراخيص على كافة المستويات الحكومية
 - B.3.1.2 الاشتراطات والمبالغ المدفوعة لقاء هذه التراخيص
 - B.3.1.3 عدد الاستثمارات والوثائق الأخرى المطلوبة
 - B.3.1.4 الاشتراطات التي لا يمتثل الوفاء بها علنيا
 - B.3.1.5 كل تناقضات المعاملات الأخرى، بما في ذلك التأخيرات الزمنية
- B.3.2 إزالة الانقسامات الإدارية والقانونية بتحديد وتعديل المؤسسات والقوانين التي تخلف الروتين غير الضروري.
- B.4 بناء توافق في الرأي بين القطاع القانوني والقطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون
- B.4.1 تحديد النطاق الذي يغطي فيها الأعراف خارج التي لا تتمتع بحماية القانون مع القانون للتمكن من وضع مشروعات توضح نعتهم بالبراهين المقبولة خارج القانون على الملكية بدعم من المجتمعات خارج القانون
- B.4.2 ضمان أن يؤدي وضع قواعد القانونية التي تدعم الملكية خارج القانون إلى تحقيق ذلك بدون الإضرار بيسوى الضمان الذي يملكه النظام القانوني القائم
- B.5 تفعيل المسئلة على نحو سليم والتي تخضع لتفسيرات الفعلية للحصول على موافقة القطاع القانوني
- B.5.1 وضع لوائح وإجراءات تخفف تكاليف حيازة الأصول قانونا إلى ما يقل عن تكاليف حيازتها خارج القانون
- B.5.1 إصدار لوائح مطلوبة لإضاح كل أنواع الملكية في البلاد لكيان قانوني واحد منسق ومجموعة واحدة من الإجراءات.
- B.5.2 توسيع تعريف أمة الملكية لتتلاءم العملية الجديدة، وتوحيد لوائح والإجراءات التي تستخدم عملية الرسملة في حزم يمكن تنفيذها إداريا.
- B.5.3 توحيد كل التشريعات المدعومة في قانون واحد
- B.5.4 تطوير المؤسسات والإجراءات التي تتيح وفورات الحجم لعل الأنشطة التي تشكل عملية الرسملة.
- B.5.5 وضع بديل محلي ومنخفض للتكلفة لوضع اليد والاشكال الأخرى لتملك خارج القانون. دعم العمليات واحترام القانون بوضع حوافز وحوافز سلبية تهدف إلى تشجيع نقل الملكية القانونية وإجباة نقلها غير القانوني (خارج القانون).
- B.5.6 تصميم ونفيذ عمليات إدراة أو خاصة لنحل محل العمليات الاقتصادية، حيثما يكون ذلك ملائما، لتشجيع تسوية المزايدات في إطار القانون
- B.6 خلق دباب تقلل المخاطر المرتبطة بالاستثمار الخاص، بما في ذلك مصادقية سجلات الملكية وعدم دقة مقابل الخدمات العامة

الشكل (٦ - ١). والواقع أن شرح التفاصيل لا يعد جزءاً من هذا الكتاب، لكن القراء الذين يودون الإطلاع على الوصف التقنى للخطة بأسرها مدعوون للرجوع للوثائق غير المنشورة فى محفوظات «معهد الحرية والديمقراطية». وسأركز فى باقى هذا الفصل على مكونين لا غنى عنهما فى الصيغة: التحدى القانونى والتحدى السياسى.

الجزء الأول: التحدى القانونى

متلماً تبدو عليه الأمور، فإن إقامة نظام متكامل موحد للملكية فى البلاد غير الغربية أمر مستحيل. فترتيبات الملكية التى لا تتمتع بحماية القانون مبعثرة بين عشرات، وأحياناً مئات، المجتمعات المحلية، ولا يعرف إلا أهل الداخل المطلعين والجيران فقط الحقوق وغيرها من المعلومات. وينبغى دمج كل ترتيبات الملكية التى لا تتمتع بحماية القانون المنفصلة والسائبة التى تميز معظم بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة فى نظام واحد يمكن استخلاص مبادئ القانون العامة منه. خلاصة القول، ينبغى إدماج العقود الاجتماعية الكثيرة «هنا وهناك» فى عقد اجتماعى واحد يشمل كل شىء.

كيف يمكن تحقيق ذلك؟ كيف تستطيع الحكومات أن تتوصل إلى ماهية ترتيبات الملكية التى لا تتمتع بحماية القانون؟ كان ذلك هو على وجه التحديد السؤال الذى وجهته إلى خمسة أعضاء فى الوزارة الإندونيسية. فقد زرت إندونيسيا لحضور احتفال بإصدار طبعة من كتابى السابق بلغة البهاسا الإندونيسية، واستغلوا هذه الفرصة لدعوتى للحديث حول كيف يمكنهم التوصل إلى «من يملك ماذا» بين ٩٠ فى المائة من الإندونيسيين الذين يعيشون فى القطاع غير القانونى. وخوفاً من أن أفقد انتباه وتركيز المستمعين، إذا أسرفت فى الشرح الفنى حول كيفية بناء جسر بين القطاعين غير القانونى والقانونى، تقدمت بطريقة أخرى، طريقة إندونيسية، للرد على سؤالهم. فخلال الجولة المكرسة لكتابى، اقتطعت بضعة أيام لزيارة بالى، وهى من أجمل

الأماكن على سطح الأرض. ولم تكن لدى وأنا أتجول عبر حقول الأرز، أى فكرة عن أين تقع حدود الملكية. لكن الكلاب كانت تعرف. ففى كل مرة كنت أعبر فيها من مزرعة لأخرى، كان كلب مختلف ينبح. ربما كانت هذه الكلاب الإندونيسية جاهلة بالقانون الرسمى، لكنها كانت متأكدة من الأصول التى يملكها أصحابها.

وأخبرت الوزراء أن لدى الكلاب الإندونيسية المعلومات الأساسية التى يحتاجونها لإقامة نظام رسمى للملكية، وأنهم بالتجول فى شوارع المدن وفى الريف والإصغاء للكلاب التى تنبح، يستطيعون تدريجيا أن يشقوا طريقهم للامام، خلال غابة وثائق التمثيل غير القانونية المبعثرة فى كافة أنحاء البلاد، حتى يتوصلوا إلى العقد الاجتماعى الحاكم. ورد أحد الوزراء بقوله «أه، جوكوم عادات (قانون الناس)»!

لقد كان اكتشاف «قانون الناس» هو الأسلوب الذى بنت به دول الغرب نظمها الرسمية للملكية. ويتطلب الأمر حكومة جادة معنية بإعادة هندسة الاتفاقيات غير الرسمية الحاكمة فى عقد اجتماعى رسمى وطنى واحد بشأن الملكية، الإصغاء إلى كلابها التى تنبح. ولإدماج كل أشكال الملكية فى نظام موحد، ينبغى أن تتوصل الحكومات إلى كيف ولماذا تجدى الأعراف المحلية ومدى قوتها فى واقع الأمر.

ويفسر الفشل فى القيام بهذا السبب فى أن المحاولات الماضية للتغيير القانونى فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة لم تكن مجدية. إذ ينزع الناس إلى النظر إلى «العقد الاجتماعى» باعتباره تجريدا غير مرئى ويمثل قوة إلهية، لا يمكن سوى فى عقول أصحاب الرؤى مثل لوك، وهيوم، وروسو. لكننا اكتشفنا - أنا وزملائى - أن العقود الاجتماعية فى القطاع غير القانونى ليست مجرد التزامات اجتماعية ضمنية يمكن استنتاجها من سلوك المجتمع؛ بل هى أيضا ترتيبات يقوم الناس الحقيقيون بتوثيقها صراحة. ونتيجة لذلك، يمكن عمليا لمس هذه العقود الاجتماعية غير القانونية، ويمكن أيضا تجميعها لإقامة نظام للملكية ولتكوين رأس المال يعترف به المجتمع نفسه وينفذه.

الانتقال من نظام ما قبل رأسمالى للملكية إلى نظام رأسمالى لها

لا يتصور قيام اقتصاد حديث للسوق، بدون نظام رسمى متكامل للملكية. فلو لم تكن ذل الغرب المتقدمة قد أدمجت كل أنواع التمثيل للملكية فى نظام معيارى موحد لها وجعلته متاحا للكافة، لما استطاعت أن تتخصص وتقسم العمل لخلق شبكة سوق موسعة ورأس المال اللازم لإنتاج ثروتها الحالية. وترتبط أوجه عدم كفاءة الأسواق غير الغربية كثيرا بتجزؤ تربيّات الملكية لديها، وعدم توافر تمثيل معيارى للملكية. ولا يحدّ هذا الافتقار إلى التكامل من التفاعل بين القطاع القانونى وغير القانونى فقط، وإنما بين الفقراء أنفسهم. ذلك أن مجتمعات العاملين خارج إطار القانونى تتبادل فيما بينها، ولكن بصعوبة كبيرة فحسب. إنها مثل الأساطيل الصغيرة من السفن التى تظل على هيئة تشكيل عند الإيجار استنادا إلى بعضها البعض وليس استنادا إلى معيار ما موضوعى ومشترك، مثل النجوم أو البوصلة المغناطيسية.

إن المعايير المشتركة المدمجة فى كيان قانونى موحد ضرورية لإقامة اقتصاد سوق حديث^(٢). ومثلما أوضح س. راينولد نوبس:

تتطلب الطبيعة الإنسانية الانتظام واليقين، ويقتضى هذا المطلب أن تتسق هذه الأحكام الأولية معا مما يتيح لها أن تتبلور فى قواعد محددة - فى «هذا الكيان من العقائد أو التنبؤ المنتظم الذى نسميه القانون»... إن الملائمة العملية التى يأخذ بها العامة... تودى إلى بذل جهود متكررة لإضفاء طابع نظامى على كيان القوانين. إن الطلب على التقنين. هو طلب من الناس بأن يتم تحريرهم من الأسرار ومن عدم اليقين المحيط بالقانون غير المكتوب أو حتى القانون المستمد من السوابق^(٣).

والانتقال من الحالة التى يعتمد فيها الناس بالفعل على تنوع الممارسات غير القانونية التى يرسخها الاتفاق المتبادل، إلى نظام قانونى موحد ومقنن، يمثل تحديا مروعاً. ومثلما رأينا، هذا هو ما كان يتعين على دول الغرب أن تحقّقه للانتقال من «الأحكام البدائية» لما قبل الرأسمالية، إلى كيان منتظم من

القوانين. وتلك هي الطريقة التي رفعت بها الناقوس الزجاجي. بيد أنه بقدر ما نجحت هذه البلدان، فإنها لم تكن واعية دوماً بما كانت تفعله، ولم تخلف مخطط أصلى واضح وراءها. وحتى في بريطانيا التي كانت تواقّة لتوسيع منافع الثورة الصناعية، امتدت جهود الإصلاح لنحو قرن كامل (من ١٨٢٩ إلى ١٩٢٥) قبل أن تصبح الحكومة فى وضع يمكنها من التأكيد من أن الأصول العقارية يمكن تسجيلها مركزياً ويسهل نقلها. ويلخص جون سى. باين مدى صعوبة وغرابة أطوار إصلاح نظام الملكية بالنسبة لإنجلترا:

تم إصدار كثير جداً من النظم الأساسية، وتم وضع قانون الملكية الإنجليزي من أعلى لأسفل. وكان كثير من هذا الإصلاح ارتجالاً فى حالات بعينها، ويخرج المرء بانطباع أن قادة الحركة لم تكن لديهم على الدوام فكرة واضحة عما يفعلونه والسبب فى قيامهم بذلك. لقد أصبح القانون الإنجليزي للملكية جدّ تقنى، واكتسب إضافات جدّ كثيرة على مرّ القرون لحدّ أن المهمة لا بدّ وأنها بدت فى البدء مروعة وساحقة تقريباً. وكانت الصعوبة تكمن فى أنه كان هناك قدر كبير من التفاصيل يتعين العناية بها، بحيث كان من الصعب الوصول لجوهر الأمور. لذلك بدأ دعاة الإصلاح الإنجليزي التصدى لها بكل الحماس، وإن كان بطاقة أكبر من مجرد وضوح المفهوم. وعلى المدى الطويل، أبلوا بلاء حسناً، لكن الأمر اقتضى منهم قرناً ليحققوا ذلك، وفى إبان ذلك جربوا عدة تجارب فاشلة، واضطروا فى النهاية إلى الأخذ بعدد من الحلول الوسط^(٤).

فشل القانون الإلزامى

يمكن للمرء أن يفترض أن رفع النواقيس الزجاجية سيكون أسهل نسبياً حالياً على البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة. وفى نهاية المطاف، فإن الحق فى الحصول الشامل على الملكية معترف به حالياً تقريباً فى كل دستور وطنى فى العالم، وفى كثير من الاتفاقيات الدولية. وتوجد برامج لمنح الفقراء الملكية فى كل البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة تقريباً. وفى حين لاقت

الإصلاحات التى تمت فى الغرب فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مقاومة فكرية وأخلاقية واسعة تعارض تقاسم حقوق الملكية الرسمية، فإن فرص الحصول على الملكية تعد اليوم جزءاً لا يتجزأ من الحقوق الأساسية للجنس البشرى. وتؤكد طائفة عريضة من المعاهدات الدولية المعاصرة، التى تتراوح من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر فى ١٩٤٨ وكتب تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، إلى «ميثاق منظمة العمل الدولية رقم ١٦٩ المعنى بالسكان الأصليين وأهل القبائل فى البلدان المستقلة الصادر فى ١٩٨٩، على أن الملكية حق أساسى ومستقر للإنسان. وبدرجات مختلفة، تعتبر المحاكم والقوانين فى كل أنحاء العالم هذا الحق مبدأ قانونياً مهماً. وقد حظر القانون الدولى منذ اتفاقية لاهى الدولية المبرمة فى ١٨٩٩، العادات القديمة للجيش الغازية فى نهب الممتلكات. وهكذا يعامل القانون الدولى حقوق الملكية للأفراد باعتبارها أكثر قداسة من حقوق سيادة الدول، وينص على أنه حتى إذا فقدت الحكومة أراضى، فإن أصحاب الملكية فى هذه الأقاليم نفسها لن يفقدوا أراضيهم.

لقد ازدهرت الولايات المتحدة وكندا واليابان وأوروبا - الخمسة وعشرون بلداً المتقدمة فى العالم - بدرجة أكبر كثيراً من تلك البلدان التى لا يتوافر لها ذلك النوع من نظم الملكية الرسمية المتكاملة الذى يسهل الوصول إليه، لدرجة أنه ليس هناك حالياً من يقترح على نحو جاد الوصول لحلول اقتصادية تتجاهل الحاجة إلى الملكية الرسمية. وهذا هو السبب فى أن معظم البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة تعترف حالياً بمبدأ الحصول الشامل على حقوق الملكية، باعتباره ضرورة سياسية وأيضاً عنصراً ضمناً فى برامجها للإصلاح الاقتصادى الكلى وإصلاح السوق.

لقد تم تكريس القصد السياسى فى تقنين الأصول المملوكة للفقراء فى القانون فى أمريكا اللاتينية لمدة قرنين تقريباً. وقد نص أول دستور يصدر فى بيرو فى ١٨٢٤، بعد عامين فحسب من الاستقلال عن أسبانيا، بوضوح على أن الفقراء، ومن ثم معظم أبناء بيرو من السكان الأصليين، ملاك شرعيون

لأراضيهم. ومع ذلك، فعندما أصبح واضحاً أن النخبة فى بيرو طفقت تنزع تدريجياً ملكية الفقراء من أبناء البلاد الأصليين، أصدرت الحكومة على مرّ السنين سلسلة قوانين تعزز قصد دستور بيرو. لكن لم يُجد أى منها. لقد حصل السكان الأصليون على نظم أساسية تؤكد أن الأصول التى يحوزونها مملوكة لهم قانوناً. أما ما لم يحصلوا عليه فهو الأليات التى تتيح لهم تثبيت الحقوق الاقتصادية على الأصول المملوكة لهم فى صكوك تمثلها ويحميها القانون.

والسبب جدّ واضح حالياً. ففى بيرو (وفى كثير من البلدان الأخرى خارج الغرب)، لا يتجه معظم الإجراءات القانونية لإنشاء الملكية الرسمية لمعالجة البراهين والإثباتات التى لا تتمتع بحماية القانون للملكية التى تفتقر إلى أى سلسلة مرئية من سندات الملكية. وهى بالطبع النوع الوحيد من الإثبات الذى يملكه الفقراء. كذلك لا يستطيع القانون القائم متابعة وتسجيل التغيرات اللاحقة فى سند ملكية أصل ما حيث تستمر المعاملات فى تعديل علاقات الملكية على مرّ الزمن. ومثلما رأينا فى الفصل الثانى، فإن الإجراءات القانونية اللازمة حالياً لتسجيل سندات الملكية والتغييرات فيها قد تستغرق عشرين سنة، فى أفضل الظروف، مع توافر الخرائط الحديثة وأجهزة الكمبيوتر، ووقوف منظمات حقوق الإنسان متاهة، ومع توافر أفضل النوايا فى العالم. ويتضح من الأدلة التى اكتشفناها، أن أهل بيرو الأصليين واجهوا فى القرن التاسع عشر عمليات تأخير لم تكن أفضل من ذلك، وربما كانت أسوأ. وبالنسبة للناس الذين كانوا يعترضون على هذه العقبات، كان إنشاء القواعد غير القانونية لحماية الأصول المملوكة لهم هو الشئ الرشيد الوحيد الذى يتعين عليهم القيام به.

وعندما أصبح واضحاً أن القوانين الإلزامية لا تساعد السكان الأصليين فى بيرو على تجسيد حقوقهم، هبت الصفوة الاقتصادية ثانية إلى العمل، أملة فى التوصل إلى خدع جديدة للالتفاف على قصد القوانين. وحيثما لم توجد سندات الملكية الرسمية، بدأ ذوو الاتصالات الجيدة معاً ومحاموهم فى اختراعها، فأعادوا تشكيل الأدلة الوثائقية، وجعلوا السلطات المحلية

والمسجلين العموميين يصدرّون سندات قانونية لصالحهم (والتي كان يسمونها *titulos supletorios*). ومرة ثانية جردت الصفوة السكان الأصليين لبيرو من ممتلكاتها، أو أجبرتهم على بيعها. برخص التراب. وبدلاً من أن تتحرى الحكومة السبب في عجز الفقراء عن استخدام القانون بكفاءة لصالحهم، افترضت أن القانون ليس هو المشكلة، وإنما المشكلة هي أن الفقراء أقل شأناً بصورة لصيقة بهم. ومن ثم فبدلاً من تحسين القانون، اقتلعت بعض الفقراء وبنّت أسوار منع الحرائق حول أراضيهم. وفي ١٩٢٤، أصدرت بيرو قانوناً أساسياً لحماية أبناء البلاد الأصليين من الوقوع ضحية مزيد من الحيل القانونية، بحشد الآلاف منهم في مجتمعات ريفية زراعية يحظر فيها صراحة نقل حقوق ملكية أي أرض. وإذ حمت بهذا أبناء البلاد الأصليين من الصفوة الماكورة والمخادعة، فقد حرمتهم أيضاً، وإن كان بغير قصد من الأدوات الأساسية اللازمة لخلق رأس المال.

بيد أن هذه الجيوب الريفية لم تكن تستطيع أن تضم سوى نسبة صغيرة من السكان الأصليين. وبحلول أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن العشرين، كانت الأغلبية الباقية لاتزال معرضة للمعاناة وتعيّسة، وبالتالي: يحتمل أن تشكّل طبقة متقلبة، خاصة مع الصعود المفاجئ لحركات يسارية قوية ومنظمة جيداً. وللتغلب على خطرهما، طبقت حكومة بيرو مثلها مثل حكومات كثير من بلدان العالم الثالث، برامج للإصلاح الزراعي صادرت مساحات شاسعة من الأراضي من المزارع الكبيرة ومزارع تربية الماشية الضخمة (*haciendas*)، لإنشاء ما يزيد على ستمائة تعاونية زراعية تديرها الحكومة من أجل المزارعين. ومرة ثانية كان الهدف نبيلاً: التأكد من حصول أبناء البلاد الأصليين على فرص امتلاك العقارات. وكان ما حوّل حتى هذه الجهود إلى فشل هو أن كثيرين من السكان الأصليين كانوا يكرهون العمل داخل بيروقراطيات مفروضة. وقاموا بتفتيت التعاونيات إلى قطع من الأرض أصغر ومملوكة ملكية خاصة، وتحولوا مرة أخرى إلى الترتيبات غير القانونية المألوفة والمرنة بدرجة أكبر لحماية حقوقهم التي ترسخت حديثاً. وكان ما يتعين على الحكومة أن تضعه في اعتبارها هو أنه عندما يحصل الناس في

نهاية المطاف على الملكية، تكون لهم أفكارهم الخاصة بهم عن كيف يستخدمونها ويتبادلونها. ذلك أنه إذا لم ييسر النظام القانوني تلبية احتياجات الناس وطموحاتهم، فإنهم سيخرجون من النظام جماعة.

ويقدم تاريخ بيرو درسا مهما لدعاة الإصلاح من كل الألوان السياسية. لقد فشلت البرامج الحكومية لمنح الملكية للفقراء خلال المائة وخمسين عاما الماضية، سواء اتبعت نزعة اليمين (حقوق الملكية الخاصة خلال القانون الإلزامي) أو اليسار (حماية أرض الشعب الفقير في التعاونيات التي تديرها الحكومة). إن جداول الأعمال السياسية المعوقة «لليسار مقابل اليمين» ليس لها أهمية إلى حد كبير بالنسبة لاحتياجات معظم الناس في البلدان النامية. إن هؤلاء الناس لا يخرجون عن القانون لأن القانون طبق للخصخصة أو التجميع عليهم، وإنما ببساطة لأنه لم يتصد لما يريدونه. قد تتباين رغباتهم. ففي بعض الأوقات يحتاجون لتجميع ملكياتهم، وأحيانا يحتاجون إلى تقسيمها. فإن لم يساعدهم القانون، فإنهم عندئذ سيساعدون أنفسهم خارج إطار القانون. إن ما يميز به أعداء الملكية وتكوين رأس المال في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة، لا يتمثل فيما إذا كانوا يساريين أو يمينيين، وإنما فيما إذا كانوا أصدقاء للوضع القائم أم لا. ويقتضى الأمر أن تتوقف الحكومات في البلدان النامية عن العيش على الأحكام المسبقة لأهل الغرب التي تبرز قسوة الحصار الذي صاحب خلق الملكية في بريطانيا منذ قرون مضت، أو في تجريد أهل أمريكا الأصليين من ملكيتهم بصورة دموية في كل أنحاء أمريكا الشمالية. هذه الديون المعنوية ينبغي دفعها في الغرب، وليس في الخارج. وما يتعين على الحكومات في البلدان النامية أن تفعله هو الإصغاء للكلاّب التي تنبج في مجتمعاتها المحلية الخاصة، وأن تتوصل إلى ما ينبغي لقانونها أن يقوله. وعندئذ فقط سيكف الناس عن العيش خارجه.

إن القانون الرسمي يفقد بصورة متزايدة مشروعيته؛ لأن الناس يواصلون خلق الملكية خارج متناوله. وقد أظهرت البيانات التي حصلنا عليها من الخارج أنه من ستينيات إلى تسعينيات القرن العشرين، لم ينم القطاع غير القانوني بدرجة أكبر في بيرو فقط، وإنما أيضا في غيرها من البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة. وبافتراض أن فشل القانون الإلزامي ليس ظاهرة تخص

بيرو وحدها، قمت في ١٩٩٤ بتشكيل فريق بحث خاص للتوصل إلى ما إذا كانت المؤسسات المالية الدولية قد أوردت خلال الثلاثين عاما الماضية أنباء عن تنفيذ أى برنامج ناجح وحاشد «لإضفاء الطابع الرسمي» فى العالم الثالث - برنامج تمثل فيه كل الأصول بطريقة صحيحة، وتتكامل فى نظام موحد بهدف إنتاج رأس المال. وعلى الرغم من قضاء شهور، قمنا خلالها بغربلة منهجية لسجلات الخزانة فى الولايات المتحدة والمنظمات الدولية، لم نجد شيئا يشبه نجاح البلدان المتقدمة حتى من بعيد.

وكان ما توصلنا إليه هو أنه خلال العقود الأربعة الماضية، شرعت حكومات مختلفة فى تنفيذ كثير من مثل هذه البرامج، بتخصيص مليارات الدولارات لتمويل حشد ضخ من الأنشطة المتعلقة بالملكية مثل نظم المسح ورسم الخرائط والتسجيل بالكمبيوتر. وكانت هناك سمتان رئيسيتان مشتركتان لهذه المشروعات: إجهاد عدد غير عاى منها قبل الأوان بسبب ضعف النتائج («مقايير هائلة من الخرائط الحديثة وأجهزة الكمبيوتر، لكن قليل من الملاك الرسميين الجدد»، كما أورد أحد مديري مشروع حكومى فى البرازيل): وفيما عدا بعض برامج إصدار شهادات الملكية فى ريف تايلند، لم ينجح أى من هذه الجهود فى تحويل الأصول غير القانونية لأصول قانونية. ومن المؤكد أننا لم نجد أدلة على أن الأصول كان يجرى تحويلها إلى رأس مال.

هل كان ذلك راجعا إلى أن الحكومات لا تبالى حقا؟ من المؤكد لا. ففى بيرو على سبيل المثال، حاولت الحكومة إضفاء طابع رسمى على الملكية على الأقل اثنتين وعشرين مرة فى خلال أربعمئة سنة منذ الفتح الأسباني. وكان معدل نجاحها صفرا. وبحثنا الأمر مع سلطات إصدار سندات الملكية فى بلدان نامية أخرى، وحصلنا على ردود مماثلة: لقد فشلت برامج كبرى، أو لم يكن لها سوى تأثير هامشى. ومما له دلالة ثانية، أنه لا أحد ممن تحدثنا إليهم فى تلك البلدان استطاع أن يدعى أن أى عدد له شأن من سندات الملكية المصدرة أصبح من المنقولات القابلة للاستبدال، وتم تحديده وتثبيته بطريقة تجعله جزءا من شبكة متكاملة يمكن أن يتم فيها تكوين رأس المال.

والأدلة ساحقة: فمهما بلغ اجتهد البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة فى مساعها، ومهما حسنت نواياها، ظلت هناك مسافة ضخمة بين ما

يقضى به القانون الإلزامى وما يتعين القيام به لجعل القانون فعالاً. إن القانون الإلزامى لا يكفى. ومثلما أوضح أندريه راباكزينسكى:

إن المفهوم القائل بأن مجرد إنشاء نظام قانونى مناسب سينشئ مجموعة من الحقوق القانونية للملكية التى يمكنها أن تشكل أساساً لنظام اقتصادى حديث، غير مقنع بصورة عميقة؛ لأن معظم قوانين حقوق الملكية يمكن تنفيذها بصورة هامشية فقط بواسطة النظام القانونى. إن جوهر مؤسسة الملكية هو مسألة تتعلق بالممارسات الاجتماعية والاقتصادية التى لا تتعرض للتساؤل والتى تتحقق بدون وعى إلى حد كبير، والتى ينبغي أن ترسخ جذورها فى التطورات غير القانونية. وتلك مشكلة هوبز القديمة: عندما يمثل معظم الناس للقانون، تستطيع الحكومة إنفاذه بفاعلية وبتكاليف رخيصة [نسبياً] فى مواجهة قلة من الأفراد ينتهكونه. ولكن عندما ينهار الامتثال للقانون بقدر كبير كاف، لا توجد سلطة قوية بما يكفى لتعقب كل الناس مثلما تفعل الشرطة. وفى مثل هذا الإطار، وعندما يصبح إنفاذ القانون أقل فاعلية بدرجة متزايدة، يتولد لدى الأفراد حافز لأن يتغيبوا مصالحهم، بغض النظر عن أى قيود ورقية^(٥).

وعبر التاريخ الحديث، لم تفتقر البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة لإرادة السياسية، وللميزانيات، والبيانات الدولية، أو القانون الإلزامى الموضوع بغرض إعلان هو منح غالبية المواطنين حقوقاً فى الملكية. فالمشكلة هى أنه عندما تشرع الحكومات لضمان حقوق الملكية للفقراء، فإنها تنصرف كما لو كانت ترتحل إلى مكان يوجد به فراغ فى الملكية، وكما لو كانت تهبط على سطح القمر. وتفترض أن كل ما عليها أن تفعله هو سدّ هذا الفراغ بقانون ملزم. بيد أنه لا يوجد فراغ فى معظم الحالات. فالناس يحوزون بالفعل مقادير ضخمة من الملكية من خلال الترتيبات التى لا تتمتع بحماية القانون. ورغم أن الأصول الملوكة للفقراء قد توجد خارج القانون الرسمى، فإن حقوقهم على هذه الأصول تحكمها على الرغم من ذلك العقود الاجتماعية التى صنعوها بأنفسهم. وعندما لا ينسجم القانون الملزم مع هذه الأعراف والاتفاقيات التى لا تتمتع بحماية القانون، فإن أطراف هذه الاتفاقيات سوف يمتعضون من هذا التطفل ويرفضونه.

ترسيخ جذور القانون في العقد الاجتماعي

تشكل العقود الاجتماعية غير القانونية بشأن الملكية أساس كل نظم الملكية تقريباً، وهي جزء من واقع كل بلد، حتى في الولايات المتحدة حالياً^(٦). ومثلما يذكّرنا ريتشارد بوسنر، فإن الملكية تتشكل اجتماعياً^(٧). ويعني هذا أن ترتيبات الملكية تعمل على خير وجه عندما يحقق الناس توافقاً في الرأي حول ملكية الأصول والقواعد التي تحكم استخدامها وتبادلها. وفي خارج الغرب، تسود العقود الاجتماعية غير القانونية لسبب قوٍ: فقد استطاعت أن تستند على نحو أفضل من القانون الرسمي على توافق فعلي في الرأي بين الناس بشأن كيف يتعين حكم الأصول التي يملكونها. وأي محاولة لإقامة نظام موحد للملكية لا يراعى العقود الجماعية التي تشكل أساس ترتيبات الملكية القائمة، ستتصادم مع نفس جذور الحقوق الذي يعتمد عليها معظم الناس لحيازة الأصول المملوكة لهم. وتفشل الجهود المبذولة لإصلاح حقوق الملكية؛ لأن الموظفين المسؤولين عن وضع مشروعات القواعد القانونية الجديدة لا يدركون أن معظم مواطنيهم قد أقاموا بثبات قواعدهم الخاصة عن طريق العقد الاجتماعي.

إن المفهوم القائل بأن العقود الاجتماعية تكمن وراء القوانين الناجحة يرجع إلى أفلاطون، الذي كان يعتقد أن المشروعية يجب أن تقوم على نوع ما من العقد الاجتماعي. وحتى إيمانويل كانط، كتب في بياناته المعارضة للوك، أنه يجب أن يسبق أي عقد اجتماعي، الملكية الحقيقية؛ وأن كل حقوق الملكية تنبع من الاعتراف الاجتماعي بمشروعية الحق المدعى به. ولا تقتضي مشروعية حق ما بالضرورة، أن يحدده القانون الرسمي؛ ذلك أن تأييد مجموعة من الناس لاتفاق معين بقوة كاف للتمسك به باعتباره حقاً والدفاع عنه في مواجهة القانون الرسمي.

وهذا هو السبب في أن قانون الملكية وسندات الملكية المفروضين دون استناد إلى العقود الاجتماعية القائمة يفشلان على الدوام: فهما يفتقران إلى المشروعية. ولكي يكتسبا المشروعية، ينبغي أن يرتبطا بالعقود الاجتماعية التي لا تتمتع بحماية القانون التي تحدد حقوق الملكية القائمة. بالطبع، فإن المشكلة

تتمثل في أن هذه العقود الاجتماعية مبعثرة خلال مئات الاختصاصات القضائية غير القانونية في القرى المتفرقة وفي الجوارات في المدن. والطريقة النظامية الوحيدة لإدماج هذه العقود الاجتماعية في نظام رسمي للملكية هي إقامة هيكل قانوني وسياسي، جسّر إن أردت، راسخ جيدا في الترتيبات التي لا تتمتع بحماية القانون للناس، والتي يسعددهم أن يمضوا من خلالها للانضمام إلى هذا العقد الاجتماعي الرسمي الجديد الشامل لكل شيء. ولكن ينبغي أن يكون هذا الجسر جدّ متين حتى لا ينهار ويجعل الجميع يفرون مذعورين عائدين إلى الترتيبات غير القانونية، وأن يكون جسرا عريضا على نحو يحول دون سقوط أى شخص من عليه. تلك هي الطريقة التي حقق بها الغرب ذلك، عبر مئات السنين. ويذكرنا هارولد بيرمان بما يلي:

لم يكن إضفاء طابع النظام على القانون في مجتمعات كثيرة... ممكنا إلا لأنه كان قد سبق تطوير هيكل غير رسمي للعلاقات القانونية في هذه المجتمعات... لقد نشأت التقاليد القانونية الغربية - في الماضي - عن هيكل من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية المتبادلة داخل وفيما بين المجموعات في أرض الواقع. واكتسبت الأنماط السلوكية للعلاقة المتبادلة أبعادا معيارية: تحولت العادات إلى أعراف... والأعراف إلى قانون^(٨).

وكان بناء جسر قانوني وسياسي من العقود الاجتماعية المبعثرة «في أرض الواقع» إلى قانون وطني واحد هو ما فعله يوجين هيوبر في سويسرا في منعطف القرن العشرين. فقد طوّع هيوبر المبادئ الرومانية في القانون التشريعي السويسري لتلائم الأعراف، والقواعد، وأنواع السلوك المتفرقة في كل أنحاء المدن والبلدات والمزارع في بلاده. وجمع معا كل الاتفاقات والأعراف الخاصة بالملكية في مدونة قانون واحد تكفل حقوق والتزامات الناس، اتساقا مع القواعد المحلية التي اعتادوها وكان هيوبر يحب الاستشهاد بمثل ألماني قديم، تعني ترجمته بتصريف «ينبغي أن يأتي القانون من فم الناس». وقد أبدى القانون الأمريكي مثلما رأينا في الفصل الخامس،

نفس الاحترام للعقود الاجتماعية القائمة. ولم يكن مصدر قوته متمثلاً فى تماسكه النظرى أو المهنى، وإنما فى فائدته فى أيدى السلطات التى كانت تريد تحويل الأصول غير النامية إلى أصول منتجة.

ولم يتحقق الانتقال من العلاقات غير القانونية إلى الملكية الرسمية الموحدة فى البلدان المتقدمة من فراغ. ذلك أن خلع طابع النظام على القوانين التى تقوم عليها نظم حقوق الملكية الحديثة لم يكن ممكناً إلا لأن السلطات سمحت للعلاقات غير القانونية الموجودة سلفاً بين مجموعات الناس على أرض الواقع، بأن تنسخ أحياناً القوانين الرسمية. لقد كتب بيرمان يقول إن «القانون ينمو صاعداً لأعلى من هياكل وأعراف المجتمع كله، وهو يتحرك نازلاً لأسفل من السياسات والقيم الخاصة بحكام المجتمع. إن القانون يساعد على تحقيق التكامل بين الاثنين»^(٩).

وبترسيخ جذور قانون الملكية الرسمية فى العقود الاجتماعية التى كان الناس ملتزمين بها بالفعل، حققت حكومات الغرب قبولاً شعبياً واسعاً كان مطلوباً للتغلب على أى مقاومة. وكانت النتيجة هى قيام نظام قانونى واحد للملكية. ومع تحقق ذلك، استطاعت أن تشرع فى دمج الاتفاقات والأعراف المتناثرة فى عقد اجتماعى وطنى واحد. وحيث كان مالك المنزل وجيرانه وحدهما من قبل هم الذين يستطيعون تأكيد ما إذا كان المنزل يخصه أم لا، فإنه مع قيام الملكية الرسمية، أصبح البلد بأسره يعرف أنه المالك. ذلك أن سندات الملكية الرسمية أتاحت للناس نقل ثمار عملهم من دائرة ضيقة من الاعتراف بها إلى دائرة الاعتراف بها فى سوق متوسعة. وهكذا أرست الدول الغربية الأساس لمحنة الطاقة التى تحرك سوقاً حديثة ونظاماً رأسمالياً.

لقد جعل نقل الاعتراف بالملكية من الترتيبات المحلية إلى نظام أكبر من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، الحياة وإدارة الأعمال أسهل كثيراً. فلم يعد الناس فى حاجة للاعتماد على المداينة والمراوضة الضيقة المرهقة لحماية حقوقهم فى ملكية الأصول. لقد حررتهم الملكية الرسمية من الترتيبات المحلية التى تستهلك وقتاً طويلاً واللصيقة بالمجتمعات المغلقة. وأصبحوا حينذاك

قادرين على السيطرة على الأصول المملوكة لهم. بل الأفضل من ذلك، أنهم استطاعوا بما توافر بين أيديهم من وثائق تمثيل كافية للملكية، أن يركزوا على الإمكانات الاقتصادية الكامنة للأصول التي يملكونها. ونظرا لأنه أصبح من السهل حينذاك تعيين موقع عقارات الملاك ومشروعاتهم، وأصبح فى الإمكان تحديدها على النطاق القومى، فقد الملاك طابعهم المجهول وأصبحوا خاضعين للمساءلة. وتدرجيا، هيات آليات الملكية القانونية هذه، المسرح لقيام أسواق متوسعة وخلق رأس المال على نحو يتضمن عددا ضخما من القوى الفاعلة.

متانة العقود الاجتماعية فيما قبل الرأسمالية

هل تعد العقود الاجتماعية غير القانونية السائدة حاليا فى البلدان النامية أساسا متينا على نحو كاف لخلق قانون رسمى؟ لاشك فى ذلك. فهناك حشد هائل من الأدلة على أن موظفى الحكومة يمثلون ضمنا وعلانية للعقود الاجتماعية غير القانونية عندما يعملون فى قطاع يشكو عدم كفاية رأس المال. وتشير تقارير المنظمات المانحة الدولية باستمرار، وإن كان بشكل غير مباشر، إلى الاتفاقات والأعراف التى لاتتمتع بحماية القانون. كيف استطاعت الحكومات تنفيذ برامج للتجديد الزراعى والحضرى فى الأقسام الأشد فقرا من بلدانها، بدون التوصل لاتفاق مع المنظمات التى لاتتمتع بحماية القانون المستفيدة؟ وحقيقة أن الحكومات والمنظمات المالية الدولية استطاعت مساعدة مستوطنات وضع اليد على الاستفادة من الخدمات العامة (الطرق، والكهرباء، والمياه، والمدارس)، فى تحد لقانون الملكية، هى اعتراف ضمنى بترتيبات الملكية التى لاتتمتع بحماية القانون. ومثلما لاحظ روبرت كوتر وتوماس يولن، فإن «شروط [حقوق الملكية] تكون عادة أكثر كفاءة عندما يتفق الناس عليها، منها عندما يفرضها واضعو القوانين»^(١٠).

إن العقود الاجتماعية التى لاتتمتع بحماية القانون تعتمد على توليفة من الأعراف والارتجال بما يناسب حالات محددة، والقواعد المستعارة بصورة

انتقائية من النظام القانونى الرسمى. وفى ظل الافتقار إلى حماية قانونية من الدولة فى معظم البلدان النامية، فإن القانون غير القانونى هو الذى ينظم الأصول الملوكة لمعظم المواطنين. وقد يبدو هذا متناقضا أو حتى هداما بالنسبة للقارئ الغربى الذى يؤمن بقانون واحد ينبغى إطاعته. لكن تجربتى فى زيارة عشرات من البلدان النامية والعمل فيها، أوضحت لى أن القوانين القانونية وغير القانونية تتعايش فيها جميعا. ومثلما أوضحت مرجريت جروتر ببلاغة:

إن القانون... ليس مجرد مجموعة من القواعد المنطوقة والمكتوبة أو التى أضفى عليها طابعا رسميا، والتى يتبعها الناس وهم مغمضى الأعين. بل إن القانون يمثل إضفاء الطابع الرسمى على القواعد السلوكية، التى توافق عليها نسبة عالية من السكان، والتى تعكس النزوع السلوكى، وتتيح منافع محتملة لمن يلتزمون بها. (عندما لايعترف الناس بهذه المنافع المحتملة أو لا يؤمنون بها، يتم عادة تجاهل القوانين أو عصيانها)^(١١).

وقد لاحظ باحث قانونى آخر أنه فى الغرب «ليست القاعدة التاريخية هى الاعتماد الحديث على الحكومة فى وضع القانون وإقامة النظام»^(١٢). ولأشياء جديد فى وجود قوانين متباينة داخل البلد الواحد. فقد حكمت التعددية القانونية قارة أوروبا حتى أعيد اكتشاف القانون الرومانى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ودُمج كل تيارات القانون تدريجيا فى نظام واحد منسق. ومن ثم ينبغى ألا يدهشنا أن نعرف أن النشاط غير القانونى فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة نادرا ما يكون مصادفة وإتفاقا. ففي خلال إصدار سندات الملكية الرسمية لمئات الآلاف من ملاك المنازل ومشروعات الأعمال فى بيرو، لم تصادف منظمى مطلقا مجموعة غير قانونية لم تمتثل لكل القواعد المقررة بتوافق الآراء والمحددة جيدا. وحيثما زرنا منطقة تشكو من عدم كفاية رأس المال، سواء فى آسيا أو أمريكا أو الشرق الأوسط، لم نجد مطلقا فراغا وبرارى لنضلل فيها. وعن طريق الملاحظة الدقيقة، استطعنا دوما التمييز بين أنماط القواعد. لقد وجدنا ذلك فى أسوأ الحالات، حديقة مهملة. وليس أدعانا.

ومثل أسلافها فى الغرب، ولدت القطاعات التى تشكو من عدم كفاية رأس المال فى بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة بصورة تلقائية السلالات الخاصة بها من قواعد الملكية. ولحماية حقوق الملكية الأولية بها من الآخرين، اضطرت إلى أن تشكل فيما بينها المؤسسات التى لاتتمتع بحماية القانون الخاصة بها. تذكر أن عقلك وحذك ليس هو الذى يمنحك حقوقا حصرية على أصل معين، بل العقول الأخرى أيضا التى تفكر فى حقوقك بنفس الطريقة التى تفكر بها أنت. وتحتاج هذه العقول بصورة حيوية إلى بعضها البعض لحماية أصولها والسيطرة عليها. إضافة لذلك، فإن الناس يتعين عليهم أن يجعلوا عقودهم الاجتماعية أقوى حتى من القانون الرسمى لدرح المعتدين، خاصة الحكومة. وأى شخص يشك فى قوة العقود الاجتماعية ليس عليه إلا أن يطعن على بعض هذه الحقوق غير القانونية. وسيجد أن المقاومة ضارية.

لقد أصبحت الترتيبات التى لاتتمتع بحماية القانون واسعة الانتشار على نحو يدعو للدهشة خلال السنوات الأربعين الماضية. إن التقارير الواردة عن «التكاثر السريع للقطاع غير القانوني» تبدو أمرا مألوفًا مثل أهداف كرة القدم فى الصحف فى كل مدينة فى العالم الثالث من الناحية العملية. والسبب هو أن القانون الرسمى لم يستطع أن يتسع للترتيبات التى لاتتمتع بحماية القانون المتكاثرة سريعا. ففى مجال العقارات مثلا، لم تنشأ العقود الاجتماعية غير القانونية من وضع اليد صراحة على الأملاك من قبل المهاجرين فحسب، وإنما أيضا من عدم كفاية برامج الإسكان وبرامج الإصلاح الزراعى والحضرى، والتدهور التدريجى فى برامج تحديد الإيجار، والشراء أو التآجير غير القانونى للأراضى للسكنى وللأغراض الصناعية. وقد سهلت قوى ناشطة إبرام معظم العقود الاجتماعية: «سماسرة العقارات» الذين تحركهم دوافع تجارية أو سياسية أو دينية، والذين إما أن لديهم شيئا يكسبونه من هذه المعاملات أو أنصارا يحمونهم. والقاسم المشترك بين عملائهم هو أنهم لا يستطيعون دفع تكاليف الحصول على الملكية بصورة قانونية. وفى بعض البلدان التى زرتها، تعين أفرع من القوات المسلحة ضباطا عسكريين للحصول على العقارات بصورة غير قانونية باعتبارها أحياء سكنية لضباط الصف.

بما يدعو للدهشة بدرجة أكبر، أننى رأيت سلطات بلدية مسؤولة عن إصدار سندات الملكية العقارية وعمليات التسجيل، تنظم وضع اليد غير الرسمى بهدف تزويد أعضاء نقاباتها بأرض جيدة لإقامة بيوت فيها. وقد أنشأ مستوطنة كبيرة أقيمت بوضع اليد قمت بزيارتها مؤخراً، مجلس المدينة نفسه، لتوفير بيوت لنحو ٧ آلاف أسرة من موظفى الحكومة. وفى بلد آخر، تحررت صحيفة محلية أغرتها الأدلة التى جمعناها عن الحيازات العقارية الشاسعة التى لاتحظى بحماية القانون، لمعرفة ما إذا كان المسكن الرسمى لرئيس الدولة له سند ملكية مسجل. ولم يكن له ذلك. وأطلقت الصحيفة نكتة تقول إن قوانين البلاد تصدر من مكان لا يتمتع بحماية القانون.

وبمجرد إنشاء الحقوق فى الأرض بصورة لاتتمتع بحماية القانون، يقيم المعنيون بذلك المؤسسات اللازمة لإدارة العقد الاجتماعى الذى شادوه: إذ تجتمع المنظمات غير الرسمية لمشروعات الأعمال والإسكان بصورة منتظمة، وتتخذ القرارات، وتحصل على الاستثمار فى البنية الأساسية وتشرف عليه، وتتابع الإجراءات الإدارية، وتصدر أوراق الاعتماد. وعلى نحو نموذجى، يكون لها مقر رئيسى يمكن العثور فيه على الخرائط ودفاتر الأستاذ اليدوية الخاصة بسجلات الملكية. والسمة الأكثر لفتاً للنظر فى هذه المؤسسات فى كل أنحاء العالم هى رغبتها فى التكامل مع القطاع الرسمى. وفى المناطق الحضرية، تتطور المباني ومشروعات الأعمال التى لاتتمتع بحماية القانون على مرّ الزمن حتى يصعب تمييزها عن الملكية القانونية بصورة تامة. وفى جميع البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة التى زرتها، هناك جبهة طويلة تفصل ما يتمتع بحماية القانون عما لا يتمتع بها. وعلى امتدادها، هناك نقاط تفتيش حيث تتصل المنظمات التى لاتتمتع بحماية القانون بالمسؤولين الحكوميين: إذ تجاهد الأولى لاكتساب القبول الرسمى، ويحاول الآخرون تحقيق ما يشبه النظام^(١٣). وعادة، يتعين على المنظمات التى لاتتمتع بحماية القانون أن تقطع شوطاً طويلاً للتعايش مع بعض طبقات الحكومة، ربما على المستويين البلدى والمحلى. وتحاول معظم المجموعات أن تتفاوض للحصول على مكن قانونى لحماية حقوقها، فى حين يصل آخرون بالفعل إلى نوع ما من الاتفاق يثبت

وضعهم خارج قانون التيار الرئيسي. وهناك إيماءة أخرى تشير إلى حقيقة أن الذين لا يتمتعون بحماية القانون يريدون أن يحتموا بالقانون من الغوائل، هي: إن القادة الملتزمين والدبلوماسيين الذين يختارونهم للتفاوض نيابة عنهم، نادرا ما يتفقون مع نمط زعماء الشوارع.

الإصغاء للكلاب التي تنبح

ربما كان معظم حكومات البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة مستعدا للتسليم بأن السبب في أن القطاعات التي لا تتمتع بحماية القانون بها تنمو بصورة أسية لا يرجع إلى أن الناس تخلو فجأة عن احترامهم للقانون، وإنما يرجع إلى أنه ليس أمامهم من بديل لحماية ملكيتهم وكسب وسائل رزقهم غير ذلك. وبمجرد أن تعترف الحكومات بحقيقة الحياة الحديثة هذه، يتعين عليها أن تبرم صفقة. وعلى الرغم من أن الذين لا يتمتعون بحماية القانون متأهبون بالفعل لعبور الجسر للوصول إلى الاعتراف القانوني بهم، فإنهم لن يفعلوا ذلك إلا إذا جعلت حكوماتهم هذه الرحلة سهلة وأمنة ورخيصة. إن ملاك الأصول في القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون منظمون بصورة جيدة نسبيا بالفعل؛ كما أنهم «ملتزمون بالقانون»، رغم أن القوانين التي يلتزمون بها ليست قوانين الحكومة. ويقع على الحكومة أن تتوصل إلى ماهية هذه الترتيبات التي لا تتمتع بحماية القانون، ثم أن تجد الطرق اللازمة لإدماجها في نظام الملكية الرسمي. ولكنها لن تستطيع القيام بذلك بأكثراء رجال القانون في المكاتب الموجودة في العمارات العالية في دلهي وجاكارتا وموسكو لوضع مشاريع قوانين جديدة؛ وإنما عليها أن تخرج للشوارع والطرق وأن تصغى للكلاب التي تنبح.

إن القانون السائد حاليا في الغرب لم يأت من المجلات المغطاة بالغبار أو من كتب الحكومة الرسمية عن النظام الأساسي. إنه كائن حي، ولد في العالم الحقيقي ورعاه الناس العاديون قبل أن يقع في أيدي رجال القانون المحترفين بزمان طويل. إذ يتعين اكتشاف القانون قبل إضفاء طابع النظام عليه. ومثلما يذكرنا الباحث القانوني برونو ليونى، فقد:

نقاسم الرومان والإنجليز فكرة أن القانون هو شيء يتعين اكتشافه أكثر مما يتعين سنّه، وأنه ليس هناك أحداً قوى فى مجتمعه بدرجة تجعله فى وضع يمكنه من جعل إرادته هى قانون البلاد. وقد عهد بمهمة «اكتشاف القانون فى البلدين إلى مشورة الفقهاء والقضاة على التوالى - وهما فئتان من الناس مماثلتان للخبراء العلميين الحاليين، على الأقل لحد ما»^(١٤).

و«اكتشاف القانون» هو على وجه التحديد ما كنا نفعله - أنا وزملائي - فى بلدان مختلفة خلال الخمسة عشر عاما المنقضية، كخطوة أولى تجاه مساعدة الحكومات فى البلدان النامية على إقامة نظم رسمية للملكية تشمل الناس جميعا. وعندما نتخى جانبا قوالب هوليود النمطية عن أهل العالم الثالث والشيوعيين السابقين باعتبارهم تشكيلة متنافرة من الباعة الجائلين، ورجال حرب العصابات ذوى الشوارب، والعصابات السلافية، ستجد فروقا قليلة بين ثقافات الغرب وثقافات الأماكن الأخرى فيما يتعلق بحماية الأصول والقيام بالأعمال. وقد أصبحت مقتنعا بعد سنوات من دراسة الأوضاع فى بلدان كثيرة، أن معظم العقود الاجتماعية التى لا تتمتع بحماية القانون عن الملكية متشابهة بصورة أساسية مع العقود الاجتماعية الوطنية فى البلدان الغربية. فكلها ينزع إلى احتواء بعض القواعد الضمنية أو الصريحة عن: من يملك الحق فى ماذا، وحدود هذه الحقوق والمعاملات؛ كما تشملمان أحكاما لتسجيل ملكية الأصول، وإجراءات لإنفاذ حقوق وإدعاءات الملكية، ورموزا لتعيين أين تقع الحدود، وقواعد تحكم المعاملات، ومعايير لتقرير ما العمل الذى يتعين التصريح به، وما يمكن القيام به بدون تصريح، ومبادئ توجيهية لتحديد أى وثائق للتمثيل هى السليمة، وأدوات لتشجيع الناس على الوفاء بالعقود واحترام القانون، ومعايير لتحديد درجة إغفال الهوية المصرح به فى كل معاملة.

لذلك، فإنه من العدل افتراض أن الناس مستعدون للتفكير فى حقوق الملكية بطرق متشابهة جدا. وينبغى ألا يمثل ذلك مفاجأة كبيرة؛ فالاتفاقات التى يقرها الناس تنشر على الدوام قياس التمثيل من مكان لآخر بصورة تلقائية. وبالإضافة لذلك، فإن الهجرات الحاشدة فى الأربعين سنة الماضية، ناهيك عن الثورة فى الاتصالات على النطاق العالمى، تعنى أننا ننقاسم مزيدا ومزيدا من

القيم والطموحات. (فسكان العالم الثالث يشاهدون التلفزيون هم أيضاً؛ كما يذهبون للسينما، ويستخدمون التليفونات، ويرغبون فى أن يحصل أبناؤهم على تعليم جيد ويصبحوا متعلمين فى مجال الكمبيوتر). ومن المحتم أن تكون العقود الاجتماعية غير القانونية الفردية فى نفس البلد متماثلة أكثر منها متباينة^(١٥).

والمشكلة فى العقود الاجتماعية غير القانونية هى أن تمثيلها للملكية لم يقنن بما يكفى، ولم يصبح [منقولاً وقابلاً للاستبدال] على نحو يجعل له دائرة واسعة من الاستخدامات خارج محيطية الجغرافى الخاص. إن أنظمة الملكية غير القانونية أنظمة مستقرة وهادفة بالنسبة لمن يشكلون جزءاً من المجموعة، لكنها تعمل على مستوى أدنى من النظام وليس لها تمثيل يتيح لها التفاعل بسهولة فيما بينها. ومرة ثانية، فإن هذا يشبه ماضى الغرب عندما لم تكن سندات الملكية الرسمية موجودة. فقبل القرن الخامس عشر فى أوروبا مثلاً، لم يكن معظم القواعد الرسمية الخاص بكيف يجب أن تتم المعاملات المتعلقة بالملكية، مسجلاً ومعروفاً إلا من خلال التقاليد الشفهية، حتى على الرغم من أن بعض السجلات المتفرقة قد وجدت فى بعض أنحاء ما يشكل ألمانيا حالياً.

ويرى كثيرون هذه الشعائر والرموز باعتبارها أسلاف سندات الملكية الرسمية والأسهم والسجلات الحالية. وحسبما قال فيلسوف ومؤرخ القرن الثامن عشر البريطانى ديفيد هيوم، فإنه فى أجزاء معينة من أوروبا فى عصره، كان ملاك الأرض يتبادلون الأحجار والثرى فيما بينهم للاحتفال بذكرى تبادل الأراضى؛ وكان المزارعون يرمزون لبيع القمح بتسليم مفتاح المخزن الذى وضع فيه. وكانت المخطوطات المكتوبة على الرقّ والتي تشهد على معاملات الملكية فى الأراضى يتم ضغطها على الأرض كشعيرة ترمز للاتفاق. وبالمثل، فقد نص القانون الرومانى قبل قيام الإمبراطورية الرومانية بقرون، على أنه يتعين نقل العشب والفروع من يد ليد لترمز للانتقال القانونى لحقوق الملكية. وكان لدى اليابانيين أيضاً، شعائرهم لإثبات المعاملات؛ فعلى سبيل

المثال، كان ملاك الأراضي فى منطقة جوما كودزوك، خلال فترة توكوجاوا من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، عندما كان القانون يحظر بيع الأراضي الزراعية، ينقلون ملكية أصولهم على أية حال، ويثبتون هذه الصفقات التى لاتتمتع بحماية القانون فى وثائق مكتوبة يختمها أقارب البائع وزعيم القرية.

وتم تدريجيا جمع الوثائق المكتوبة فى سجلات محلية. واستغرق الأمر وقتا قبل أن توضع الوثائق التمثيلية هذه فى شكل دفتر. ولكن لم يتم تنميط سجلات الملكية المختلفة هذه والعقود الاجتماعية التى تحكمها، ولم يجر جمعها معا لإنشاء نظم رسمية متكاملة للملكية مثل تلك المتوافرة للغرب حاليا، إلا خلال القرن التاسع عشر فقط.

إن البلدان الشيوعية السابقة وبلدان العالم الثالث تقف على وجه الدقة حيث كانت تقف أوروبا واليابان والولايات المتحدة قبل مائتى عام مضت. ويتعين عليها مثل الغرب أن تحدد وتجمع وثنائى تمثيل الملكية القائمة المبعثرة فى كل أنحاء بلدانها، ودمجها فى نظام متكامل واحد لجعل الأصول المملوكة لكل مواطنيها [منقولة وقابلة للاستبدال]، ولإنشاء الجهاز البيروقراطى والشبكة البيروقراطية المطلوبين لإنتاج رأس المال.

حلّ شفرة القانون غير القانونى

عندما واجهنا - أنا وزملائى - للمرة الأولى مهمة إدماج ترتيبات الملكية قبل الرأسمالية فى نظام رسمى رأسمالى للملكية، كان الغرب هو ملهمنا. ولكن عندما شرعنا فى البحث عن المعلومات المتعلقة بكيف أدمجت البلدان المتقدمة ترتيباتها التى لاتتمتع بحماية القانون فى القانون، لم نجد مخططا أصيلا نستند إليه. ولسوء الحظ، فإن الوثائق قليلة عن كيف حددت البلدان الغربية فئات البراهين غير القانونية للملكية التى تشكل القاسم المشترك لنظام الملكية الرسمى المعيارى. ويشرح جون باين الوضع الذى كان قائما فى إنجلترا:

من الواضح أن البرهان الرسمي على سند الملكية باعتباره جزءاً من المعاملات التجارية على الأرض، هو تطور حديث في القانون الإنجليزي، ولكن المعلومات الراهنة كانت جدّ شحيحة بما يجعل مثل هذا الفرض تجريبياً فحسب. ومما يشكّل مصدراً للسخط بالنسبة للمؤرخين أنه في حين تم تأريخ الأحداث الكبرى بالتفصيل، فإنه نادراً ما يشعر الناس بأنه من الضروري تدوين تسجيل للأنشطة المألوفة اليومية التي ينخرونها فيها. فسيبدو القيام بذلك أمراً غير ضروري وتأفها، لأنه لا أحد يريد تذكيره بما هو واضح. وبالتالي فإن كل ما يعتبره المرء أمراً مسلماً به في عصر ما، يصبح مجهولاً في عصر تال، وتتطلب إعادة تشكيل الإجراءات العادية تجميعاً مرهقاً للمصادر التي تركت لغرض مختلف تماماً. ويصدق هذا على وجه التأكيد بالنسبة إلى ممارسات محرري وثائق نقل الملكية لأنه حتى القرن [التاسع عشر] لم يكن لدينا سوى معرفة محدودة بكيف كانوا يقومون عملياً بعملهم^(١٦).

واهتماماً بالسجلات التاريخية القليلة التي استطعنا الوصول إليها، وبسد الثغرات ببحوثنا التجريبية التي أجريناها، طوينا طريقنا خلال العوالم غير القانونية، وتعلمنا في النهاية كيفية التوصل إلى العقود الاجتماعية التي تشكل أساس حقوق الملكية هناك. واكتشاف هذه الترتيبات لا يشبه البحث عن أدلة الملكية في نظام قانوني رسمي، حيث تستطيع الاعتماد على نظام إمساك السجلات الذي أنشأ على مرّ السنين مساراً ورقياً، «سلسلة سندات التملك» التي تتيح لك البحث عن الأصل. وسلسلة سندات التملك غامضة، في أحسن الأحوال، بالنسبة للغريب، في القطاع الذي يشكو من عدم كفاية رأس المال. فالقطاع الذي يشكو من عدم كفاية رأس المال ليس لديه، ضمن أشياء أخرى، بيروقراطية مركزية للتسجيل والتتبع، وهي لبّ المجتمع الرسمي. وما يتوافر للناس في القطاع الذي يشكو من عدم كفاية رأس المال، هو تفاهات قوية وواضحة وتفصيلية فيما بينهم عن يملك ماذا.

ومن ثم، فإن الطريق الوحيد للتوصل إلى العقد الاجتماعي التي لا يتمتع بحماية القانون الخاص بالملكية في منطقة محددة، هو الاتصال بمن يعيشون بموجبه ويعملون. وإذا كانت الملكية مثل شجرة، فإن نظام الملكية الرسمي متسلسل زمنياً، بمعنى أنه يتيح لك تعقب أصول كل ورقة للوراء إلى وقت

ظهور الغصين والفرع والجذع وأخيرا الجذور. أما النهج الذى يتبع تجاه بحث الملكية غير القانونية، فلا بد أن يكون تزامنيا: فالطريقة الوحيدة التى يستطيع بها غريب أن يحدد: أى الحقوق تخص من، هى عن طريق أخذ شرائح من الشجرة بزوايا قائمة، وصولا إلى الجذع لتحديد حالة كل فرع وورقة بالنسبة لما يجاورها.

ويتطلب الحصول على معلومات متزامنة عملا ميدانيا: الذهاب مباشرة إلى تلك المناطق التى لا يتم فيها تسجيل الملكية رسميا (أو تسجل بصورة سيئة) والاتصال بالسلطات القانونية وغير القانونية المحلية؛ للتوصل إلى ماهية ترتيبات الملكية. وليس هذا بمثل الصعوبة التى يبدو عليها. وعلى الرغم من أن التقاليد الشفوية قد تسود فى المناطق النائية الريفية فى بعض البلدان، فإن معظم الناس فى القطاع الحضرى الذى يشكو من عدم كفاية رأس المال توصلوا إلى طرق لتمثيل ملكيتهم فى شكل مكتوب حسب القواعد التى يلتزمون بها، والتى تكون الحكومة، عند مستوى ما، مضطرة لقبولها.

ففى هاييتى مثلا، لم يكن أحد يعتقد أننا سنجد وثائق تثبت تمثيل حقوق الملكية. إن هاييتى من أفقر بلدان العالم؛ ٥٥ فى المائة من سكانها أميون. ومع ذلك، فبعد مسح واسع فى مناطق هاييتى الحضرية، لم نجد أرضا غير قانونية واحدة، ولا كوخا أو مبنى، لايتوافر لملكه وثيقة واحدة على الأقل يدافع بها عن حقه - حتى «حقوقه بوضع اليد» (انظر الشكل (٦ - ٢) بالنسبة لمجموعة مختارة من سندات الملكية غير الرسمية فى هاييتى). وفى كل مكان زرناه من العالم، كان لدى معظم الملاك غير الرسميين شئ ما من صنع الإنسان يمثل ويجسد حقه المدعى به فى الملكية. وعلى أساس هذا التمثيل غير القانونى، وكذلك السجلات واللقاءات، استطعنا فى كل مكان أن نستخلص العقود الاجتماعية التى تشكل أساس الملكية.

وعلى الرغم من أن المصادر غير القانونية للمعلومات اللازمة لتحديد اتفاقات الملكية مهمة، فهناك أيضا مصادر رسمية وقانونية. ونادرا ما يعي السياسيون على مستوى القمة المدى الذى يرتبط به الناس عند المستويات

الإدارية الأدنى للحكم باستمرار بالقطاع غير الرسمي. ويتعين على السلطات البلدية، والمخططين الحضريين، ومسؤولي الصرف الصحي، ورجال الشرطة، وكثيرين غيرهم أن يضعوا تقييمات رسمية لدى عدم قانونية المستوطنات غير الرسمية، أو مجموعات مشروعات الأعمال الجديدة غير الرسمية التي تنمو سريعا باستمرار في جميع المناطق. لقد تعلمنا كيفية قراءة الوثائق الرسمية لاكتشاف المناطق التي تسودها العقود الاجتماعية التي لا تتمتع بحماية القانون.

وبمجرد أن تعرف الحكومات أين تبحث عن التمثيل غير القانوني وتضع يدها عليه، فإنها تجد الطريق الصحيح الذي يؤدي إلى العقد الاجتماعي. إن التمثيل ينشأ نتيجة لوجود مجموعة محددة من الناس توصلوا إلى توافق للآراء يحترمون حول من يملك ماذا، وما الذي يستطيع كل مالك أن يفعله بملكه. ولا تتطلب قراءة التمثيل نفسه واستخلاص معناه، الحصول على شهادة في علم الآثار القديمة. وهو لا يتضمن شفرات غامضة ينبغي حلها. لقد كتب الناس ذوى المقاصد الأمنية والتي تشبه مقاصد رجال الأعمال هذه الوثائق؛ ليوضحوا بصورة مطلقة لكل المعنيين الحقوق التي يدعونها على أصول محددة يسيطرون عليها. إنهم يريدون إبلاغ مشروعية حقوقهم، وهم مستعدون لتقديم أكبر قدر ممكن من الأدلة المؤيدة لذلك. ووثائق تمثيل ملكيتهم ليس بها شيء تخفي؛ فقد قصد بها التعريف بماهيتها. وليس هذا واضحا على هذا النحو على الدوام؛ لأنه للأسف، عندما نتعامل مع الفقراء ننحو إلى الخلط بين الافتقار إلى مرفق مركزي لإمسك الدفاتر وبين الجهل. ومثلما خلص جون ب. باولسون بحق في «قصة الأرض» The Story of Land، فإنه حتى في المناطق الريفية البدائية من البلدان النامية، كان الناس أنفسهم هم أشد المدافعين عن أنفسهم، واستطاعوا دائما تمثيل أنفسهم بذكاء^(١٧).

وعندما تحصل الحكومات على الأدلة الوثائقية للتمثيل، فإنها تستطيع عندئذ أن «تفككها» لتحديد المبادئ والقواعد التي تشكّل العقد الاجتماعي الذي يبقى عليها. وبمجرد أن يفعل دعاة الإصلاح ذلك، ستتوافر لهم كل

الأجزاء الرئيسية المهمة للقانون غير القانوني. وتصبح المهمة التالية هي تقنينها - تنظيمها في نظام أساسي رسمي مؤقت؛ حتى يمكن فحصها ومقارنتها بالقانون الرسمي القائم. وتقنين النظم الفضفاضة ليس مشكلة هو أيضا. والواقع، أنه لا يختلف كثيرا عن الإجراءات الحكومية لتوحيد النصوص القانونية داخل البلدان (مثل القانون التجارى الأمريكى الموحد) أو بين البلدان على مستوى دولى (مثل كثير من القوانين الملزمة المتكاملة التى وضعتها الاتحاد الأوروبى أو منظمة التجارة العالمية). ويستطيع قادة الحكومات عن طريق مقارنة القوانين القانونية بالقوانين غير القانونية تبين الكيفية التى يتعين بها تعديل كل منهما ليتلاءما معا، وبعد ذلك يتم وضع إطار تنظيمى للملكية - الأساسى الوطيد للقانون بالنسبة لكل المواطنين - والذى يعد بصورة أصيلة مشروعا ويقبل التنفيذ ذاتيا، لأنه يعكس الواقع القانونى وغير القانونى على حد سواء. وذلك هو الطريق الذى تتصدى به البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة للتحدى القانونى، وكان ذلك فى الأساس هو الكيفية التى تم بها وضع القانون الغربى: بالتخلى تدريجيا عما هو غير مفيد وغير قابل للتطبيق واستيعاب ما يجدى.

وإذا كان كل هذا يبدو كمغامرة أنثروبولوجية أكثر منه أساسا للإصلاح القانونى، فإن ذلك يرجع إلى أن المعارف عن الفقراء كان يحتكرها الأكاديميون والصحفيون والنشطاء الذين تحركهم الأهواء أو الفضول الفكرى وليس حقائق الإصلاح القانونى ومقتضياته. أين كان رجال القانون؟ لماذا لم يلقوا نظرة فاحصة مدققة على القانون والنظام اللذين انتجتهما الشعب الذى ينتميان إليه؟ الحقيقة أن رجال القانون فى هذه البلدان جدّ مشغولين بدراسة القانون الغربى وتطويره. لقد درسوا أن الممارسات المحلية ليست القانون الأصل، وإنما هى مجال رومانسى للدراسة يحسن تركه للمتخصصين فى الفولكلور. ولكن إذا أراد رجال القانون أن يلعبوا دورا فى وضع القوانين الجيدة، يجب أن يخرجوا من مكاتبهم إلى القطاع غير القانونى، وهو المصدر الوحيد للمعلومات التى يحتاجونها لإقامة نظم قانونية رسمية مشروعة حقا. وبدراسة

«قانون الشعب» هذا وفهم منطقته، يستطيع دعاة الإصلاح إدراك ما يحتاجونه لوضع نظام قانونى ذاتى التنفيذ.

وعندما تفعل الحكومات ذلك، ستلمس بالمعنى الحرفى العقد الاجتماعى. إذ ستتوافر لها المعلومات المطلوبة لإدماج الفقراء وممتلكاتهم فى إطار قانونى، حتى يستطيعوا فى النهاية أن يبدأوا فى أن تكون لهم مصلحة فى النظام الرأسمالى. ولكن تنفيذ الإصلاح القانونى يعنى العبث بالوضع القائم، مما يجعل منه مهمة سياسية كبيرة.

الجزء الثانى: التحدى السياسى

لم يخطط أحد التطور من النظم الإقطاعية ونظم الوقف الكنسى إلى نظم الملكية الحديثة التى توجد فى الغرب اليوم. بيد أنه على طريق التطور الطويل نحو الحداثة، فى تلك المراحل من الرحلة التى شرع فيها دعاة الإصلاح فى تنفيذ برامج عامدة لجعل الملكية أسهل منالاً لدائرة أوسع من المواطنين، نجحت هذه البرامج بسبب دعم استراتيجيات سياسية أحسن التفكير فيها. وهذا ما فعله توماس جيفرسون فى فيرجينيا فى نهاية القرن الثامن عشر، عندما زاد الطابع «المنقول للملكية وقابليتها للاستبدال»، بإلغاء ممارسة حبس الممتلكات (عدم القدرة على نقل الملكية خارج الأسرة)، إلى جانب أشياء أخرى. وعندما هيا شتاين وهاردنبرج المسرح لحقوق ملكية شاملة فى ألمانيا فى بداية القرن التاسع عشر، وعندما بدأ يوجين هيوبر فى سويسرا فى بداية القرن العشرين، فى إدماج كل نظم الملكية المبعثرة فى بلاده، استخدموا بالمثل استراتيجيات جرى تخطيطها بحرص للعصف بثكنات الأمر الواقع. وتأكد من أنهما مسلحان بتشريع موجه بذكاء يتيح للحكومة أن تشعل ثورات يدعمها الشعب وخالية من الدماء ولايمكن وقفها.

لماذا تحتاج إلى استراتيجية سياسية حالياً؟ من يمكنه أن يقف ضد إلغاء الفصل العنصرى القانونى الجائر على نحو باد للعيان؟ الواقع أن قلة

ستعارض الحاجة إلى الإصلاح. ولكن أقلية ضئيلة وقوية سيحدثها حدسها بأن الإصلاح قمين بإثارة الاضطرابات في المكامن التي تحتلها، وستقاوم في صمت ومكر. وهناك أيضا مشكلة متصلة بذلك: إن كثيرا من النظم الأساسية التي تشكل سدّا يحول بين أغلبية الناس وبين رأس المال، قد تحتوى أيضا على أحكام لحماية المصالح الحيوية للمجموعات القوية. إن فتح أبواب الرأسمالية أمام الفقراء لن يكون في مثل بساطة إطلاق بولدورز خلال أكوام من القمامة. إنه أكثر شيها بإعادة ترتيب آلاف الفروع والأغصان في عش نسر ضخّم - بدون إثارة النسر. وعلى الرغم من أن إعادة الترتيب هذه لن تفرض سوى إزعاج قليل على هذه الأقلية الضئيلة، بالمقارنة بالمنافع التي ستتحقق على النطاق الوطني، والترتبة على توصيل رأس المال إلى الفقراء، فلن يرى هذا المتأثرون بالتغيير ما لم تحرك الإصلاح مبادرة سياسية قوية لها رسالة تحتشد لمساندتها أعداد غفيرة.

ومن الواضح، أن هذا عمل قوى فاعلة سياسية محنكة لديها الحق اللازم لإعادة ترتيب عش النسر دون أن تخذشها مخالبه. إنها الوحيدة التي في وضع يهيئ لها الجمع بين التغيير من أجل الأغلبية واستقرار الأقليات الحذرة في نفس الوقت. ويتعين على استراتيجية رسملة الفقراء أن تحقق تكامل نظامين للملكية متناقضين فيما يبدو داخل نفس الكيان القانوني. ولكي ينجح ذلك، يتعين على رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء والذي لا يعد مجرد تكنوقراطي، أن يتولى المسؤولية ويجعل إضفاء الطابع الرسمي أحد أعمدة سياسة الحكم. ذلك أنه عند أعلى مستوى سياسى فقط، يستطيع الإصلاح أن يحظى بدعم ساحق وأن يتغلب على القصور الذاتى العنيد للوضع القائم. والمستوى الأعلى من الحكم فقط هو الذى يستطيع منع البيروقراطية من التقاتل فيما بينها، ومنع الصراعات السياسية من أن تشل تقدم الإصلاح. وعندما يشرع بلد ما فى إحداث تغيير أساسى، سواء كان ذلك لتثبيت النقود، أو لخصخصة الهيئات الحكومية، أو لفتح المدارس لكل الأعراق، يتقدم رئيس الدولة لتولى المسؤولية. فلاريب أن تحرير الفقراء يندرج ضمن مسؤوليات زعيم الأمة.

لقد علمنا التاريخ والخبرة الشخصية أنه لإحداث ثورة فى الملكية، يتعين على القائد أن يقوم بثلاثة أشياء محددة على الأقل: تبنى منظور الفقراء، وتحييد واستمالة الصفوة، والتعامل مع البيروقراطيات القانونية والفنية التى تعتبر القيمَ حالياً على الناقوس الزجاجى.

تبنى منظور الفقراء

إن الجميع سيستفيدون من عولة الرأسمالية داخل البلد، لكن أوضح وأكبر مستفيد هو الفقراء. وإذا ضمن القائد وقوف الفقراء إلى جانبى، من نيته فى الإصلاح تكسب نصف المعركة على الأقل. وستجد أى معارضة أنه من المستحيل عليها التصدى لرئيس الدولة ومعظم الناس. ولكن لكى ينتصر الرئيس، فإن عليه أن يجمع الحقائق اللازمة للدفاع عن قضيته. ويتضمن ذلك القيام ببحوث أصيلة: ذلك أن على دعاة الإصلاح أن يضعوا أقدامهم فى أحذية الفقراء ويمشوا فى شوارعهم. إذ لاتتضمن الإحصاءات الرسمية المعلومات التى يحتاجونها. ولايمكن التعرف على الحقائق والأرقام إلا من خارج الناقوس الزجاجى.

عندما بدأت دراسة إمكانية إتاحة الفرص للفقراء للحصول على الملكية الرسمية فى بيرو فى ثمانينيات القرن العشرين، أكدت لى كل مؤسسة قانونية كبيرة استشرتها أن إقامة مشروع أعمال رسمى للحصول على رأس المال لن يستغرق سوى بضعة أيام قليلة. كنت أعرف أن هذا صحيح بالنسبة لى وبالنسبة للمحاميين العاملين معى، لكن كان لدى إحساس باطنى بأنه ليس صحيحاً بالنسبة للأغلبية من أهل بيرو. لذلك قررت أنا وزملائى إقامة مصنع للملابس يضم ماكيتى خياطة فى مدينة الأكواخ فى ليما. ولتجربة السيرة من وجهة نظر الفقراء، استخدمنا ساعة ميفاتية لقياس مقدار الزمن الذى يتعين على منظم مشروع نموذجى فى ليما أن ينفقه ليشق طريقه مع البيروقراطية. واكتشفنا أنه لكى يصبح العمل قانونياً، فإن الأمر يستغرق أكثر من ثلاثمائة يوم والعمل ست ساعات يومياً. والتكلفة: تبلغ اثنين وثلاثين مثل الحد الأدنى

الشهري للأجر. وأجرينا تجربة مماثلة للتوصل إلى ما يستغرقه شخص يعيش في مستوطنة إسكان غير قانونية، اعترفت الحكومة بالفعل ببقائها، للحصول على سند ملكية قانوني لبيت. وتطلب الحصول على موافقة بلدية ليما وحدها - وهي مجرد هيئة واحدة من إحدى عشرة هيئة حكومية معنية - ٧٢٨ خطوة بيروقراطية (انظر الشكل ٦ - ٣). وأكد هذا ما كنت أشك فيه منذ البداية: إن معظم البيانات العرفية يعكس مصالح أولئك الذين يعيشون داخل الناقوس الزجاجي، مثل المحامي الذي استشرته. وهذا هو السبب في أن الناقوس الزجاجي لا يمكن رؤيته إلا من الخارج وبالنظر لدخله - من منظور الفقراء.

وبمجرد حصول الحكومة على هذه البيانات، تستطيع أن تفسر نيتها بطريقة يستطيع الفقراء فهمها والإرتباط بها. ونتيجة لذلك، فإنهم يؤيدون بحماس جدول أعمال الإصلاح. ويصبح الفقراء أكفأ جهاز علاقات عامة يدعو للإصلاح، موفرا تغذية مرتدة من الشوارع لضرورة لاستمرار البرنامج في مساره.

وهذا هو ما حدث في بيرو. فمنذ ١٩٨٤ إلى ١٩٩٤، وجهت أنا وزملائي كل جهودنا لإعلام الرأي العام بمنافع رفع الناقوس الزجاجي (كنا نسمى ذلك حينذاك «إضفاء طابع رسمي»). وكان هدفنا هو أن تثبت للسياسيين أن هناك توافقا وطنيا مستترا في الرأي على الإصلاح، وأن إضفاء طابع رسمي على الأصول التي يملكها الفقراء هو استراتيجية ظافرة من الناحية السياسية. وبحلول أواخر ثمانينيات القرن العشرين، أكد الاقتراح ذلك: فقد حظى الاقتراح الذي قدمناه بتغيير نظام الملكية الرسمي بموافقة تبلغ تقريبا ٩٠ في المائة. ومع رقم مثل هذا، لا يدعو للدهشة أنه عندما عرضت الأجزاء الأولى من التشريع واللوائح التي وضعت منظمتي مشروعاتها، من أجل إقرارها رسميا، على الكونجرس في بيرو في ١٩٨٨ وأوائل ١٩٩٠، تم اعتمادها بالإجماع. وخلال حملة انتخابات الرئاسة في ١٩٩٠، تبنى جدول أعمال إضفاء الطابع الرسمي، كل المرشحين، بمن فيهم ماريو فارجاس لوزا، الروائي ومرشح التحالف بين الأحرار والمحافظين، وألبرتو فوجيموري، الحصان الأسود الشعبي، والذي فاز في النهاية، إلى جانب الرئيس الاشتراكي الراحل آلان جارسيا. وحتى في الوقت الحالي، وعلى الرغم من أن جهود التنفيذ كانت

غريبة الأطوار وغير كاملة للغاية، فإن إضفاء الطابع الرسمى لايزال عنصرا لا نزاع عليه وثابت فى المشهد السياسى فى بيرو.

ومع تأييد الحقائق والأرقام والرأى العام للإصلاح، تصبح الحكومة فى وضع يؤهلها لطرح قضية الفقر كلها بصورة مثيرة فى جدول أعمالها من أجل تحقيق النمو الاقتصادى. إن تخفيف عبء الفقر لم يعد يعتبر قضية إحسان، يمكن الاضطلاع بها إذا، وعندما، يصبح ذلك ممكنا. على النقيض من ذلك، إن مستقبل الفقراء يمكن أن يحتل حاليا قمة برنامج الحكومة لتحقيق النمو.

تحييد واستمالة الصفوة

بمجرد الكشف عن الإمكانيات الاقتصادية الكامنة للفقراء - أكبر جمهرة فى الأمة - واتضح تأييدهم للإصلاح، يحظى دعاة الإصلاح باهتمام الصفوة. وتلك هى اللحظة الملائمة لتحطيم الوهم الذى يراودها عن أن رفع الناقوس الزجاجى لن يفيد سوى الفقراء. إن سدّ الفجوة بين الفقراء لا يقتصر على تحقيق مصلحة اجتماعية عامة فحسب. وذلك أن هذا النوع من التكامل القانونى يمكن أن يفيد تقريبا جميع مجموعات المصالح فى البلاد. ومثلما يجمع دعاة الإصلاح الحقائق والأرقام للظفر بتأييد الفقراء، يتعين عليهم أيضا استخدام حقائق وأرقام أخرى لاكتساب مساندة أصحاب المصالح الراسخة. فلا بد أن تساند الصفوة الإصلاح، ليس بدافع الوطنية أو الأثرة، ولكن لأنه يوسع أيضا مواردها ويدخلها.

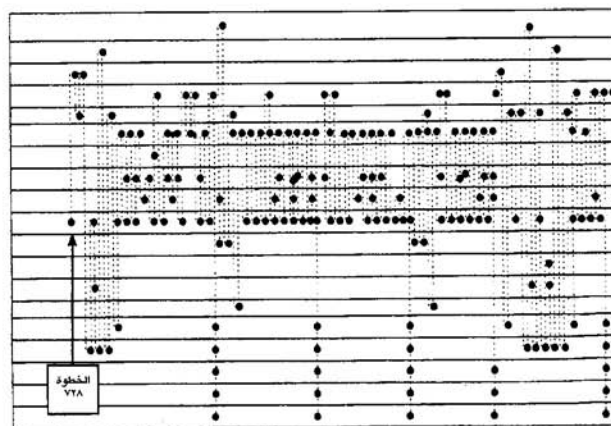
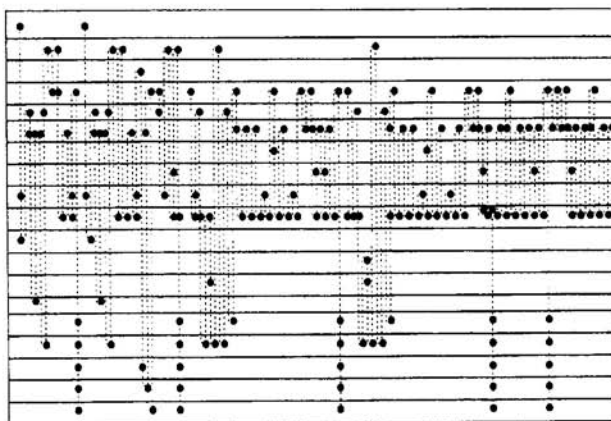
فعلى سبيل المثال، فإن إدماج القطاع غير القانونى داخل القانون سيتيح الفرصة لتنفيذ برامج حاشدة للإسكان منخفض التكلفة الذى يزود الفقراء بالمانزل التى ليست فقط أفضل بناء وإنما أيضا أرخص كثيرا مما كانوا يبنونه بأنفسهم فى القطاع غير القانونى. ذلك أن إقامة بيت فى عالم القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون المقلوب رأسا على عقب، يعادل أن تبدأ إرتداء ملابسك بالحاءء أولا، ثم تلبس جواربك. تأمل ما يتطلبه الأمر من مهاجر جديد من

شكل (٦ - ٣) ٧٢٨ خطوة بيروقراطية تتطلبها بلدية ليما للحصول على سند ملكية قانوني لبنت في مستوطنة للإسكان تم الترخيص به.

العدد	مكتب العمدة
مدير	مكتب البلدية
فروع الاجتماعات	
الوزارة الفنية	
التقني	مكتب التخصيص
رئيس شعبة	
لجنة خاصة	
مهندس فني	
فني قانوني	مكتب الحضرة
إدارة فنية	
مخرج	
قسم في البلدية	
مستشار	
فني بالبلدية	استقبال
مكتب التقييم	
مكتب السجل	
أمين صندوق	
تقديم الأراضي	مقدم الطلب

الخطوة ١

العدد	مكتب العمدة
مدير	مكتب البلدية
فروع الاجتماعات	
الوزارة الفنية	
التقني	مكتب التخصيص
رئيس شعبة	
لجنة خاصة	
مهندس فني	
فني قانوني	مكتب الحضرة
إدارة فنية	
مخرج	
قسم في البلدية	
مستشار	
فني بالبلدية	استقبال
مكتب التقييم	
مكتب السجل	
أمين صندوق	
تقديم الأراضي	مقدم الطلب



منطقة ريفية لإقامة منزل لأسرته فى مدينة للأكواخ خارج مدينة كبيرة. فأولا، يتعين عليه ليس فقط العثور على موقع لبناء البيت، لكن عليه أن يشغل الأرض شخصيا، مع أسرته. والخطوة الثانية أن يقيم خيمة أو مأوى مصنّع من حصر القش، الطوب اللبن، الكرتون، الأبلكاش، الصاج المضلع، علب الصفيح، حسب البلد - وبذا يثبت حقا ماديا مدعى به (لأن الحق القانونى غير متاح). وبعدئذ يجلب المهاجر وأسرته تدريجيا، الأثاث والمستلزمات المنزلية الأخرى. ومن الواضح، أنهم يحتاجون لبنیان أكثر صلاحية للعيش فيه وأكثر دواما. لك كيف يشيدونه دون أن تتوافر لهم فرص الحصول على الائتمان؟ إنهم يفعلون ما يفعله الجميع - يخزنون مواد البناء الصلبة ويبدأون فى بناء بيت أفضل، مرحلة تلو أخرى، حسب أنواع المواد التى يستطيعون جمعها.

وبمجرد أن ينظم سكان إحدى هذه المجاورات الجديدة أنفسهم بما يكفى لحماية حياتهم، أو أن تتعاطف السلطات المحلية مع الحرمان الذى يعانونه، يستطيعون توفير الرصف والمياه والتخلص من النفايات والكهرباء - عادة على حساب تدمير أجزاء من بيوتهم بغية توصيلها بالمرافق. وفقط بعد سنوات من البناء وإعادة البناء، وتوفير مواد البناء، يصبح ملاك البيوت هؤلاء فى وضع يمكنهم أخيرا من العيش بصورة مريحة.

وفى الغرب، فإن بناء البيت يماثل لبس الجورب قبل الحذاء، ومن ثم فهو أقل خطورة وتكلفة ومهانة. فالقائم بالتنمية العمرانية لديه بصورة نموذجية سند ملكية الأرض، مما يوفر له الأمان لتطوير البنية الأساسية اللازمة (الطرق المرصوفة، المرافق، إلخ). ثم يبيع البيت الذى يشرع فى بنائه حسب تفضيلات المشتري. وبعدئذ ينقل المالك الجديد للبيت، الذى ربما يكون قد اقترض معظم ثمنه من بنك، الأثاث إليه، وأخيرا ينقل الأولاد والقطعة.

وبمجرد أن يصبح الفقراء خاضعين للمساءلة بموجب القانون الرسمى، يصبحون قادرين على تحمل أسعار الإسكان منخفض التكاليف، وبذا يهربون من عالم القطاع غير القانونى المقلوب رأسا على عقب. وعندئذ تبدأ

الصفوة فى حصد جوائزها هى أيضا: إذ سيجد القائمون بالبناء وصناع مواد التشييد أسواقهم وقد توسعت، ونفس الشيء يصدق على البنوك وشركات الرهن ووكالات سندات الملكية وشركات التأمين. كما سيساعد إضفاء الطابع الرسمى موردى المرافق العامة على تحويل عنوان البيت إلى محطة نهائية مسؤولة. ويوفر للحكومات ودوائر الأعمال المعلومات والعناوين اللازمة للتجارة فى السلع، وتأمين الفوائد، وتحصيل الديون والرسوم والضرائب. وبالإضافة إلى ذلك، يوفر نظام الملكية الرسمى قاعدة بيانات لقرارات الاستثمار فى الرعاية الصحية والتعليم، وتقدير الضرائب، والتخطيط البيئى.

بل إن الملكية القانونية واسعة النطاق ستساعد فى حل واحدة من أشد شكاويهم مرارة وأكثرها استمرارا عن تزايد فقراء الحضر - الحاجة إلى مزيد من «القانون والنظام». إن ازدهار المجتمع المدنى فى اقتصادات السوق لا يرجع إلى الإزدهار الاقتصادى الأكبر فحسب. ذلك أن الحق فى الملكية يؤلّد أيضا احترام القانون. ومثلما أوضح ريتشارد بايبس المؤرخ البارز فى كتابه عن الثورة الروسية:

إن الملكية الخاصة هى، على نحو قابل للنقاش، أهم مؤسسة للتكامل الاجتماعى والسياسى. ذلك أن تملك الممتلكات يخلق التزاما بالنظام السياسى والقانونى: حيث إن الأخير يكفل حقوق الملكية: إنه يجعل المواطن شريكا فى السيادة. وبهذا، فإن الملكية هى الأداة الرئيسية التى تطبع فى ذهن جماهيرى السكان احترام القانون، وتجعل لها مصلحة فى الحفاظ على الوضع القائم. وتبين الأدلة التاريخية أن المجتمعات ذات التوزيع الواسع للملكية، خاصة فى الأرض ومباني الإسكان، أكثر اتساما بالمحافظة وأشد استقرارا، ولهذا السبب، فإنها أكثر مرونة فى مواجهة حالات الاضطراب من كل الأنواع. وهكذا، فإن الفلاح الفرنسى، الذى كان فى القرن الثامن عشر مصدر عدم الاستقرار، أصبح فى القرن التاسع عشر، عماد الاتجاه المحافظ، نتيجة المكاسب الثورة الفرنسية^(١٨).

وعندما يثق الفقراء فى أن أراضيهم ومشروعات أعمالهم مملوكة لهم قانونا، يزداد احترامهم للملكية الآخرين.

كما ستزود سجلات الملكية الرسمية المستكملة لآخر وقت، الشرطة بالمعلومات الضرورية لضبط الأمور بطريقة متحضرة. ذلك أن عدم وجود عنوان قانونى من السمات الأساسية للخارجين على القانون فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة. وعندما ترتكب جريمة، لا تتوافر للشرطة السجلات والأدلة الموجهة للأماكن وغيرها من المعلومات المستندة للملكية الضرورية «لتتقضى أثر» المشتبه فيهم الرئيسيين. وهذا هو السبب فى أن سلطات إنفاذ القانون لا يمكن أن تكون انتقائية على نحو يماثل نظيراتها فى الغرب عند مطاردة المشتبه فيهم، ومن ثم يرجح أن تنتهك الحقوق المدنية لأشخاص أبرياء.

كما ينحو امتلاك ملكية رسمية إلى إحباط السلوك الجامح. فعندما يضطر الناس إلى تقسيم ملكيتهم إلى أجزاء أصغر فأصغر، فإن وريثة وريثهم المستبعدين من أرض الأسرة لضيقها، يرجح أن يضعوا أيادهم على أراض فى أماكن أخرى. كذلك، فإنه عندما يعجز شخص ما عن أن يثبت ملكية لأى شئ، يرجح أن يقدم رشاً ليشق طريقه خلال البيروقراطية، أو يأخذ أمر تنفيذ القانون بين أيديه، بمساعدة جيرانه. والأسوأ من ذلك، أنه بدون توافر قانون جيد للوفاء بالالتزامات، فإن المجتمع يشجع فى واقع الأمر رجال العصابات والإرهابيين على القيام بهذا الدور. وقد قمت أنا وزملائي بحملات لإصدار سندات ملكية رسمية مما حيد الإرهابيين، عن طريق انتحال دورهم كقوة للأمن فى المنطقة ضد خطر حقيقى أو متصور للاستيلاء على الأرض.

كذلك توفر الملكية بديلا قانونيا لتهديب المخدرات. فطالما بقى المزارعون ملاكاً غير قانونيين للأرض، تظل المحاصيل النقدية قصيرة الأجل، مثل الكوكا وخشخاش الأفيون، هى البديل الوحيد أمامهم. ذلك أن الأموال التى يقدمها مهربو المخدرات هى عمليا الانتماء الوحيد المتاح لصغار المزارعين فى مناطق معينة من العالم النامى؛ ونظرا لأن ترتيباتهم الخاصة بالملكية لا تظهر فى أى نظام رسمى، فإن إنفاذ القانون لا يمكن أن يتوصل إليها، ناهيك عن الوصول إلى إتفاق بزراعة محاصيل بديلة قابل للتنفيذ. كما يعنى هذا الافتقار إلى

الحماية القانونية أن زراع محاصيل المخدرات يتعين عليهم أن يشكّلوا معا عصابات للدفاع عن الأصول التى يملكونها، أو يدعوا المهربين للدفاع عنهم. وبدون نظام رسمى للملكية يشمل ملاك الأرض هؤلاء، فإن السيطرة على زراع محاصيل المخدرات، ومطاردة مهربي المخدرات، وتحديد شخصية ملوثة البيئة، يصبح مستحيلا من الناحية الفعلية. ولا يعود هناك من طريق أمام السلطات لاختراق الترتيبات غير القانونية المحكمة التى يبرمها الناس لحماية مصالحهم.

إن إضفاء طابع قانونى على الملكية ليس عملا خيرا بالنسبة للفقراء. ذلك أن إقامة سوق منظمة تجعل الملاك خاضعين للمساومة وتمنح سندات ملكية واضحة لبيوتهم تجعلها تستحق التمويل، تخلق سوقا متوسعة، وتشجع القانون والنظام، وتضع النقود فى جيوب الصفوة.

التعامل مع القوامين على الناقوس الزجاجى

ما أن يكفل دعاة الإصلاح مساندة الفقراء وبعض من الصفوة على الأقل لهم، يكون الوقت قد حان للاستفادة من البيروقراطية العامة والخاصة التى تدير الوضع القائم وتحافظ عليه - أساسا المحامون ورجال القانون والفنيون.

المحامون ورجال القانون. من الناحية النظرية، لابد أن يحبذ المجتمع القانونى الإصلاح لأنه يدعم حكم القانون. لكن معظم رجال القانون والمحامين فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة لم يتدربوا فى الواقع على توسيع حكم القانون، وإنما على الدفاع عنه كما يجدونه. إن رجال القانون والمحامين هم المهنيون الأكثر انخراطا فى شؤون الملكية اليومية. وهم يحتلون المكاتب الحكومية الرئيسية حيث يستطيعون تعطيل القرارات الأساسية. وليس هناك أى مجموعة - بخلاف الإرهابيين - فى وضع أفضل منهم لتخريب التوسع الرأسمالى. وعلى خلاف الإرهابيين، فإن رجال القانون والمحامين يعرفون كيف يقومون ذلك بصورة قانونية.

ورغم أن منظّمى المشروعات والناس العاديين هم بناة رأس المال والأسمالية، فإن رجال القانون والمحامين هم الذين يثبتون ويحدّدون مفاهيم الملكية فى شكل تمثيلى ملموس ويضعون هذه المفاهيم فى نظم أساسية. ففى نهاية المطاف، يجب أن يتجسد ضمان الملكية، وخضوع الملاك للمساءلة، وقابلية المعاملات للإنفاذ، فى إجراءات وقواعد يضع رجال القانون والمحامين مشروعاتها. والواقع أنهم يمثلون المهنة القانونية التى تنجز كافة أسانيد الملكية الرسمية: سندات الملكية، السجلات، العلامات التجارية، حقوق التأليف، السندات الإذنية، الكمبيالات، حقوق البراءات، وأسهم الشركات. وسواء كنت تحب رجال القانون والمحامين أم لا، فإنه لن يتم أى تغيير حقيقى فى نظام الملكية وعملية تكوين رأس المال بدون تعاون البعض منه على الأقل.

وتتمثل الصعوبة فى أن قلة من رجال القانون والمحامين يدركون النتائج الاقتصادية لعملهم، ورد فعلهم المتمثل فى اهتزاز ركبهم إزاء السلوك غير القانونى والتغيير واسع النطاق عدائى بصفة عامة. إن جميع دعاة الإصلاح الذين التقيتهم والذين كانوا يعملون على جعل الملكية أسهل منالاً بالنسبة للفقراء، كانوا يفترضون أن المهنيين من القانونيين هم أعداؤهم الطبيعيين. وقد أصيب الاقتصاديون المشتركرون فى الإصلاح بالإحباط من النزعة المحافظة القانونية، لدرجة أنهم استثمروا أموالهم ووقتهم فى إضعاف الثقة فى المهنيين من القانونيين. وقد استخدم سامارك. داتا، وجيفرى ب. نوجنت البيانات الاقتصادية المستمدة من اثنين وخمسين بلداً من ١٩٦٠ إلى ١٩٨٠، لبيان أن كل زيادة فى عدد المحامين فى قوة العمل مقدارها نقطة مئوية (مثلاً من ٥، إلى ١٠، فى المائة) يقابلها نقص فى النمو الاقتصادى بمقدار يتراوح من ٣،٦٨ إلى ٤،٧٦ فى المائة - مما يبين أن النمو الاقتصادى يرتبط عكسياً ببقظة رجال القانون والمحامين^(١٩).

إن ما يثير بصفة خاصة كثيرين من دعاة الإصلاح هو الكيفية التى يحول بها رجال القانون والمحامين اللوم من نظم الملكية السيئة إلى أناس آخرين. وكثيراً ما سمعت رجال قانون ومحامين يشيدون بقانون الملكية القائم، ويسلمون فى نفس اللحظة بأن سندات الملكية المصدرة بصورة قانونية يصعب

أو يستحيل استخدامها. وهذا بالطبع أمر غير مقبول. إن رجال القانون والمحامين لا يستطيعون أن يضعوا القانون والإجراءات الإدارية اللازمة لتنفيذه، ثم يلقون باللوم فى فشلها على عدم كفاءة التكنوقراط من المستوى المنخفض الذين ينفذون القانون، أو ضعف تعليم من يستخدمونه. لا يكفى وضع مشروعات قوانين رشيقة. إذ يتعين عليها أيضا أن تفيد فى الواقع الإدارى والاجتماعى الذى وضعت من أجله.

ومن المثير للاهتمام بقدر كاف، أن أقوى نقد لجهود رجال القانون والمحامين فى وقف إصلاح الملكية يأتى غالبا من زملائهم «أبناء كارهم». وفيما يلى ما كتبه س. روتون سمبسون، وهو رجل قانون وأشهر مؤلف فى العالم عن موضوع تسجيل الأرض، عن زملائه:

إن رجال القانون والمحامين فى العالم كله، سينو السمعة بسبب معارضتهم حتى لأصغر تغيير فى إجراءاتهم التقليدية... إن توريينز [الاسترالى الذى أنشأ واحدا من أكثر نظم التسجيل فى العالم أمانا] الذى عارضه بضراوة القانونيون المهنيون، تغلب على معارضة المحامين فى جنوب استراليا؛ لكن قصته استثناء. إن الحديد لا يفقه إلا الحديد، وفى معظم البلدان يدين تسجيل سندات الملكية، كقاعدة، إلى جهود محام ما، واجه العراقيل من جراء المعارضة النشيطة من «أبناء كاره» الممارسين؛ والمعارضة السلبية قد تكون أسوأ من المعارضة النشيطة، التى على الأقل إما تكسب وإما تخسر. فالمعارضة السلبية أكثر دهاء؛ وتستطيع أن تحبط التقدم. ولم يكن قليلا عدد النظم الرئيسية الذى ذبل على عروشه بعد أن حصل على ترحيب الممارسين، الذى ثبت فيما بعد أنه مجرد نفاق وولاء كلامى أو حتى «قبلة الموت»؛ وتضمنت نظم أساسية أخرى إجراءات مطولة على نحو يجعل تحقيق التقدم جدّ ضئيل تقريبا؛ ومثل هذه النظم لا تشكل بالتأكيد أى خطر على الممارسات الراسخة، ومن ثم تنحو إلى أن تكون مقبولة للمهنيين القانونيين، لكنها لا تحقق الهدف حقا؛ وتؤدى إلى تضخم القائمة فحسب، إن لم يكن بحالات الفشل، فبحالات «عدم النجاح» على الأقل^(٢٠).

وعلى الرغم من أن رجال القانون والمحامين يسلمون بأنه يتعين على العلوم الأخرى أن تكون دينامية، فإنهم يحاجون بأن القانون يجب أن يكون مستقرا وثابتا. وقد يصل مثل هذا التبجيل لحكم القانون، مهما كانت النتائج، إلى حد

أن المحامين الذين يساندون الإصلاح يتعرضون لخطر النبذ من قبل أقرانهم. ففي البلدان التي تتحدث الألمانية خلال القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، بلغ عداء مهنة القانون لإصلاح الملكية ذرى عالية، لحد أن أى محام كان يدعو للإصلاح كان يوصف بأنه «بهيمة تتلف مأواها».

والأنباء الطيبة بالنسبة لدعاة الإصلاح هي أن معظم رجال القانون والمحامين اللامعين (وإن لم يكن بالضرورة الأكثر نجاحا) يؤمنون بأن القانون صنع لخدمة الحياة وليس العكس. وقد انتصر فقهاء القانون المتطلعون للمستقبل فى النهاية على الاتجاه الرجعى «لأبناء كارهم» فى الغرب، حتى فى سياق القانون الرومانى. ولاريب أن المعركة كانت عسيرة على امتداد الطريق، كما لاحظ بيتر شتاين، لأن «مساهمة [رجال القانون والمحامين] فى الفهم السليم للمؤسسات القانونية تعرضت للتشويش من جراء تركيزهم على نزعة المحافظة على القديم، وقبولهم للقانون الرومانى باعتباره منتجا «كامل الأوصاف»^(٢١). ومع ذلك، فعلى مرّ الزمن، تغلب الفقهاء الأوروبيون العظام على الصرامة المبالغ فيها لأنهم كما أوضح شتاين، «جعلوا من ذلك مهنة لهم ليصبحوا خبراء فى تعقيدات القانون الرومانى، وليضمنوا تحركه على مرّ الزمن»^(٢٢). وفى مواجهة عدم استجابة زملائهم المتفشيين، نشأت فى كل بلد أوروبى عصابة من صفوة رجال القانون والمحامين للمساعدة فى رفع الناقوس الزجاجى.

ومن ثم يتعين على أى حكومة تتطلع إلى الأخذ بنظام متكامل للملكية، أن تضع استراتيجية حريصة للتعامل مع مهنة القانون. ومفتاح هذا هو اختيار رجال القانون والمحامين المناسبين. ويقتضى الأمر توافر قائد حكيم وماكر لتفادى رجال القانون والمحامين ذوى المهارة والذهن الحاد فى إرهاب السياسيين ودفعهم إلى حالة من الشلل والتجمد، والعتور بدلا من ذلك على أولئك الذين سيضعفون شكلا قانونيا على جدول أعمال التغيير حتى لو كان ذلك يعنى طرح النظام أرضا. وما لم يحسن السياسى ذو العقلية الإصلاحية اختيار محاميه، فسيكون تحت رحمة التكنوقراط القانونيين الحاكمين الذين سيبدون ولاء كلاميا فقط للإصلاح فى حين يخربونه فى السתר.

إن رجال القانون والمحامين الشجعان ذوى العقلية الإصلاحية موجودون فى كل البلدان، وبمجرد أن تصبح معايير الاختيار لمثل هذه الصفات واضحة،

يمكن التوصل للأشخاص المناسبين. ويعتقد كثيرون أن المحددات الأولى للتغيير تقع خارج القانون. وفى كل بلد زرتة، وجدت مجموعات من محامى الحكومة ورجال القانون فيها، مطلعين على واقع القطاع غير القانونى، ويجاهدون يوميا للتوصل إلى التناسق بين النظام الرسمى والترتيبات غير القانونية. كما أن بعض رجال القانون الأكاديميين يدركون بقوة أن النظم المتوازنة للقانون القانونى وغير القانونى تعمل متزامنة. لكن عملهم ينحو إلى أن يمضى فى طريقه دون أن تلحظه المستويات الأعلى من الحكم، ومن ثم يظل هو أيضا غير مرئى. والواقع أن هناك تقريبا قاعدة تقول إن رجال القانون اللماحين والذين يدركون وجود النظامين، والذين يتعاطفون مع الإصلاح، يتم دفعهم إلى هامش عملية اتخاذ القرارات السياسية.

إن هؤلاء الناس هم الذين يتعين على القيادة السياسية تنظيمهم للإطاحة بالوضع القائم، وتنفيذ برنامج قومى لا يمكن مقاومته لإصفاء الطابع الرسمى على الملكية. بيد أن مثل هذا الجيش لا يتقدم الصفوف عفويا: إذ يتعين تحديد مكان كل رجل قانون وتجنيدده. وهم معا، يشكلون الطليعة التى يمكن أن تدافع عن الإصلاح أمام زملائهم من رجال القانون. إنهم هم الذين سيستطيعون هزيمة الديناصورات ودحرها، وأن يشرحوا «لأبناء كار» القانون بلغتهم الخاصة مدى الأهمية الحاسمة لإدماج كل الملكية فى نظام قانونى موحد واحد مفتوح لكل الناس، بالنسبة لمستقبلهم ومستقبل بلدهم. إنهم وحدهم هم الذين يستطيعون أن يشرحوا لباقي «أبناء الكار» أن الإجراءات القانونية القائمة لم تصبح مزعجة فحسب وإنما عقبة لا يمكن التغلب عليها، تحول دون أن يحتل معظم الناس فى العالم وضعا يمكنهم من خلق رأس المال. ورجال القانون بشر هم أيضا. فبمجرد أن يدركوا أن النظام الذى يدافعون عنه أصبح متقادما بصورة لا أمل فيها، فإنهم سيتصرفون بصورة إيجابية.

الفنيون. تنفق البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة باستمرار مئات الملايين من الدولارات على تكنولوجيا رسم الخرائط وإمساك السجلات بالكمبيوتر لتحديث نظم الملكية فيها - ومع ذلك لم تستطع بعد أن تدمج

قطاعاتها التي لا تتمتع بحماية القانون. ولم يعد هذا يدهش أحدا ممن فكروا مليا فى أولويات إصلاح الملكية. وفى ١٩٩٣، حذر خير من البنك الدولى من أنه «كان هناك اتجاه لاعتبار إصدار سندات ملكية الأرض مشكلة فنية. فالخرائط ترسم عادة ويتم إجراء المسوح، لكن سندات الملكية لاتوضع ولاتصدر بسبب وجود انسداد فى النظم أو مشاكل قانونية»^(٢٣).

وحتى الفنيون يشعرون بالقلق من أنهم ربما قد يكونون قد تجمدوا بدرجة كبيرة بفعل التكنولوجيات الجديدة المذهلة. وقد أعرب واحد من أبرز خبراء كندا فى نظم الأرض، والمعلومات عن القلق من أن بعض الحكومات تواصل اعتبار رسم الخرائط حجر الزاوية بالنسبة للملكية:

إننا نتعرض حاليا لخطر إدامة هذه الأسطورة بمحاولة اختزال إدارة الموارد إلى مشكلة تتعلق بنظام المعلومات الجغرافية. إن التكنولوجيا جذابة: وهى تحقق نتائج ملموسة. لكنها ليست سوى جزء من الحل... وكثيرا ما يصدر المستشارون ومؤسسات المعونة النظم التى ألفوها (عادة نظمهم أو التى عملوا بها) دون إيلاء اعتبار كاف لحاجات البلد المتلقى وقيوده... هناك حاجة إلى تواضع أكبر بين المستشارين المهنيين: هناك حاجة للتسليم أحيانا بأنهم لايعرفون دوما الإجابة، وأن نظمهم قد لاتكون ملائمة»^(٢٤).

إن برامج خلق الملكية ستستمر فى الفشل طالما ظلت الحكومات تعتقد أن خلق الملكية لايتطلب إلا التعرف على الأشياء المادية - وأنه بمجرد أن تتوافر لهم الصور والمسوحات والقياسات والجرد بالكمبيوتر لأصولهم المادية، تتوافر لهم كل المعلومات المطلوبة لإصدار سندات الملكية. لكن ذلك ليس بصحيح. ذلك أن الصور وعمليات الجرد تحيط السلطات علما فقط بالحالة المادية للأصول: لكنها لاتخبرها شيئا عن من يملك حقا تلك الأصول، أو كيف نظم الناس الحقوق التى تحكمها. إن كافة الصور وعمليات الجرد بالكمبيوتر فى العالم لاتستطيع أن تحيط أحدا علما بالقواعد المحلية التى تنفذ هذه الحقوق، أو شبكة العلاقات التى تحافظ عليها. وفى مثل أهمية الخرائط والجرد، قياس وتحديد

مكان الأصول المادية التى تقوم عليها الملكية، لكنها لاتخبر الحكومة بكيفية بناء عقد اجتماعى وطنى يمكنها من خلق ملكية قانونية واسعة النطاق.

لقد أخفى نزوع بعض البلدان إلى ضغط القضايا المتعلقة بالملكية فى إدارات تكنولوجيا رسم الخرائط والمعلومات، الطبيعة الحقيقية للملكية. إن الملكية ليست حقا جزءا من العالم المادى: إن موئلها الطبيعى قانونى واقتصادى. إن الملكية تتعلق بأشياء غير مرئية، فى حين أن الخرائط أشباه للأشياء المادية فى أرض الواقع. إذ تعكس الخرائط المعلومات المادية عن الأصول، لكنها تغفل الصورة الكبيرة. فبدون المعلومات المؤسسية والاقتصادية ذات الصلة عن الترتيبات غير القانونية، لاتستطيع أن تعكس الواقع القائم خارج الناقوس الزجاجى. وبذا تعجز عن أداء وظيفتها الحقيقية، والتى تتمثل فى المساعدة فى تثبيت الجوانب المتعلقة بالملكية فى الأصول فى الواقع المادى، للإبقاء على الطابع الافتراضى والمادى مترابطين معا.

والى أن يتم إزالة العقبات التى تعترض استخدام نظم الملكية الرسمية وإحلال القانون محل الترتيبات التى لاتتمتع بحماية القانون. يقل دافع الناس لتقديم المعلومات الضرورية اللازمة للإبقاء على الخرائط وقواعد البيانات مستحدثة لآخر لحظة ويعول عليها. إن الناس لا يريدون الولوج لداخل نظام الملكية الرسمية لأنهم متلهفون لرسم خرائط لممتلكاتهم وتسجيلها وفرض ضرائب عليها؛ وسيضضون للنظام عندما تصبح فوائده الاقتصادية واضحة لهم، وعندما يتأكدون من الاستمرار فى حماية حقوقهم.

وطالما أن عقدا اجتماعيا لا يتمتع بحماية القانون يحمى هذه الحقوق، فلن يرى الناس مبررا لإخطار السلطات بأية تغييرات فى ملكية الأصول المملوكة لهم. و فقط عندما يحل القانون الرسمى محل الترتيبات التى لاتتمتع بحماية القانون كمصدر لحماية الملكية، سيسلم الناس بمشروعيته ويهتمون بتزويد السلطات بالمعلومات المطلوبة للإبقاء على حداثة خرائطها وسجلاتها. ويحدد الموضع الذى يحتله العقد الاجتماعى المكان الذى يمكن فيه الإبقاء على حداثة السجلات والخرائط.

وليست هذه نقطة تافهة. إذ تنزع مشروعات إصدار سندات الملكية التي تحركها عوامل فنية إلى التحلل لتتحول إلى نظم لتحديد الرصيد المادى، أو كتب الإحصاءات الإنجليزية التي صدرت فى ١٠٨٥ - ١٠٨٦، أو مجرد تذكارات تاريخية. ونتيجة لذلك، تعاني صناعات رسم الخرائط والكمبيوتر. إذ يعتمد ميزانيات مشروعاتها، السياسيون الذين يتوقعون أن تؤدي هذه المناهج الجديدة إلى إدماج الفقراء. وما إن يدركوا أنها لاتفعل ذلك، حتى تتهاوى منزلة مشروعات رسم الخرائط أو يتم إنهاؤها. وقد وجدت أنا وفريقى أن هذا يحدث المرة تلو الأخرى.

والسبب فى أن هذه التكنولوجيات تثمر جيدا فى البلدان المتقدمة، دون حاجة إلى كثير من الترقيع القانونى والسياسى، هو أن الترقيع كان قد أجرى منذ أكثر من مائة سنة خلت، وأصبح العقد الاجتماعى المتعلق بالملكية والشامل لكل شئ، قائما بثبات فى مكانه بالفعل. وعندما أصبحت متوافرة خلال الثلاثين سنة الماضية، نظم قواعد البيانات، ونظم المعلومات الجغرافية، والاستشعار عن بعد، ونظم تحديد المواقع العالمية، وكل الأدوات المدهشة لتكنولوجيا المعلومات، تطابقت بصورة محكمة مع بنية أساسية معلوماتية وقانونية متكاملة جيدا. وهكذا أمكن تحقيق الاستغلال الجيد لأدوات ومرافق التمثيل المكتوب والبياني، من أجل تخزين واسترجاع ومعالجة أفضل للمعلومات.

ولست أقول إن شركات الهندسة وتكامل الأنظمة وتكنولوجيا المعلومات، وباعة المعدات، ومستشارى التسجيل، وكل الآخرين الذين يقدمون خدمات توثيق الملكية المتخصصين فى المسح ورسم الخرائط وتحديث السجلات، غير مهمين لخلق الملكية - العكس تماما. ذلك أنه إذا تم تطويرها على نحو ملائم مع عمليات التسجيل الحاشدة ومع العمل فى مناخ لا يتمتع بحماية القانون، يصبح لا غنى عنها لتحديد المواقع المادية، وكذلك لتجهيز المعلومات وإدماجها معا. وسيستهلك ذلك معظم الأموال المنفقة على إصلاح الملكية، لكن فقط بعد حل المشاكل القانونية والسياسية لإدماج القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون.

إن قيادة سياسية حقة هى وحدها التى تستطيع أن تنتزع قانون الملكية من شواغله بشأن الماضى ووضعه فى إطار التقدير للحاضر، وأن تنأى به عن الانبهار المبالغ فيه بالتكنولوجيا ليصبح مشغولا فقط بصالح المجتمع وخيره. إن السياسيين مطلوبون لأن المؤسسات القائمة تنزع إلى محاباة الوضع القائم وحمايه. إذ يعتبر إقناع التكنوقراط بأن يسموا بأنفسهم وأن يساندوا التغيير، مهمة سياسية.

كما أن التدخل السياسى ضرورى لأن المنظمات الحكومية القائمة داخل الناقوس الزوجاجى ليست مؤهلة بصفة عامة للاضطلاع ببرامج للإصلاح سريعة وواسعة. وعادة يجرى تنظيمها كإدارات متخصصة، وهو هيكى له معنى أكبر فى البلدان المتقدمة، حيث التغير التدريجى وحده هو المطلوب لأن القانون والملكية الرسمية ساريان بالفعل على الجميع. إن خلق الملكية لايشبه مطلقا برنامجا للخصخصة، يتضمن بيع دسطة أو ما إلى ذلك من حزم الأصول سنويا. ذلك أن هدف إصلاح الملكية هو منح حقوق الملكية فى ملايين الأصول للملايين الأشخاص فى وقت قصير. ويعنى هذا أن نصف المهمة على الأقل يتعلق بالاتصالات. ويتطلب الأمر أن يشرح قادة الإصلاح الكيفية التى ستؤثر بها الرأسمالية الشعبية فى كثير من مجموعات المصالح المختلفة، وأن يبينوا لها المنافع التى ستحصل عليها منها، وإقناعها أن تلك ممارسة تفوز فيها جميع فئات المجتمع. وبالنسبة للقطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون، يتعين على هؤلاء القادة إطلاق سراح طاقتهم المحبوسة على إنشاء المشروعات، وبيان مزايا الاندماج فى قانون رسمى جديد. وبالنسبة للقطاع القانونى، ينبغي لهم أن يشرحوا أن الإصلاحات المقترحة لن تضر الحقوق المشروعة والقابلة للإنفاذ، وأنها ستحقق مكاسب شاملة لكل مجموعات المصالح.

إن إقامة نظام للملكية مفتوح للجميع هى فى المحل الأول مهمة سياسية، لأن من سيبقى عليها فى مسارها الصحيح هم الناس الذين يدركون أن الهدف النهائى لنظام الملكية لايمثل فى وضع نظم أساسية رشيقة، والربط بين أجهزة الكمبيوتر البراقة، أو طبع خرائط متعددة الألوان. إن هدف الملكية الرسمية هو وضع رأس المال فى أيدي الأمة جمعا.

الفصل السابع

من قبيل الخاتمة

أين راحت الحكمة التي ضيعناها في المعرفة؟
أين راحت المعرفة التي ضيعناها في المعلومات؟

— ت.س. البيوت، مجموعات الكورس في «الصخرة».

النادي الخاص للعملة

لاتعاني الرأسمالية أزمة خارج الغرب لأن العملة الدولية فشلت، وإنما لأن البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة عجزت عن أن «تعولم» رأس المال داخل حدودها. إن معظم الناس في هذه البلدان ينظرون إلى الرأسمالية كناد خاص، نظام للتمييز لا يفيد إلا الغرب والصفوة التي تعيش في النواقيس الزجاجية في البدان الفقيرة.

قد تلبس أعداد أكبر من الناس في كل أنحاء العالم أحذية ماركة «نايكي»، وتجعل ساعاتها ماركة «كاسيو» تبرق، ولكنهم حتى وهم يستهلكون سلع الغرب، يدركون تماما أنهم مازالوا متخلفين عند أطراف اللعبة الرأسمالية ومحيطها الخارجي. عليهم أن يذفوا إليها ويشاركوا. وينبغي ألا تكون العملة مجرد ربط بين النواقيس الزجاجية للقلة ذات الامتيازات. لقد قام هذا النوع من العملة من قبل. ففي القرن التاسع عشر، كانت الأسر الملكية الحاكمة في أوروبا بالمعنى الحرفي أسرة واحدة كبيرة، ترتبط بالدم وعلى اتصال مباشر بشأن السياسات والتجارة مع أبناء عموماتهم في أسبانيا وإنجلترا وروسيا

وفرنسا وهولندا. وانتصرت الرأسمالية فى القرن التاسع عشر، وسادت فى كل أنحاء العالم الصناعى إلى أن جاءت الثورة الروسية والكساد الكبير ولكن مثلما أوضح الأسباني أورتيجا وإى جاسيت والناقد الأمريكى ولتر ليبمان، فإن النظام الرأسمالى كان دوما مكشوفاً للمخاطر، رغم هيمنته وتقدمه. وقد أوضح الاقتصادى الأمريكى ليستر ثورو أنه حتى فترة قريبة ترجع إلى ١٩٤١:

كانت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى أساسا هما البلدان الرأسماليان [الكبيران] الوحيدان الباقيان على سطح الأرض... كان باقى العالم كله إما دول فاشية أو شيوعية أو مستعمرات إقطاعية فى العالم الثالث. وقد وصلت الأزمة النهائية التى نشبت فى العشرينيات والكساد الكبير فى الثلاثينيات من القرن العشرين بالرأسمالية إلى حافة الانقراض. كان يمكن أن تختفى الرأسمالية التى تبدو حالياً لاتقاوم، ببضع خطوات خاطئة فحسب^(١).

ولا يقتضى الأمر تذكرة لأهل أمريكا اللاتينية. فقد حاولوا أن يصبحوا جزءاً من الرأسمالية العالمية، وفشلوا أربع مرات على الأقل منذ استقلالهم عن أسبانيا فى عشرينيات القرن التاسع عشر. وقاموا بإعادة هيكلة ديونهم، وتثبيت اقتصاداتهم بمكافحة التضخم، وتحرير التجارة، وخصصوا الأصول الحكومية (بيع سكرهم الحديدية للبريطانيين مثلاً)، واضطلعوا بمقايضة الديون بالسهم، وأصلحوا نظم الضرائب لديهم. وعلى مستوى المستهلك، استورد أهل أمريكا اللاتينية كل أنواع السلع، من الحلل التويد الإنجليزية وأحذية «تشيرش» إلى سيارات فورد؛ وتعلموا الإنجليزية والفرنسية بالاستماع إلى الإذاعة أو أشرطة التسجيل؛ ورقصوا «الشارلستون» و«لاميث ووك»، ومضغوا لبان «تشيكليتس». لكنهم لم ينتجوا أبداً رأسمالاً حياً يدر عائداً.

ربما نستفيد جميعنا حالياً من ثورة الاتصالات، بل وقد يرى البعض أن هناك تقدماً يتمثل فى حقيقة أن «أبو الهول» المصرى يحملق مباشرة فى لافتة بالنيون فى محل حاصل على ترخيص مطاعم كنتاكى. ومع ذلك، فإن خمسة

وعشرين بلدا فقط من مائتى بلد فى العالم، تنتج رأس المال بكميات كافية للاستفادة بصورة كاملة من تقسيم العمل فى سوق عالمية أخذة فى التوسع. ليست الإنترنت ومحلات الوجبات الجاهزة هى دم الحياة بالنسبة للرأسمالية. إن رأس المال هو دم حياتها. فرأس المال وحده هو الذى يوفر الوسائل اللازمة لدعم التخصص والإنتاج والتبادل للأصول فى سوق متوسعة. إن رأس المال هو مصدر زيادة الإنتاجية، ومن ثم ثروة الأمم.

ولا تتوافر القدرة على تمثيل الأصول والإمكانات الكامنة، ومن ثم القدرة على إنتاج رأس المال واستخدامه بكفاءة، إلا للدول الغربية وجيوب صغيرة من الناس الأثرياء فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة. إن الرأسمالية ينظر إليها خارج الغرب بعداء متزايد، باعتبارها نظاما للفصل العنصرى لا يستطيع معظم الناس دخوله. وهناك إحساس متنام، حتى بين بعض النخب، بأنه إذا كان لابد لهم من الاعتماد فقط وللأبد على عطف رأس المال الأجنبى، فإنهم لن يصبحوا مطلقا لاعبين منتجين فى اللعبة الرأسمالية العالمية. ويزدادون إحباطا من جراء أنهم ليسوا سادة مصيرهم ولا يتحكمون فيه. وحيث إنهم شرعوا فى العولة دون أن يزدودوا شعوبهم بالوسائل اللازمة لإنتاج رأس المال، فقد بدأوا يغدون أقل شبها بالولايات المتحدة منهم بأمريكا اللاتينية المركنتالية بحشدها الهائل من الأنشطة التى لا تتمتع بحماية القانون^(٢). ومنذ عشر سنوات مضت، كان قليلون هم الذين يقارنون بلدان الكتلة السوفيتية السابقة بأمريكا اللاتينية. لكنهما اليوم يبدوان متشابهين بطريقة مثيرة للدهشة: اقتصادات سرية قوية، عدم مساواة صارخة، وتفشى أعمال المافيا، وعدم الاستقرار السياسى، وهروب رأس المال وإهمال فاضح للقانون.

وهذا هو السبب فى أن المدافعين عن الرأسمالية خارج الغرب يتقهقرون من الناحية الفكرية. فبعد أن علت منزلتهم منذ عقد مضى فحسب، ينظر إليهم الآن وبصورة متزايدة على أنهم مبررون للبؤس والظلم اللذين مازالا يحيقان بغالبية البشر. فعلى سبيل المثال، حذر مجلس الشورى فى مصر فى ١٩٩٩ الحكومة «من ألا تتخذ بعد ذلك بدعاوى الرأسمالية والعولة»^(٣). وإن نسى دعاة الرأسمالية قضية الملكية الحاسمة، فقد تركوا أنفسهم للتوحد مع

المدافعين عن الوضع القائم، الذين يحاولون بصورة عمياء إنفاذ القانون المكتوب القائم سواء كان يتسم بالتمييز أم لا.

والقانون في هذه البلدان يمارس التمييز. ومثلما أوضحت في الفصل الثاني، فإن ٨٠ في المائة على الأقل من السكان في هذه البلدان لا يستطيعون أن ينفخوا أنفاس الحياة في الأصول التي يملكونها، ويجعلونها تولّد رأس المال لأن القانون يستبعدهم من نظام الملكية الرسمي. إن لديهم تريليونات الدولارات من رأس المال غير المنتج، لكنها كما لو كانت بركا منعزلة تختفى مياهها في الرمال الجرداء، بدلا من أن تشكل كتلة ضخمة من المياه يمكن احتواؤها في نظام واحد موحد للملكية، وإعطاؤها الشكل المطلوب لإنتاج رأس المال. إن الناس يحوزون الأصول ويستخدمونها على أساس حشد كبير من الاتفاقات غير الرسمية غير المترابطة؛ حيث تجرى المساغة محليا. وبدون المعايير المشتركة التي تجيء بها الملكية القانونية، فإنهم يفتقرون إلى اللغة الضرورية لجعل الأصول المملوكة لهم تتحدث إلى بعضها البعض. وليس هناك من جدوى لحثهم على الصبر حتى تتقاطر نازلة على الطريق منافع الرأسمالية. فلن يحدث هذا أبدا حتى تتوافر الأسس الراسخة للملكية الرسمية.

وفي الوقت نفسه، يتعين على المروجين للرأسمالية، الذين مازالوا يتباهون ويتناولون بانتصارهم على الشيوعية، أن يدركوا أن إصلاحاتهم الاقتصادية الكلية ليست كافية. يجب ألا ننسى أن العولة تحدث لأن البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة طفتت تفتح اقتصاداتها التي كانت محمية من قبل، وثبتت عملاتها، وتضع مشروعات الأطر التنظيمية اللازمة لتعزيز التجارة الدولية والاستثمار الخاص. كل هذا خير وبركة. لكن ما ليس بخير ولا بركة أن هذه الإصلاحات تفترض أن سكان هذه البلدان مندمجون بالفعل في النظام القانوني، ولهم نفس القدرة على استخدام مواردهم في سوق مفتوحة. لكنهم ليسوا كذلك.

ومثلما أوضحت في الفصل الثالث، فإن معظم الناس لا يستطيعون المشاركة في سوق أخذة في التوسع؛ لأنه لا تتوافر لهم فرص الوصول إلى

نظام حقوق الملكية القانونية الذي يمثل الأصول المملوكة لهم بطريقة تجعلها قابلة للتحويل ومنقولة وقابلة للاستبدال على نطاق واسع، مما يتيح تحميلها بالديون ويسمح ملاكها بأن يصبحوا خاضعين للمساءلة. وطالما أن أصول الأغلبية لا توثقها البيروقراطية المعنية بالملكية وتتبعها، فإنها تكون غير مرئية وعقيمة في السوق.

إن البرامج الاقتصادية الكلية لدعاة العولة إذ تقوم بالتثبيت والتصحيح «حسب القواعد المقررة»، ترشّد بطريقة مثيرة الإدارة الاقتصادية للبلدان النامية. لكن نظرا لأن قواعد المقررة لاتعالج حقيقة أن معظم الناس ليس لهم حقوق ملكية، فإنها لم تقم سوى بجزء من العمل المطلوب لخلق نظام رأسمالي شامل واقتصاد سوق. إن أدواتها مصممة للعمل في بلدان تمت فيها «عولة» القانون النظامي داخليا، عندما أقيمت نظم حصرية لحقوق الملكية ترتبط بأدوات نقدية واستثمارية كفاء - وهو أمر لايزال يتعين على هذه البلدان تحقيقه.

وقد تبني عدد جد كبير من صانعي السياسة نظرة أوليمبية لعملية العولة. فبمجرد أن قاموا بالتثبيت والتصحيح على المستوى الكلي، مما أتاح الازدهار لمشروعات الأعمال القانونية والمستثمرين الأجانب، وسمح للاقتصاديين المتشددین بالسيطرة على الخزانة، شعروا أنهم أنجزوا مهمتهم. ولكن نظرا لأنهم لم يركزوا إلا على السياسات التي تعالج الإجماليات، فإنهم لم يتقصوا ما إذا كان الناس يملكون أم لا الوسائل اللازمة للمشاركة في نظام سوق متوسعة. لقد نسوا أن الناس هم القوى الفاعلة الأساسية في التغيير. ونسوا أن يركزوا على الفقراء. لقد وقعوا في هذا الإغفال الفادح لأنهم لم يعملوا ومفهوم الطبقة في أدمغتهم. وعلى حد تعبير واحد من أبرز معلميه، «لم تكن لديهم القدرة على إدراك كيف يعيش الناس الآخرون، مهما كان ذلك يمثل معضلة»^(٤).

لقد ترك المصلحون الاقتصاديون مسألة ضمان الملكية للفقراء في أيدي مؤسسات قانونية محافظة غير مهتمة بتغيير الوضع القائم. ونتيجة لذلك، ظلت الأصول المملوكة لأغلبية مواطنيهم رأسمالا غير منتج، مشدودا إلى القطاع

الذى لا يتمتع بحماية القانون. وهذا هو السبب فى أنه بدأ النظر إلى دعاة العولة وإصلاحات السوق الحرة باعتبارهم مدافعين مغرورين عن مصالح الذين يهيمنون على الناقوس الزجاجى.

مواجهة شبّح ماركس

ربما يقع معظم برامج الإصلاح الاقتصادى فى الاقتصادات الفقيرة فى الفخ الذى تنبأ به كارل ماركس: إن التناقض الكبير للنظام الرأسمالى هو أنه يخلق عوامل زواله: لأنه لا يستطيع تجنب تركّز رأس المال فى أيدي قلة. وإن لا توفر هذه الإصلاحات للأغلبية فرص الوصول للأسواق المتوسعة، تترك مجالا خصبا للمواجهة الطبقيّة - اقتصاد سوق حرة ورأسمالية من أجل قلة من ذوى الامتيازات تستطيع تجسيد حقوقها فى الملكية، وفقر نسبي لقطاع كبير يشكو من عدم كفاية رأس المال ويعجز عن استغلال أصوله الخاصة.

أواجهة طبقية فى هذه الأيام وفى هذا العصر؟ ألم يتداعى هذا المفهوم مع سور برلين؟ لسوء الحظ، إنه لم يتداعى. قد يكون من الصعب على مواطن فى بلد متقدم أن يفهم ذلك، لأنه فى الغرب يعيش الساخطون على النظام فى «جيوب الفقر». بيد أن البؤس فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة لا تحويه جيوب، بل إنه منتشر فى كل أرجاء المجتمع. والجيوب القليلة الموجودة فى هذه البلدان هى جيوب الثروة. إن من يصفهم الغرب بأنهم «دون الطبقات» هم الأغلبية هنا. وفى الماضى، فإنه عندما لم يتم الوفاء بتوقعاتهم المتصاعدة، فإن هذه الحشود من الفقراء الغاضبين جعلوا الصفوة الراسخة كما يبدو تخرّ راکعة على ركبتيّها (مثلما حدث فى إيران وفنزويلا وإندونيسيا). وفى معظم البلدان خارج الغرب، تعتمد الحكومات على إدارات مخابرات قوية، وتعيش الصفوة فيها داخل أسوار تشبه القلاع، ولها فى ذلك ما يبرره.

واليوم، وإلى حد كبير، فإن الفارق بين الأمم المتقدمة وباقى العالم، هو الفارق بين البلدان التى تنتشر فيها الملكية الرسمية والبلدان التى تنقسم فيها

الطبقات إلى من يستطيعون تثبيت حقوق الملكية وإنتاج رأس المال ومن لا يستطيعون ذلك. وإن لم يتم إدماج حقوق الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون، فقد تتميز هذه المجتمعات بين اقتصاديها الثنائيين - بين ما يسمى القطاع الملتزم بالقانون في جانب، والقطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون الذي تم إفقاره في جانب آخر. ولكن مع استمرار المعلومات والاتصالات في التحسن، وإذا أصبح الفقراء أفضل إطلاعاً على ما لا يتوافر لهم، فإن المראה من جراء الفصل العنصري القانوني قميئة بأن تتنامى. وعند نقطة ما، يحتشد الذين يعيشون خارج النافوس الزجاجي ضد الوضع القائم بتحريض أشخاص لهم جدول أعمال سياسي يزدهر باستغلال السخط. يقول كلاوس شواب من المنتدى الاقتصادي العالمي: «إن لم نخترع طرقاً لجعل العولة أكثر شمولاً، فسنواجه احتمال انبعاث المواجهات الاجتماعية الحادة التي حدثت في الماضي، متضخمة على المستوى الدولي»^(٥).

ربما انتهت الحرب الباردة، لكن الخلافات الطبقيّة القديمة لم تختف. وتثبت الأنشطة التخريبية، وتساعد الصراعات العرقية والثقافية حول العالم أنه عندما يشعر الناس بالسخط لأقصى حد، فإنهم يواصلون تنظيم أنفسهم في طبقات تستند إلى المظالم المشتركة. وتلاحظ «النيوزويك» أنه في الأمريكتين منذ ثمانينيات القرن العشرين، «كان لكل من هذه الصراعات تاريخه الفريد الخاص، لكن المقاتلين كافة كانوا يدينون نفس العدو: الوجه الجديد لرأسمالية أمريكا اللاتينية»^(٦). وفي مثل هذه الأوضاع، فإن مؤهلات طقم العدة الماركسي لتفسير الصراع الطبقي أفضل من مؤهلات الفكر الرأسمالي، الذي ليس لديه تحليل مماثل أو حتى استراتيجية جادة للوصول للفقراء في القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون. وبصفة عامة، ليس لدى الرأسماليين تفسير نظامي لكيف وصل الناس في مرتبة ما دون الطبقات إلى ما هم عليه، وكيف يمكن تغيير النظام لانتسابهم من هدتهم.

ينبغي ألا نبخس تقدير القوة الكامنة للنظرية الماركسية المتكاملة، في وقت تتطلع فيه حشود من الناس الذين ليس لديهم سوى القليل من الأمل إلى وجهة نظر عالمية متماسكة لتحسين أفاقهم الاقتصادية التي تدعو لليأس. وفي فترات

الإزدهار الاقتصادي، يكون الوقت المتاح للتفكير العميق قليلا. بيد أن للالتزامات طريقة في تحويل حاجة العقل إلى النظام والتفسير إلى هاجس مستحوذ. إن الفكر الماركسي، في أي شكل يعاود به الظهور - وهو سيعاود الظهور - يقدم طائفة من المفاهيم اللازمة لمصارعة المشكلات السياسية للرأسمالية خارج الغرب، أقوى مما يقدمه الفكر الرأسمالي.

ومثلما لاحظ جورج سوروس مؤخرا، فإن رؤى ماركس المتبصرة لرأس المال، هي عادة أكثر حذقا وانصافا من رؤى آدم سميث^(٧). فقد فهم ماركس بوضوح «أن النقود والسلع، في حد ذاتهما، ليستا برأس مال بدرجة أكبر من وسائل الإنتاج وعيش الكفاف. وأنهما يرومان التحول لرأس مال»^(٨). كما أدرك أن الأصول إذا أمكن تحويلها إلى سلع وجعلها تتفاعل في الأسواق، فإنها يمكن أن تعبر عن القيم التي تخفى على الإدراك ولكن يمكن الإمساك بها لإنتاج الربح. لقد كانت الملكية بالنسبة لماركس قضية مهمة؛ لأنه كان من الواضح لديه أن من يستحوذون على الأصول يحصلون على ما يزيد كثيرا على خصائصها المادية. ونتيجة لذلك، ترك طقم العدة الفكرى للماركسية أساليب قوية للمعادين للرأسمالية لشرح السبب في أن الملكية الخاصة ستضع الأصول بالضرورة في أيدي الأغنياء على حساب الفقراء.

وبالنسبة لمن لم يلاحظوا ذلك، نقول إن ترسانة العداء للرأسمالية، وترسانة العداء للعولة تتناميان. واليوم، توجد إحصاءات جادة تزود المعادين للرأسمالية بالخبرة التي يحتاجونها لتأكيد أن الرأسمالية هي نقل للملكية من البلاد الأكثر فقرا إلى البلاد الأشد غنى، وأن الاستثمار الخاص الغربى فى البلدان النامية ليس سوى استيلاء الشركات متعددة الجنسيات على مواردها بشكل حاشد. ربما زادت السيارات التي تخطف الأبصار، والمنازل الفاخرة، ومراكز التسويق التجارية من طراز كاليفورنيا، فى معظم البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة خلال العقد السابق، لكن الفقراء ازدادوا هم أيضا. ويبين البحث الذى أجرته نانسي بيردسال وخوان لويس لوندونو أن الفقر نما أسرع، وأن توزيع الدخل ساء عبر العقد الأخير^(٩). وحسب «تقرير عن التنمية

البشرية» ١٩٩٩، الذى تصدره الأمم المتحدة، فإن الناتج المحلى الإجمالى فى الاتحاد الروسى انخفض بمقدار ٤١ فى المائة من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٧، مما دفع بالمالين إلى القطاع غير القانونى. وانخفض العمر المتوقع للذكور الروس بمقدار أربع سنوات كاملة - ليصل إلى ثمانى وخمسين سنة. ويلقى التقرير باللوم على الانتقال إلى الرأسمالية وأثار العولة.

وتزودنا هذه الجهود فى مجال البحث بإشارات تحذير قوية، لكنها تنصب أيضا قذائف فكرية مطلوبة لتثبيط همة برامج الخصخصة والرأسمالية العالمية. ومن ثم، هناك أهمية حاسمة للتعرف على النماذج الماركسية الكامنة، ويعد ذلك إضافة ما تعلمناه خلال قرن منذ موت ماركس. ففى مقدورنا الآن أن نبين أنه على الرغم من أن ماركس رأى بوضوح أن حياة اقتصادية موازية يمكن أن تقوم إلى جانب الأصول المادية نفسها - أن «منتجات العقل الإنسانى بدت باعتبارها كائنات مستقلة وهبت لها الحياة»^(١٠) - فإنه لم يدرك تماما أن الملكية الرسمية لم تكن مجرد أداة للتملك، وإنما كانت أيضا وسيلة لحفز الناس على خلق قيمة مضافة حقيقية يمكن استخدامها. وبالإضافة لذلك، لم ير أن الآليات المتضمنة فى نظام الملكية نفسه هى التى تضيف على الأصول والعمل المستثمر فيها الشكل المطلوب لخلق رأس المال. ورغم أن تحليل ماركس لكيف تصبح الأصول أشياء تسمو على الواقع المادى وتفيد فى استخدامات اجتماعية أكبر عندما تصبح قابلة للتداول، أساسى لفهم الثروة، فإنه لم يستطع أن يتبين سلفا الدرجة التى ستصبح بها نظم الملكية القانونية أداة حاسمة لتعزيز القيمة التبادلية.

لقد أدرك ماركس على نحو أفضل من أى شخص آخر فى عصره أنه فى مجال الاقتصاد ليس هناك ما هو أكثر عماء من النظر إلى الموارد فقط من زاوية خصائصها المادية. لقد كان جدّ مدرك أن رأس المال هو «جوهر مستقل... النقود والسلع فيه مجرد أشكال يتخذها، ويتخلص منها بدورها»^(١١). لكنه عاش فى زمن ربما كان لايزال مبكرا فيه تبين كيف أن الملكية الرسمية يمكنها من خلال التمثيل، أن تجعل نفس تلك الموارد تقوم

بوظائف إضافية وتنتج فائض القيمة. وبالتالي، لم يستطع ماركس أن يتبين كيف أنه سيكون من مصلحة الجميع توسيع دائرة المستفيدين من الملكية. لقد كانت سندات الملكية هي مجرد القمة الظاهرة لجبل جليد الملكية الرسمية المتنامي. وقد أصبح باقى جبل الجليد حاليا مرفقا ضخما من صنع الإنسان لاستخلاص الإمكانات الاقتصادية الكامنة فى الأصول. وهذا هو السبب فى أن ماركس لم يدرك بالكامل أن الملكية القانونية عملية لا غنى عنها تثبت رأس المال وتنشره، وأنه بدون الملكية لا يستطيع الجنس البشرى تحويل ثمار عمله إلى أشكال منقولة قابلة للاستبدال، سائلة يمكن تمييزها، جمعها، تقسيمها، واستثمارها لإنتاج فائض القيمة. ولم يدرك أن نظاما جيدا للملكية القانونية، مثل سكن الجيش السويسرى، لها آليات أكثر كثيرا من مجرد نصل «الملكية» الأولى.

لقد تقادم العهد بكثير من أفكار ماركس؛ لأن الوضع حاليا لم يعد كما كان الحال عليه فى أوروبا فى زمن ماركس. فلم يعد رأس المال المحتمل امتيازاً للقلة. وبعد وفاة ماركس، استطاع الغرب فى النهاية أن يقيم إطاراً قانونياً أعطى لمعظم الناس فرصة الحصول على الملكية وأدوات الإنتاج. ربما كان ماركس سيصدم عندما يجد كيف أن كثيرا من الحشود المتزايدة فى البلدان النامية لا تتكون من البروليتاريا المضطهدة قانوناً، وإنما من صغار منظّمي المشروعات غير القانونيين المجهورين ممن لديهم قدر هائل من الأصول.

ويجب ألاّ يعمينا الإعجاب بنظم الملكية الجيدة عن حقيقة أن هذه النظم، مثلما لاحظ ماركس، يمكن أيضا استخدامها فى السرقة. ذلك أن العالم سيكون دوماً مليئاً بأسماء القرش الخبراء فى استغلال أوراق الملكية ليقشّدوا الثروة من الأشخاص حسنى النية. ومع ذلك لا يستطيع المرء أن يعارض نظم الملكية الرسمية لهذا السبب، بقدر ما لا يستطيع نزع أجهزة الكمبيوتر والسيارات لأن الناس يستخدمونها فى ارتكاب الجرائم. ولو كان ماركس حيّاً اليوم ورأى سوء توزيع الموارد الذى حدث على جانبي الستار الحديدي السابق، لربما وافق على أن النهب يمكن أن يحدث بالملكية أو

بدونها، وأن مكافحة السرقة تتوقف على ممارسة السلطة بأكثر مما تتوقف على الملكية. وبالإضافة لذلك، فإنه على الرغم من أن ماركس وضع «لفائض القيمة» تعريفاً محدداً جداً، فإن معناها ليس حكراً على قلمه. ذلك أن الناس انتجوا دوماً فائض القيمة: الأهرامات، الكاتدرانيات، الجيوش المكلفة، على سبيل القليل من الأمثلة فحسب. ومن الواضح أن قدراً كبيراً من فائض القيمة الحالي في الغرب لا ترجع أصوله إلى وقت العمل الذي يصادر بطريقة فاضحة، وإنما إلى الطريقة التي ولدت بها الملكية في الأذهان الآليات التي يمكن بها استخلاص العمل الإضافي من السلع الرئيسية.

لقد تأثر ماركس مثلنا جميعاً بالظروف الاجتماعية والتكنولوجيات السائدة في عصره. وربما كانت مصادرة وسائل معيشة الكفاف المملوكة لصغار الملاك، وحقيقة أن الحصول على الملكية الخاصة ينبع من سند الملكية الإقطاعي، وسرقة الأراضي المشاع، واستعباد السكان من أبناء البلاد الأصليين، ونهب البلاد التي يتم فتحها، و«الصيد التجاري لذوى الجلود السوداء» من قبل النظام الاستعماري، جميعها شروطاً مسبقة أساسية لما أسماه ماركس «التراكم البدائي لرأس المال». ومن الصعب تكرار هذه الظروف حالياً. لقد تغيرت المواقف - بسبب كتابات ماركس نفسه إلى حد ليس بالقليل. وليس للنهب والاستعباد والاستعمار حالياً، رخصة حكومية. ومعظم البلدان اليوم أطراف في معاهدات مثل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولها دساتير تنص على الفرصة المتساوية في الحصول على حقوق الملكية باعتبار ذلك من الحقوق الأساسية للجنس البشري.

وإضافة لذلك، وكما رأينا في الفصل السادس، لم تكن السلطات في البلدان النامية متحفظة في إعطاء الفقراء حق الحصول على الأصول. ربما لاتكون الكتلة الأساسية من المباني ومشروعات الأعمال التي لاتتمتع بحماية القانون التلقائية في المدن في كافة أنحاء العالمين الثاني والثالث قد منحت سندات ملكية رسمية، لكن الحكومات سلمت (وإن يكن ضمناً فحسب) بوجودها وبترتيبات الملكية. وقد أعطيت مساحات كبيرة من الأرض للمزارعين الفقراء في كثير من البلدان النامية خلال هذا القرن، كجزء من برامج الإصلاح الزراعي (وإن كان

بدون مستندات تمثيل الملكية الضرورية لخلق رأس المال). كما لم تتحقق السلطات في هذه البلدان في تخصيص ميزانيات لقضايا الملكية. فقد أنفقت مليارات الدولارات على أنشطة تتعلق بتسجيل الملكية.

الملكية تجعل رأس المال « يتفق ومقتضيات العقل »

حاولت في كل هذا الكتاب أن أبين أن لدينا حالياً ما يكفى من الأدلة لتحقيق تقدم كبير في التنمية. ويتوافر ذلك بين أيدينا، نستطيع أن نمضى إلى ما وراء المناقشة الجامدة حول الملكية التي تضع « اليسار مقابل اليمين »، ونتفادى خوض نفس المعارك القديمة مرّة أخرى. ذلك أن الملكية الرسمية هي شيء أكبر من مجرد التملك. ومثلما رأينا في الفصل الثالث، ينبغي النظر إليها باعتبارها العملية التي لا غنى عنها التي تزود الناس بالأدوات اللازمة لتركيز فكرهم على تلك الجوانب من مواردهم التي يستطيعون استخلاص رأس المال منها. إن الملكية الرسمية ليست مجرد نظام لمنح سندات بالأصول وتسجيلها ورسم خرائطها - إنها أداة للتفكير، تمثل الأصول بطريقة تستطيع عقول الناس أن تعمل بها لتوليد فائض القيمة. وهذا هو السبب في أن الملكية الرسمية يجب أن تكون متاحة للجميع: لربط الجميع في عقد اجتماعي واحد حيث يستطيعون التعاون لزيادة إنتاجية المجتمع.

وما يميز نظاماً قانونياً جيداً للملكية هو « أنه يتفق ومقتضيات العقل ». فهو يجمع وينظم المعرفة المتوافرة عن الأصول المسجلة في أشكال يمكننا التحكم فيها. وهو لا يجمع ويدمج وينسق البيانات الخاصة بالأصول وإمكاناتها فقط، بل أيضاً أفكارنا عنها. خلاصة القول، إن رأس المال ينتج عن قدرة الغرب على استخدام نظم الملكية لتمثيل موارده في سياق افتراضى. وهناك فقط يمكن للعقول أن تلتقي لتحديد وإدراك معنى الأصول بالنسبة للجنس البشرى.

ويتمثل الإسهام الثوري لنظام الملكية المتكامل في أنه يحل مشكلة أساسية للمعرفة. ذلك أن حواسنا الخمس ليست كافية لنا لمعالجة الواقع المعقد لسوق

متوسعة ناهيك عن سوق تمت عولتها. إننا فى أمس الحاجة للتوصل إلى الحقائق الاقتصادية عن أنفسنا ومواردنا مختزلة إلى الأساسيات التى تستطيع عقولنا إدراكها بسهولة. وهذا ما يفعله نظام جيد للملكية - إنه يضع الأصول فى شكل يجعلنا نميزُ بين أوجه التشابه والاختلاف بينها، ونقاط ارتباطها بالأصول الأخرى. إنه يثبتها فى وثائق تمثيل يتتبعها النظام وهى تنتقل عبر الزمان والمكان. وبالإضافة لذلك، فإنه يتيح للأصول أن تصبح منقولة وقابلة للاستبدال بتمثيلها فى عقولنا حتى نستطيع أن نجمعها ونقسمها ونحشدنا بسهولة لإنتاج أخلط أعلى قيمة. وهذه القدرة للملكية على تمثيل جوانب الأصول فى أشكال تسمح لنا بإعادة الجمع فيما بينها لنجعلها حتى أكثر فائدة، هى المحرك الرئيسى للنمو الاقتصادى، حيث إن النمو فى جوهره هو الحصول على مخرجات عالية القيمة من مدخلات منخفضة القيمة.

إن نظاما قانونيا جيدا للملكية هو الوسيلة التى تتيح لنا أن نفهم بعضنا البعض، وأن نجرى عمليات الربط، وأن نخلق عن طريق التركيب المعرفة اللازمة عن الأصول المملوكة لنا لتعزيز إنتاجيتنا. إنها طريقة لتمثيل الواقع تجعلنا نتجاوز قيود حواسنا. إن وثائق التمثيل المشتقة جيدا للملكية تمكننا من أن تحدد بدقة الإمكانات الاقتصادية للموارد من أجل تعزيز ما نستطيع أن نعمله بها. إنها ليست «مجرد ورق»: إنها أدوات للوساطة توفر لنا معرفة مفيدة عن الأشياء غير الموجودة بصورة ظاهرة للعيان.

إن سجلات الملكية توجه معرفتنا عن الأشياء نحو غاية ما، ولنستعر كلمات توما الاكوينى: «تماما مثلما يتحرك السهم بواسطة رامى السهام»^(١٢). إن وثائق الملكية بتمثيلها للجوانب الاقتصادية للأشياء التى نملكها، وتجميعها فى فئات تستطيع عقولنا أن تدركها بسهولة، تقلل تكاليف التعامل بالأصول وتزيد قيمتها على نحو متناسب. وهذه الفكرة، القائلة بأنه يمكن زيادة قيمة الأشياء بتقليل تكاليف معرفتها والتعامل بها، هى أحد الإسهامات الكبيرة لرونالد كواس الحاصل على جائزة نوبل. فقد حدد كواس فى أطروحته «طبيعة الشركة» أن تكاليف إجراء المعاملات يمكن تخفيضها بصورة كبيرة فى سياق

شركة خاضعة للتحكم والتنسيق^(١٣). وبهذا المعنى، فإن نظم الملكية هي مثل شركة كواس - بيئة خاضعة للتحكم لتخفيض تكاليف المعاملات.

وقد تولدت قدرة الملكية على الكشف عن رأس المال الكامن فى الأصول التى نراكمها عن أفضل التقاليد الفكرية عن التحكم فى بيئتنا من أجل تحقيق الازدهار. وطوال آلاف السنين، كان أكثر الرجال لدينا حكمة يخبروننا بأن للحياة درجات مختلفة من الواقع، كثير منها غير مرئى، وأننا لن نستطيع الوصول إليها إلا عن طريق التوصل لأدوات التمثيل المناسبة. وفى قياس التمثيل الشهير الذى أورده أفلاطون، تم تشبيهنا بالسجناء المقيدين بالسلاسل فى كهف وظهورنا للمدخل، بحيث إن كل ما نعرفه عن العالم هو الظلال الساقطة على الحائط الذى أمامنا. والحقيقة التى يبشر بها هذا التصوير أن أشياء كثيرة من التى نسترشد بها لتحديد مصيرنا ليست واضحة بذاتها. وهذا هو السبب فى أن الحضارة عملت بجد لإقامة نظم التمثيل اللازمة للوصول إلى، وإدراك، الجانب الافتراضى فى واقعنا وتمثيله بمقاييس يمكننا فهمها.

ومثلما أوضحت مرجريت بون، «كانت النظم التمثيلية الجديدة بعضا من أهم إبداعات البشر. وشمل هذا التدوين بعلامات ورموز، مثل الأرقام العربية (ولا تنس الصفر)، والمعادلات الكيميائية، القائمة المستخدمة فى المسح، ووحدات وزن والسوائل، الكلابات الصغيرة التى يستخدمها الموسيقيون. ولغات برمجة [الكمبيوتر] مثال أحدث لذلك»^(١٤). وتساعدنا الأنظمة التمثيلية مثل الرياضيات والملكية المتكاملة على تدبر وتنظيم تعقيدات العالم بطريقة نستطيع بها جميعنا أن نفهمها، ويتيح لنا هذا الاتصال فيما يتعلق بالقضايا التى لا نستطيع معالجتها بغير ذلك. إنها ما أسماه الفيلسوف دانييل دنت «تدديد اصطناعى للعقل»^(١٥). ومن خلال التمثيل، فإننا نجسد جوانب أساسية للعالم حتى نغير الطريقة التى نفكر بها فيه. وقد لاحظ الفيلسوف جون سيرل أننا نستطيع بالاتفاق الإنسانى «أن نخلع منزلة جديدة على ظاهرة ما، حيثما يكون لتلك المنزلة وظيفة مرافقة لا يمكن القيام بها وحدها بحكم السمات المادية الجوهرية للظاهرة المعنية»^(١٦). ويبدو لى هذا جدّ

قريب مما تفعله الملكية القانونية: فهي تخلع على الأصول، عن طريق عقد اجتماعي، منزلة في عالم المفاهيم تتيح لها أن تؤدي وظائف تولّد رأس المال. إن هذه الفكرة عن أننا ننظم الواقع في عالم المفاهيم هي مركز الفلسفة على النطاق العالمي. فقد أسماها الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو *المنطقة المتوسطة*، التي توفر نظاما من المحولات (*قوانين أساسية*) تشكل الشبكة السرية حيث يحدد المجتمع طائفة متسعة دوما من إمكاناته (*شروط الإمكان*)^(١٧). وإنني اعتبر الملكية الرسمية نوعا من ساحة التحويل التي تتيح لنا توسيع إمكانات الأصول التي راكمناها لدى أبعد فأبعد، وفي كل مرة يزيد رأس المال. كما استفدت من مفهوم كارل بوبر عن *العالم ٢* - وهو واقع منفصل عن *العالم ١* الخاص بالأشياء المادية، و*العالم ٢* الخاص بالحالات العقلية - حيث تتخذ منتجات عقلنا وجودا مستقلا ذاتيا يؤثر على الطريقة التي نتعامل بها مع الواقع المادي^(١٨). وإلى عالم المفاهيم هذا تأخذنا الملكية الرسمية - عالم ينظم فيه الغرب المعرفة عن الأصول ويستخلص منها إمكانات توليد رأس المال.

وهكذا فإن الملكية الرسمية هي شيء غير عادي، يزيد كثيرا على مجرد التملك. فالإنسان، وهو حيوان أضعف كثيرا من الناحية الجسدية، على خلاف النمر والذئب التي تكشر عن أنيابها لحماية أراضيها، استخدم عقله لخلق بيئة قانونية - الملكية - لحماية أرضه. وبدون أن يدرك أحد ذلك بصورة كاملة، اكتسب النظام التمثيلي الذي وضعه الغرب لتسوية الادعاءات المتعلقة بالأراضي، حياة خاصة به، موفرا قاعدة المعرفة والقواعد اللازمة لتثبيت وتجسيد رأس المال.

أعداء التمثيل

المفارقة أن أعداء الرأسمالية كانوا على الدوام، كما يبدو، أكثر وعيا بالأصل الافتراضي لرأس المال من الرأسماليين أنفسهم. إنه هذا الجانب الافتراضي

للرأسمالية هو الذى يجدونه جدّ ماطر وخطير. وفى كتابها الأكثر مبيعا «الرعب الاقتصادى»، تتهم فيفيان فورستر الرأسمالية بأنها «غزت الفضاء المادى وكذلك الافتراضى... وصادرت الثروة وخبأتها كما لم يحدث مطلقا من قبل، وأبعدتها عن متناول الناس بإخفائها فى شكل رموز. وأصبحت الرموز موضعا لمبادلات مجردة لا تجرى فى أى مكان خارج عالمها الافتراضى»^(١٩). وسواء بوعى أو بدون وعى، فإن فورستر جزء من تقاليد طويلة لعدم الارتياح للتمثيل الاقتصادى للعالم الافتراضى - ومع ذلك فقد كانت «تلك الدقائق الميتافيزيقية» كما اعتقد ماركس ضرورية لفهم الثروة وتحقيق تراكمها^(٢٠).

وهذا الخوف من الطابع الافتراضى لرأس المال أمر مفهوم. ففى كل مرة تتوصل فيها الحضارة إلى طريقة جديدة لاستخدام التمثيل لإدارة العالم المادى، يتشكك الناس. فعندما عاد ماركو بولو من الصين، صدم الأوروبيين بأنباء تقول إن الصينيين لا يستخدمون نقودا معدنية بل ورقية، وهو ما رفضه الناس سريعا باعتباره نوعا من الدجل. وقاوم العالم الأوروبى النقود التمثيلية حتى القرن التاسع عشر. كما استغرق قبول الأشكال الأخيرة من النقود المشتقة - النقود الاليكترونية، التحويلات البرقية، وحاليا بطاقات الائتمان الموجودة فى كل مكان - وقتا طويلا. فمن المفهوم أن يتشكك الناس عندما تغدو وسائل تمثيل القيم أقل إرهاقا وأكثر اتساما بالطابع الافتراضى. وقد تساعد الأشكال الجديدة لمشتقات الملكية (مثل الأوراق المالية المستندة إلى رهن) فى تكوين رأس مال إضافى، لكنها أيضا تجعل فهم الحياة الاقتصادية أكثر تعقيدا. ومن ثم ينزع الناس إلى الشعور براحة أكبر تجاه منظر العمال العرقانين الشرفاء على الصور الجدارية السوفيتية والأمريكية اللاتينية، وهم يكدحون فى الحقول أو يقومون بتشغيل آلاتهم، بأكثر مما يرتاحون للرأسماليين الذين يدورون، ويتعاملون فى، الأسهم وسندات الملكية والسندات المالية فى الواقع الافتراضى لأجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم. إن الأمر يبدو كما لو كان التعامل مع سندات التمثيل يوسخ يديك أكثر من العمل فى الوسخ والشحم.

وقد رأى كثيرون من المثقفين، فى أوراق الملكية أداة للخداع والقهر، مثل كل النظم التمثيلية - من اللغة المكتوبة إلى النقود والرموز الخاصة بفضاء المعلومات. وقد شكلت المواقف السلبية تجاه التمثيل تيارات تحتية قوية فى صياغة الأفكار السياسية. ويذكر الفيلسوف الفرنسى جاك دريدا فى كتابه «من علم النحو» كيف حاجّ جان جاك روسو بأن الكتابة كانت سببا مهما لعدم المساواة بين البشر. إذ يرى روسو أن من تتوافر لهم المعرفة بالكتابة يستطيعون التحكم فى القوانين المكتوبة والأوراق الرسمية، ومن ثم فى مصائر الناس. كذلك حاجّ كلود ليفي - شتراوس بأن «الوظيفة الأولى للاتصال المكتوب هى تسهيل الإخضاع»^(٢١).

وإننى أدرك مثل أى مناوئ للرأسمالية كيف استخدمت النظم التمثيلية، خاصة الرأسمالية منها، للاستغلال والقهر، وكيف أنها تركت الكثرة تحت رحمة القلة. وقد ناقشت فى هذا الكتاب كيف استغلت الأوراق الرسمية فى الهيمنة الصراح. ومع ذلك، فإن فن وعلم التمثيل من عارضات تثبيت المجتمع الحديث. ولن يؤدي إلى اختفائهما أى قدر من اللوم القاسى والهجوم العنيف الموجه للكتابة والنقود الاليكترونية ورموز فضاء المعلومات وأوراق الملكية. بالعكس يتعين علينا أن نجعل نظم التمثيل أكثر بساطة وأكثر شفافية، وأن نعمل بجد لمساعدة الناس على فهمها. وبغير ذلك، سيستمر الفصل العنصرى القانونى، وستبقى أدوات خلق الثروة فى أيدي من يعيشون داخل الناقوس الزجاجى.

هل النجاح فى الرأسمالية مسألة ثقافية؟

لنبحث حالة بيل جيتس، أكثر أصحاب المشروعات فى العالم نجاحا وثراء. فبعيدا عن عبقريته الشخصية، ما هو القدر من نجاحه الذى يرجع إلى خلفيته الثقافية «وأخلاقياته البروتستنتية»؟ وكما يرجع إلى نظام الملكية القانونية فى الولايات المتحدة؟

كم من ابتكارات البرامج الجاهزة كان سيستطيع القيام به بدون وجود براءات تحميها؟ كم عدد الصفقات والمشروعات طويلة الأجل التي كان سيتمكن من تنفيذها لو لم توجد عقود قابلة للإنفاذ؟ ما مقدار المخاطر التي كان سيستطيع تحملها في البداية لو لم يوجد نظام المسؤولية المحدودة وبوالص التأمين؟ كم مقدار رأس المال الذي كان سيتمكن من مراكمته لو لم توجد سجلات ملكية تحدد وتثبت وتخزن رأس المال ذاك؟ ما مقدار الموارد التي كان سيستطيع أن يجمعها بدون وجود تمثيل للملكية المنقولة والقابلة للاستبدال؟ كم عدد الأشخاص الآخرين الذين كان سيستطيع أن يجعلهم مليونيرات لو لم يتمكن من توزيع حقوق الاكتتاب بشراء الأسهم؟ ما مقدار وفورات الحجم التي كان سيتمكن من الاستفادة بها إن كان يتعين عليه أن يعمل على أساس الصناعات الصغيرة المبعثرة التي لا يمكن تجميعها معا؟ كيف كان سينقل الحقوق الخاصة بإمبراطوريته لأطفاله وزملائه بدون الخلافة بالوراثة؟

لا اعتقد أن بيل جيتس، أو أى من منظّمى المشروعات فى الغرب كان سيستطيع النجاح بدون وجود نظم حقوق الملكية المستندة إلى عقد اجتماعى قوى ومتكامل جيدا. وأقول بتواضع إنه قبل أن يحاول أى مثقف من أبناء الطبقة العليا يعيش فى ناقوس زجاجى أن يقنعنا بأن النجاح فى الرأسمالية يتطلب سمات ثقافية معينة، ينبغى لنا أولا أن نحاول معرفة ما يحدث عندما تقيم البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة نظما لحقوق الملكية يمكن أن تخلق رأس المال للجميع.

لقد خلط الناس طوال التاريخ بين كفاءة أدوات التمثيل التى ورثوها لخلق فائض القيمة، وبين القيم للصيقة بحضاراتهم. ونسوا أن ما يمنح مجموعة معينة من الناس قصب السبق هو الاستخدام المبتكر لنظام تمثلى طورته ثقافة أخرى. فعلى سبيل المثال، كان على أهل دول الشمال أن ينسخوا المؤسسات القانونية لروما القديمة لتنظيم أنفسهم، وأن يدرسوا الأبجدية اليونانية ورموز الأرقام العربية ونظمها لنقل المعلومات والحساب. ولذلك، فإن قلة حاليا هى التى تدرك قصب السبق الهائل الذى أضفته نظم الملكية الرسمية على

المجتمعات الغربية. ونتيجة لذلك، توصل كثيرون من الغربيين إلى أن الاعتقاد بأن ما يدعم رأسماليتهم الناجحة هو أخلاقيات العمل التي توارثوها، أو الألم الوجودي الذي خلقته أديانهم - على الرغم من حقيقة أن الناس في كل أنحاء العالم يعملون بجدّ عندما يستطيعون، وأن القلق الوجودي أو الأمهات المتسلطات اللاتي أفرطن في الحمل ليسا احتكارا لكالفن أو لليهود. (إنني مهتم بالتاريخ مثل كل أنصار كالفن، خاصة في أمسيات الأحد، ومراهات سباق الأم التي أفرطت في الحمل، لذلك فإنني أضع أسمى في بيرو مقابل أي امرأة في نيويورك). ولذلك، فإن قدرا كبيرا من جدول أعمال البحوث المطلوبة لتفسير السبب في فشل الرأسمالية خارج الغرب، يظل مطمورا في حشد الافتراضات التي لم تفحص جيدا، أو غير القابلة للاختبار، والمسماة «الثقافة»، والتي يتمثل تأثيرها الأساسي في إتاحة الفرصة للكثيرين جدا ممن يعيشون في الجيوب المتميزة في هذا العالم للتمتع بالإحساس بأنهم أسمى. وستذهب هذه المقولات الثقافية أراج الرياح ذات يوم عندما تتكاثر الأدلة الراسخة عن آثار المؤسسات السياسية الجيدة، وقانون الملكية الجيد. وفي الوقت نفسه، لاحظ فريد زكريا في مجلة «فورين أفيرز»:

الثقافة قضية ساخنة ومثيرة. ولا أقصد بالثقافة فاجنر والتعبيرية التجريدية - وهاتان مسألتان ساخنتان على الدوام - ولكن أقصد الثقافة كتفسير للظواهر الاجتماعية... إن التفسيرات الثقافية مستمرة لأن المثقفين يحبونها. إذ تضيف قيمة على المعرفة التفصيلية لتواريخ البلدان، وهو ما يتوافر عرض كثير منه لدى المثقفين. إنها تضيف مظهرا من الغموض والتعقيد لدراسة المجتمعات... لكن الثقافة نفسها يمكن تشكيلها وتغييرها. وتكمن وراء عدد كبير من المواقف والأذواق والتفضيلات الثقافية، القوى السياسية والاقتصادية التي شكلتها^(٢٢).

ولا يعني هذا القول بأن الثقافة ليست مهمة. ذلك أن لكل الناس في العالم تفضيلات ومهارات وأنماط سلوك محددة يمكن اعتبارها ثقافة. ويتمثل التحدي في اكتشاف أي من هذه السمات هو حقا الهوية الراسخة التي لا تتبدل لشعب ما، وأيها تحده القيود الاقتصادية والقانونية. هل وضع اليد

غير القانوني على العقارات في مصر وبيرو، نتيجة لتقاليد بدوية قديمة يتعذر استئصالها بين العرب وعادات الكويتشواس في زراعة المحاصيل جيدة وذهوباً على مستويات رأسية مختلفة من جبال الأنديز؟ أم أن ذلك يحدث لأن الحصول على حقوق الملكية القانونية للأراضي الصحراوية يستغرق في كل من مصر وبيرو أكثر من خمس عشرة سنة؟ من واقع تجربتي أقول إن وضع اليد يرجع أساساً للأمر الأخير. ذلك أنه عندما تتوافر للناس فرصة الوصول لألية منظمة لاستيطان الأرض تعكس العقد الاجتماعي، فإنهم سيسلكون الطريق القانوني، وستصر قلة فقط على التملك غير القانوني، مثلما يحدث في أي مكان آخر. وكثير من السلوك الذي يعزى الآن للميراث الثقافي لا يعد نتيجة حتمية للملامح الإثنية أو المزاجية للشعب، وإنما نتيجة لتقييمه الرشيد للتكاليف والمنافع النسبية للدخول في نظام الملكية القانوني.

إن الملكية القانونية تمكّن للأفراد في أي ثقافة من أسباب القوة، وأشك في أن الملكية في حد ذاتها تتناقض بصورة مباشرة مع أي ثقافة كبيرة. فلم يجد المهاجرون الفيتناميون والكوبيون والهنود بوضوح مشاكل كبيرة في التكيف مع قانون الملكية في الولايات المتحدة. ذلك أن قانون الملكية، إذا فهم على نحو صحيح يمكن أن يصل لما وراء الثقافات ليزيد الثقة بينها، ويقلل في الوقت نفسه تكاليف الجمع بين الأشياء والأفكار^(٣٣). إن الملكية القانونية تحدد معدلات التبادل بين الثقافات المختلفة، وبذلك تمنحها أساساً وطيداً للخصائص الاقتصادية المشتركة بينها والتي تتعامل بمقتضاها مع بعضها البعض.

اللعبة الوحيدة في البلدة

إنني مقتنع بأن الرأسمالية ضلت طريقها في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة. وليس هذا من الإنصاف. إنها منبئة الصلة بمن يحب أن يكون أكبر أنصارها، وبدلاً من أن تكون الرأسمالية سبباً يعد الجميع بتوفير الفرص، فإنها تبدو على نحو متزايد باعتبارها فكرة مهيمنة لطائفة من رجال

الأعمال والتكنوقراط تخدم بها مصالحها. وأمل أن ينقل هذا الكتاب اعتقادي بأنه من السهل نسبياً تصحيح هذا الوضع - بشرط أن تكون الحكومات راغبة في قبول مايلي:

- ١ - يتعين توثيق وضع الفقراء وإمكاناتهم توثيقاً أفضل.
- ٢ - كل الناس قادرون على الادخار.
- ٣ - إن ما يفتقر إليه الفقراء هو نظم الملكية المتكاملة قانوناً، والتي يمكنها أن تحول عملهم ومدخراتهم لرأس مال.
- ٤ - إن العصيان المدني وعصابات المافيا الحالية ليسا ظواهر هامشية، وإنما نتيجة لانتقال مليارات من البشر من حياة منظمة على نطاق صغير إلى حياة منظمة على نطاق كبير.
- ٥ - وفي هذا السياق، فإن الفقراء ليسوا هم المشكلة بل الحل.
- ٦ - إن تنفيذ نظام للملكية يخلق رأس المال هو تحد سياسي، لأنه يتضمن الارتباط بواقع الناس، واستيعاب العقد الاجتماعي، وإصلاح النظام القانوني.

وبانتصار الرأسمالية على الشيوعية، استنفدت جدول أعمالها القديم لتحقيق التقدم الاقتصادي، وتحتاج إلى مجموعة جديدة من الالتزامات. وليس هناك من معنى للاستمرار في الدعوة لاقتصادات مفتوحة بدون مواجهة حقيقة أن الإصلاحات الاقتصادية الجارية لا تفتح الأبواب إلا لنخب صغيرة تمت عولتها، وتستبعد معظم البشرية. ففي الوقت الحالي، لا تهتم العولة الرأسمالية إلا بالربط فيما بين النخب التي تعيش في نواقيس زجاجية. ولرفع النواقيس الزجاجية والتخلص من الفصل العنصري في الملكية، فإن الأمر يتطلب المضي لما وراء الحدود القائمة لكل من مبادئ الاقتصاد والقانون. لست رأسمالياً عنيداً. ولا أعتبر الرأسمالية عقيدة. فالأكثر أهمية بالنسبة لي، هو الحرية والتعاطف مع الفقراء، واحترام العقد الاجتماعي، والفرص المتساوية. ولكن لتحقيق هذه الأهداف في الوقت الحاضر، فإن الرأسمالية هي

اللعبة الوحيدة في البلدة إنها النظام الوحيد المعروف لنا الذي يزودنا بالأدوات المطلوبة لخلق فائض القيمة على نطاق حاشد.

إنني أعتز بأنني من العالم الثالث، لأنه يمثل تحدياً رائعاً - تحقيق الانتقال إلى نظام رأسمالي يستند إلى السوق يحترم رغائب الناس وعقائدهم. وعندما يصبح رأس المال قصة نجاح ليس في الغرب فقط وإنما في كل مكان، نستطيع أن نتحرك لما وراء حدود العالم المادي ونستخدم عقولنا للتخليق إلى المستقبل.

الهوامش

الفصل الأول

Gordons S. Wood, "Inventing American Capitalism," *New York Review of Books* (June 9, 1994), p. 49.

الفصل الثاني

Donald J. Pisani, *Water, Land, and Law in the West: The Limits of Public Policy, 1850-1920* (Lawrence: University Press of Kansas, 1996), p. 51.

٢ - تعليق للمهندس المعماري والخبير الحضري ألبرت مانجونيز Albert Mangonese في *Conjonction*, No. 119, February-March 1973, p. 11.

٣ - Leonard J. Rolfes, Jr., "The Struggle for Private Land Rights in Russia", *Economic Reform Today*, No. 1, 1996, p. 12.

الفصل الثالث

Adam Smith, *The Wealth of Nations* (London: Everyman's Library, 1997), - ١ former Vol. 1, p. 242.

٢ - المرجع المذكور، ص ٢٩٥.

Simonde de Sismondi, *Nouveaux principes d'économie politique* (Paris: Calmann-Lévy, 1827), pp. 81-82.

Jean Baptiste Say, *Traité d'économie politique*, (Paris: Deterville, 1819), - ٤ Vol. 2, p. 429.

Karl Marx, Frederick Engels, *Collected Works* (New York: International Publishers, 1996), Vol. 35, p. 82.

٦ - Smith, *The Wealth of Nations*, former Vol. 1, p. 242.

٧ - المرجع المذكور، ص ٢٨٦.

Herbert L. Dreyfus and Paul Rabinow, *Michel Foucault: Beyond Structuralism and Hermeneutics* (Chicago: Harvester, University of Chicago, 1982), p. 211.

- George A. Miller and Philip N. Johnoson-Laird, *Language and Perception* - ٩
(Cambridge: Harvard University Press, 1976), p. 578.
- Gunnar Heinsohn and Otto Steiger, "The Property Theory of Interest and Money," unpublished manuscript, second draft, October 1998, p. 22.
١١. المرجع المذكور، ص ٤٣.
١٢. المرجع المذكور، ص ٢٨.
- Tom Bethell, *The Noblest Triumph* (New York: St. Martin's Press, 1998), ١٣
p. 9.
- Fernand Braudel, *The Wheels of Commerce* (New York: Harper and Row, ١٤
1982), p. 248.

الفصل الرابع

- "Survey the Internet," *Economist*, July, 1, 1995, pp. 4-5. - ١
- Jeb Blount, "Latin Trade," *News Finance*, January 20, 1997. - ٢
- Tony Emerson and Michael Laris, "Migration," *Newsweek*, December 4 - ٣
1995.
- Henry Boldrick, "Reaching Turkey's Spontaneous Settlement," *World - ٤*
Bank Policy, April-June 1996.
- "Solving the Squatter Problem," *Business World*, May 10, 1995. - ٥
- Newsweek*, March 23, 1998. - ٦
- Economist*, June 6, 1998. - ٧
- Manal El-Batran and Ahmed El-Kholei, *Gender and Rehousing in Egypt* - ٨
(Cairo: Royal Netherlands Embassy, 1996), p. 24.
- Gerard Barthelemy, "L'extension des lotissements sauvages à usage popu- ٩
laire en milieu urbain ou Paysans, Villes et Bidonvilles en Haiti: Aperçus et
reflexions," June 1996, Port-au-Prince, offprint, June 1996.
- Blount, "Latin Trade". - ١٠
- Leonard J. Rolfes, Jr., "The Struggle for Private Land Rights in Russia, Ec- ١١
onomic Reform Today, No. 1, 1996.
- Official journal of the *National Geographic Society* (Millennium in Maps), ١٢
No. 4., October 1998.
- Donald Stewart, *AIPE*, December 1997. ١٣
- Matt Moffett, "The Amazon Jungle Had an Eager Buyer, but Was It for ١٤
Sale?" *Wall Street Journal*, January 30, 1997.
- Simon Fass, *Political Economy in Haiti: The Drama of Survival* (New ١٥
Brunswick, N.J.: Transaction Publishers, 1988), pp. xxiv-xxv.
- Ahmed M. Soliman, "Legitimizing Informal Housing: Accommodating ١٦
Low-Income Groups in Alexandria, Egypt," *Environment and Urbaniza-
tion*, Vol. 8, No.1 (April 1996), pp. 190-191.

- Reuters, *Financial Review*, May 11, 1992, p. 45. ١٧
- Mavery Zarembo, *Newsweek*, July 7, 1997. ١٨
- Economist*, March 5, 1994. ١٩
- Economist*, May 6, 1995. ٢٠
- "Terrenos de Gamarra valen tres veces más que en el centro de Lima." *El Comercio*, April 25, 1995. ٢١
- Jan De Vries, *Economy of Europe in an Age of Crisis, 1600-1750* (Cambridge: Cambridge University Press, 1976); D. C. Coleman, *Revisions in Mercantilism* (London: Methuen, 1969); J. H. Clapham, *The Economic Development of France and Germany, 1815-1914* (Cambridge: Cambridge University Press, 1963); Eli Heckscher, *Mercantilism*, ed. E.F. Soderland (London: George Allen & Unwin, 1934).
- Joseph Reid, *Respuestas al primer cuestionario del ILD* (Lima: Meca, 1985). ٢٢
- D.C. Coleman, *The Economy of England, 1450-1750* (London: Oxford University Press, 1997), pp. 18-19. ٢٤
- ٢٥ المرجع المذكور، ص ٥٨ - ٥٩.
- Heckscher, *Mercantilism*, Vol. 1, p. 323. ٢٦
- ٢٧ المرجع المذكور، ص ٢٤١.
- Robert B. Ekelund, Jr., and Robert Tollison, *Mercantilism as a Rent-Seeking Society* (College Station: Texas A&M University Press, 1981), Chapter 1. ٢٨
- Heckscher, *Mercantilism*, Vol. 1, pp. 239-244. ٢٩
- Coleman, *The Economy of England*, p. 74. ٣٠
- Heckscher, *Mercantilism*, Vol. 1, p. 244. ٣١
- Clapham, *Economic Development of France and Germany*, pp. 323-325. ٣٢
- ٣٣ رد جوزيف ريد على الاستبيان الثاني الذي قدمه معهد الحرية والديمقراطية. مذكرة مكتوبة، مكتبة معهد الحرية والديمقراطية، Vol. ١٩٨٥: Heckscher, *Mercantilism*, Vol. 1, pp. 247, 251.
- Charles Wilson, *Mercantilism* (London: Routledge & Kegan Paul, 1963), p. 27. ٣٤
- Coleman, *The Economy of England*, p. 105. ٣٥

الفصل الخامس

- Francis S. Philbrick, "Changing Conceptions of Property Law," *University of Pennsylvania Law Review*, Vol. 86, May 1938, p. 691. ١
- Bernard Bailyn, *The Peopling of British North America: An Introduction* (New York, 1986), p. 5. ٢

Peter Charles Hoffer, *Law and People in Colonial America* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1998), pp. 1-2.

٤ - المرجع المذكور، ص xii.

٥ - David Thomas Konig, "Community Custom and the Common Law: Social Change and the Development of Land Law in Seventeenth-Century Massachusetts," in *Land Law and Real Property in American History: Major Historical Interpretations*, ed. Kermit Hall (New York: Garland Publishing, 1987), p. 339.

٦ - المرجع المذكور، ص ٣١٩ - ٣٢٠.

٧ - المرجع المذكور، ص ٣٢٠.

٨ - المرجع المذكور، ص ٣٢٣.

٩ - المرجع المذكور، ص ٣٢٤.

١٠ - المرجع المذكور، ص ٣٤٩.

١١ - Hoffer, *Law and People in Colonial America*, p. 15.

١٢ - Amelia C. Ford, *Colonial Precedents of Our National Land System as It Existed in 1800* (Philadelphia: Porcupine Press, 1910), pp. 112-113.

١٣ - المرجع المذكور، ص ١١٤.

١٤ - Konig, "Community Custom," p. 325.

١٥ - المرجع المذكور، ص ٣٢٥.

١٦ - Aaron Morton Sokolski, *Land Tenure and Land Taxation in America* (New York: Schalkenbach Foundation, 1957), p. 191.

١٧ - المرجع المذكور.

١٨ - Henry W. Tatter, *The Preferential Treatment of the Actual Settler in the Primary Disposition of the Vacant Lands in the United States to 1841*, Ph. D. dissertation, Northwestern University, 1933, p. 23.

١٩ - المرجع المذكور.

٢٠ - Ford, *Colonial Precedents*, p. 103.

٢١ - المرجع المذكور.

٢٢ - Ford, *Colonial Precedents*, pp. 89-90.

٢٣ - المرجع المذكور، ص ١٢٦.

٢٤ - المرجع المذكور.

٢٥ - المرجع المذكور ص ١٢٨.

٢٦ - المرجع المذكور، ص ١٢٩.

٢٧ - المرجع المذكور، ص ١٣٠.

٢٨ - Tatter, *The Preferential Treatment*, pp. 40-41.

٢٩ - Stancly Lebergott, "O' Pioneers': Land Speculation and the Growth of the Midwest," in *Essays on the Economy of the Old Northwest*, ed. David C. Klingman and Richard K. Vedder (Athens: Ohio university Press, 1987), p. 39.

٣٠ - Ford, *Colonial Precedents*, p. 119.

- Sokolski, *Land Tenure*, p. 192. - ٣١
- ٣٢ - المرجع المذكور، ص ١٩٣.
- ٣٣ - المرجع المذكور.
- ٣٤ - ورد في Donald J. Pisani, *Water, Land, and Law in the West: The Limits of Policy, 1850-1920* (Lawrence: University Press of Kansas, 1996), p. 51.
- ٣٥ - Sokolski, *Land Tenure*, pp. 193-194.
- ٣٦ - Lebergott, "O' Pioneers," pp. 39-40.
- ٣٧ - المرجع المذكور.
- ٣٨ - المرجع المذكور، ص ٤٠.
- ٣٩ - Ac XXXIII, March 1642, *The Statutes at Large, Being a Collection of All the Laws of Virginia from the First Session of the Legislature*, ed. William Henning (New York, 1823), p. 134.
- ٤٠ - Richard E. Messick, "A History of Preemption Laws in the United States," draft prepared for ILD, p. 7.
- ٤١ - Ford, *Colonial Precedents*, p. 124.
- ٤٢ - المرجع المذكور.
- ٤٣ - المرجع المذكور، ص ١٣٢.
- ٤٤ - المرجع المذكور، ص ١٣٤.
- ٤٥ - مرسوم لتعديل وتسوية سندات ملكية المدعين في أراضي غير مشمولة ببراءات الملكية في ظل الحكومة الحالية والسابقة، قبل إنشاء مكتب الكومنولث للأراضي، *The Statutes at Large: Being a Collection of All the laws of Virginia*, ed. William Henning (Richmond, 1822), p. 40.
- ٤٦ - Douglas W. Allen, "Homesteading and Property Rights; or, 'How the West Was Really Won,'" *Journal of Law and Economics* 34 (April 1991), p. 6.
- ٤٧ - Richard Current et al., eds *American History: A Survey*, 7th ed. (New York: Knopf, 1987), p. 149.
- ٤٨ - Terry L. Anderson, "The First Privatization Movement," in *Essays on the Economy of the Old Northwest*, ed. David C. Klingman and Richard K. Vedder (Athens: Ohio University Press, 1987) p. 63.
- ٤٩ - Current, *American History*, p. 150.
- ٥٠ - Roy M. Robbins, "Preemption: A Frontier Triumph," *Mississippi Valley Historical Review*, Vol. 18, December 1941, pp. 333-334.
- ٥١ - المرجع المذكور.
- ٥٢ - Ford, *Colonial Precedents*, p. 117.
- ٥٣ - Lebergott, "O' Pioneers," p. 40.
- ٥٤ - المرجع المذكور.
- ٥٥ - Messick, "A History of Preemption," p. 9.
- ٥٦ - Tatter, *The Preferential Treatment*, pp. 91-92.
- ٥٧ - Messick, "A History of Preemption," p. 10.
- ٥٨ - Act of May 18, 1796, *Public and General Statues Passed by the Congress of the United States of America: 1789 to 1827 Inclusive*, ed. Joseph Story (Boston, 1828).

- ٥٩ - Tatter, *The Preferential Treatment*, p. 118.
- ٦٠ - ورد في المرجع المذكور، ص ١٢٥.
- ٦١ - Patricial Nelson Limerick, *The Legacy of Conquest: The Unbroken Past of the American West* (New York: Norton, 1987), p. 59.
- ٦٢ - المرجع المذكور.
- ٦٣ - المرجع المذكور، ص ١٤٠.
- ٦٤ - Lebergott, "O' Pioneers," p. 44.
- ٦٥ - المرجع المذكور.
- ٦٦ - المرجع المذكور.
- ٦٧ - Richard E. Messick, "Rights to Land and American Economic Development," draft prepared for the Institute of Liberty and Democracy, p. 44.
- ٦٨ - Richard White, *It's Your Misfortune and None of My Own: A New History of the American West* (Norman: University of Oklahoma Press, 1991), p. 146.
- ٦٩ - المرجع المذكور.
- ٧٠ - Stephen Schwartz, *From West to East* (New York: Free Press, 1998), pp. 105-110.
- ٧١ - Lebergott, "O' Pioneers," p. 40.
- ٧٢ - Anderson, "The First Privatization Movement," p. 63.
- ٧٣ - Paul W. Gates, *Landlords and Tenants on the Prairie Frontier* (Ithaca: Cornell University Press, 1973) p. 13.
- ٧٤ - المرجع المذكور، ص ١٦.
- ٧٥ - ورد في المرجع المذكور.
- ٧٦ - Gates, *Landlords and Tenants*, p. 24.
- ٧٧ - Lawrenc M. Friedman, *A History of American Law*, 2nd ed. (New York: Simon & Schuster, 1986), pp. 241-242.
- ٧٨ - Friedman, *A History of American Law*, p. 242.
- ٧٩ - المرجع المذكور.
- ٨٠ - G. Edward White, *The American Judicial Tradition: Profiles of Leading Judges* (New York: Oxford University Press, 1976), p. 48.
- ٨١ - Ford, *Colonial Precedents*, p. 129 (my emphasis).
- ٨٢ - Gates, *Landlords and Tenants*, p. 27.
- ٨٣ - *Green v. Biddle*, 8 Wheaton 1 (1823).
- ٨٤ - المرجع المذكور، ص ٣٣.
- ٨٥ - المرجع المذكور، ٦٦.
- ٨٦ - Gates, *Landlord and Tenants*, p. 37.
- ٨٧ - Current, *American History*, p. 149.
- ٨٨ - ورد في المرجع المذكور، ص ٣١.
- ٨٩ - ورد في المرجع المذكور.
- ٩٠ - Tatter, *The Preferential Treatment*, p. 265.

- Gates, *Landlord and Tenants*, p. 33. - ٩١
 Bodley v. Gaither, 19 Kentucky Reports 57, 58 (1825). - ٩٢
 M'Kinney v. Carrol, 21 Kentucky Reports 96, 97 (1827). - ٩٣
 White, *It's Your Misfortune*, p. 139. - ٩٤
 Gates, *Landlords and Tenants*, p. 46; *Congressional Record*, 43 Congress, - ٩٥
 I Session, 1603 (February 18, 1874).
 Pisani, *Water, Land and Law*, p. 63. - ٩٦
 Tatter, *The Preferential Treatment*, p. 154. - ٩٧
 Gates, *Landlords and Tenants*, p. 44. - ٩٨
 Paul W. Gates, "California's Embattled Settlers," *The California Historical Society Quarterly*, Vol. 41 June 1962, p. 115. - ٩٩
 Messick, "A History of Preemption," p. 17. - ١٠٠
 ١٠١- ورد في المرجع المذكور.
 ١٠٢- المرجع المذكور، ص ١٩.
 Act of May 29, 1830, *Public Statutes at Large of the United States of America*, Vol. 4 (Boston, 1846). - ١٠٣
 Act of September 4, 1841, *Public Statutes at Large of the United States of America*, Vol. 5 (Boston: Little and Brown, 1856). - ١٠٤
 Messick, "A History of Preemption," p. 26. - ١٠٥
 Pisani, *Water, Land, and Law*, p. 69. - ١٠٦
 Allan G. Bogue, "The Iowa Claims Clubs: Symbol and Substance," in *The Public Lands: Studies in the History of the Public Domain*, ed. Vernon Carstensen (Madison: University of Wisconsin Press, 1963), p. 47. - ١٠٧
 Pisani, *Water, Land, and Law*, p. 53. - ١٠٨
 ١٠٩- المرجع المذكور، ص ٦٣.
 Bogue, "The Iowa Claim Clubs," p. 51. - ١١٠
 ١١١- المرجع المذكور، ص ٥٠.
 ١١٢- ورد في المرجع المذكور، ص ٥٢.
 Tatter, *The Preferential Treatment*, p. 276. - ١١٣
 Bogue, "The Iowa Claim Clubs," p. 54. - ١١٤
 White, *It's Your Misfortune*, p. 141. - ١١٥
 Tatter, *The Preferential Treatment*, p. 280. - ١١٦
 Terry Anderson and P.J. Hill, "An American Experiment in Anarcho-Capitalism: The Not So Wild West," *Journal of Libertarian Studies* 3 (1979), p. 15. - ١١٧
 ١١٨- المرجع المذكور.
 Bogue, "The Iowa Claims Clubs," p. 50. - ١١٩
 ١٢٠- المرجع المذكور، ص ٥١.
 ١٢١- ورد في المرجع المذكور، ص ٥٤.
 White, *It's Your Misfortune*, p. 141. - ١٢٢

- Bogue, "The Iowa Claims Clubs," p. 55. ١٢٢
- Tatter, *The Preferential Treatment*, p. 273. ١٢٤
١٢٥. المرجع المذكور، ص ٢٨٧.
- John Q. Lacy, "Historical Overview of the Mining Law: The Miner's Law Becomes Law," in *The Mining Law of 1872* (Washington, D.C.: National Legal Center for the Public Interest, 1984), p. 17.
- Robert W. Swenson, "Sources and Evolution of American Mining Law," ١٢٧ in *The American Law of Mining*, ed. Matthew Bender (New York: Rocky Mountain Mineral Law Foundation, 1960), p. 19.
- Gates, "California's Embattled Settlers," p. 100. ١٢٨
- Harold Krent, "Spontaneous Popular Sovereignty in the United States," ١٢٩ draft prepared for the Institute of Liberty and Democracy, p. 2.
- Pisani, *Water, Land, and Law*, p. 52. ١٣٠
- Limerick, *Legacy of Conquest*, p. 65; also see White, *It's Your Misfortune*, p. 147. ١٣١
- Pisani, *Water, Land, and Law*, p. 69. ١٣٢
١٣٣. المرجع المذكور.
- Gates, "California's Embattled Settler," p. 100. ١٣٤
١٣٥. المرجع المذكور، ص ٢٢ - ٢٦.
- Lacy, "Historical Overview of the Mining Law," p. 26. ١٣٦
- Charles Howard Shinn, *Mining Camps: A Study in American Frontier Government* (New York: Knopf, 1948), p. 107. ١٣٧
١٣٨. *Gore v. McBreyer*, 18 Cal 582 (1861). ورد في المرجع المذكور، ص ٢٢.
١٣٩. المرجع المذكور، ص ٢٦.
١٤٠. المرجع المذكور، ص ٢٤ - ٢٥.
١٤١. ورد في المرجع المذكور، ص ٢٤.
١٤٢. المرجع المذكور، ص ٢٩.
١٤٣. المرجع المذكور، ص ٣٠.
١٤٤. المرجع المذكور.
- Krent, "Spontaneous Popular Sovereignty in the United States," draft prepared for the Institute of Liberty and Democracy, p. 3. ١٤٥
- Lacy, "Historical Overview of the Mining Law," p. 35. ١٤٦
- 14 Stat. 252 (1866). ١٤٧
- Swenson, "Sources and Evolution," p. 37. ١٤٨
- Lacy, "Historical Overview of the Mining Law," p. 36. ١٤٩
- Krent, "Spontaneous Popular Sovereignty," p. 3. ١٥٠
- Lacy, "Historical Overview of the Mining Law," pp. 37-38; 17 Stat. 91, ١٥١ 30 U.S.C. §§ 22-42.
- Jennison v. Kirk*, 98 U.S. 240, 243 (1878). ١٥٢
- Swenson, "Sources and Evolution," p. 27. ١٥٣

- Messick, "Rights to Land and American Development," p. 45. ١٥٤
 White, *It's Your Misfortune*, p. 143. ١٥٥
 ١٥٦. المرجع المذكور، ص ١٤٥.
 Gordon S. Wood, "Inventing American Capitalism," *New York Review of Books*, June, 9, 1994, p. 49. ١٥٧
 White, *It's Your Misfortune*, p. 270. ١٥٨
 White, *The American Judicial Tradition*, pp. 48-49. ١٥٩
 Philbrick, "Changing Conceptions of Property Law," p. 694. ١٦٠

الفصل السادس

- C. Reinold Noyes, *The Institution of Property* (New York: Longman's - ١
 Green, 1936), pp. 2 and 13.
 ٢. للاطلاع على مناقشة بليغة وحديثة جدا حول الموضوع، انظر
 William M. Landes and Richard A. Posner, "Adjudication as a Private Good," *Journal of Legal
 Studies*, Vol. 8, March 1979, pp. 235-284.
 ٣. Noyes, *The Institution of Poverty*, p. 20.
 John C. Payne, "In Search of Title," Part 1, *Alabama Law Review*, Vol. 14, - ٤
 No. 1 (1961), p. 17.
 ٥. Andrzej Rapaczynski, "The Roles of the State and the Market in Establish-
 ing Property Rights," *Journal of Economic Perspectives*, Vol. 10, No. 2
 (Spring 1996), p. 88.
 ٦. Robert C. Ellickson, *Order Without Law: How Neighbors Settle Dis-*
putes (Cambridge: Harvard University Press, 1991).
 إثارة للاهتمام عن كيف تحكم التنظيمات خارج القانون علاقات الملكية في الولايات
 المتحدة.
 ٧. انظر "Richard A. Posner, "Hegel and Employment at Will: A Comment,"
Cardozo Law Review, Vol. 10, March-April 1989.
 ٨. Harold J. Berman, *Law and Revolution: The Formation of the Western Le-*
gal Tradition (Cambridge: Harvard University Press, 1983), pp. 555-556.
 ٩. المرجع المذكور، ص ٥٥٧.
 ١٠. Robert Cooter and Thomas Ulen, *Law and Economics: An Economic The-*
ory of Property (Reading, Mass.: Addison-Wesley, 1997), p. 79.
 ١١. Margaret Gruter, *Law and the Mind* (London: Sage, 1991), p. 62.
 ١٢. Bruce L. Benson, *The Enterprise of Law* (San Francisco: Pacific Research
 Institute for Public Policy, 1990), p. 2.
 ١٣. للاطلاع على تقرير عن كيف حاولت المنظمات غير الرسمية التحول إلى القطاع
 الرسمي، انظر Hernando de Soto, *The Other Path: The Invisible Revolution*

in the Third World (New York: Harper & Row 1989), especially Chapters 1-4.

Bruno Leoni, *Freedom and the Law* (Los Angeles: Nash, 1972), pp. 10-11. ١٤

Robert Sugden, "Spontaneous Order," *Journal of Economic Perspectives*, Vol. 3, No. 4 (Fall 1989), especially pages 93 and 94. Also see F.A. Hayek, *Law, Legislation, and Liberty*, Vols. 1-3 (London: Routledge and Kegan Paul, 1973).

Payne, "In Search of Title," p. 20. ١٦

John P. Powelson, *The Story of Land*, (Cambridge, Mass.: Lincoln Institute of Land Policy, 1988). ١٧

Richard Pipes, *The Russian Revolution* (New York: Vintage Books, 1991), p. 112. ١٨

Samar K. Datta and Jeffery B. Nugent, "Adversary Activities and Per Capita Income Growth," *World Development*, Vol. 14, No. 12 (1986), p. 1458. ١٩

S. Rowton Simpson, *Land, Law, and Registration* (London: Cambridge University Press, 1976), p. 170. ٢٠

Peter Stein, *Legal Evolution: The Story of an Idea* (Cambridge: Cambridge University Press, 1980), p. 53. ٢١

٢٢ المرجع المذكور، ص ٥٥.

Lynn Holstein, "Review of Bank Experience with Land Titling and Registration," Working papers, March 1993, p. 9. ٢٣

J.D. McLaughlin and S.E. Nichols, "Resource Management: The Land Administration and Cadastral Systems Component," *Surveying and Mapping*, Vol. 49, No. 2 (1989), p. 84. ٢٤

الفصل السابع

Lester Thurow, *The Future of Capitalism* (New York: Penguin Books, 1996), p. 5. ١

Hernando de Soto, *The Other Path: The Invisible Revolution in the Third World* (New York: Harper & Row, 1989). ٢

"Side Effects of Egypt's Economic Reform Warned," *Xinhua* (CNN), February 4, 1999. ٣

George F. Will, *The Pursuit of Virtue and Other Tory Notions* (New York: Simon & Schuster, 1982). ٤

Klaus Schwab and Claude Smadja, "Globalization Needs a Human Face," *International Herald Tribune*, January 28, 1999. ٥

Tim Padgett, *Newsweek*, September 16, 1996. ٦

George Soros, *The Crisis of Global Capitalism: open Society Endangered* - ٧ (New York: Public Affairs, 1998), p. xxvii.

Eugene Kamenka, ed., *The Portable Marx* (New York: Viking Penguin, - ٨ 1993), p. 463.

Nancy Birdsall and Juan Luis Londoño, "Assets in Equality Matters," - ٩ *American Economic Review*, may 1997.

Kamenka, ed., *The Portable Marx*, p. 447. - ١٠

Karl Marx, "Capital," *Collected Works*, Vol. 28, p. 235. - ١١

Thomas of Aquinas, *Summa Theologica*, Part I of Second Part Q.12., Art. - ١١ 4 (London: Encyclopaedia Britannica, 1952), p. 672.

Ronald H. Coase, "The Nature of the Firm," *Económica*, November 1937. - ١٢

Margaret Boden, *The Creative Mind* (London: Abacus, 1992), p. 94. - ١٤

Daniel C. Dennett, "Intentionality," in *The Oxford Companion to the Mind*, - ١٥ ed. Richard L. Gregory (Oxford: Oxford University Press, 1991), p. 384.

John R. Searle, *The Construction of Social Reality* (New York: Free Press, - ١٦ 1995), p. 46.

Michel Foucault, *Les Mots et les choses* (Saint Amand: Gallimond, انظر - ١٧ 1993).

Karl Popper, *Knowledge and the Body-Mind Problem* (London: Rout- - ١٨ ledge, 1994).

Viviane Forrester, *L'Horreur économique* (Paris: Fayard, 1996), p. 61. - ١٩ (ترجمتي).

Karl Marx, in Kamenka, ed., *The portable Marx*, pp. 444-447. - ٢٠

Claude Lévi-Strauss, *Tristes tropiques* (Paris: Plon, Terre Humaine/Poche, - ٢١ 1996), p. 354.

Fareed Zakaria, "The Politics of Port," *Slate Magazine*, Internet, March 16, - ٢٢ 1999.

Francis Fukuyama's *Trust* (New York: Free Press, 1995) بالطبع بعد كتاب - ٢٣ مرجعا حاسما عن ظاهرة الثقة والتعاون الاجتماعي.

شكرو تقدير

لم يكتب أحد مطلقا كتابا بمفرده. فقد استفدت من المعلومات والآراء والتشجيع والدعم المقدم من أشخاص كثيرين - كثيرون في الواقع إلى حد أنه يستحيل شكر كل منهم على حدة. ولكن هناك عدة أشخاص لولاهم ما ظهر هذا الكتاب على ما هو عليه، وأود أن أسجل عرفاني لهم كتابه:

أولا، هناك زملائي من «معهد الحرية والديمقراطية» في ليما، بيرو، الذين كانوا رفقا ئي الدائمين في سعينا لإقامة نظام للسوق لا يقوم على التمييز، حيث يساعد القانون الجميع على أن تتوافر لهم فرصة للازدهار. والأفكار الواردة في هذا الكتاب تدعمها الحقائق والأرقام التي توصل إليها ميدانيا فريق المعهد في مشروعاتنا التي قمنا بها في كافة أنحاء العالم. إنني حقا أقف على أكتافهم. وقد استخدم مانويل مايورجا لاتور، مسؤول التشغيل الرئيسى في فريقى، خبرته الطويلة كمهندس في مشروعات محطات الكهرباء لتخطيط وتنظيم كل مشروعاتنا، يوما بعد يوم، بصورة سليمة عبر مسيرتنا الحاسمة. وأشرف لويس موداليس بايرو، وهو كبير الاقتصاديين في المعهد، على البحوث وتحليلات التكاليف والمنافع في البلدان التي عملنا فيها. وعمله حاسم لنجاحنا في تحديد التكاليف المستترة للقانون والمؤسسات. وقد ساعد لويس، جالانتيني، وسانده عند الضرورة، فيتوريو كورفو.

وعلى الجانب القانوني، كان هناك زميلاي المحبوبان والجديران بالثقة على مدار خمسة عشر عاما: أنا لوتشيا كامايورا التي أدارت الفريق القانوني للمعهد، وكانت مسؤولة عن تجميع الصورة القانونية كلها معا. وساعدتها عن كثب ماريا ديل كارمن ديلجادو، كبيرة المحللين القانونيين لدينا. إن لديهما أذكى العقول التي عرفتتها في مجال التعددية القانونية. فهما لا يفهمان القانون وحده، وإنما أيضا تداعياته. وقد ساند عملهم رجال قانون كثيرون في المعهد، كان الأبطال الرئيسيون منهم، فيما يتعلق بهدف هذا الكتاب، جوستافو ماريني، جاكلين سيلفا، لويس ألياجا، وجويلرمو جارسيا مونتوفار. وكان معاون الفنى الرئيسى لنا هو دانييل هيرنسيا، الذى أقام فريقه المكون من خافيير روبلسى وديفيد كاستيللو، نظم الكمبيوتر الخاصة بنا فى الميدان. وتولت إلسا خو إدارة المعهد، وساعدتها باقتدار محاسبتها الرئيسية إليانا سيلفا وباقي طاقم موظفيها.

ثانيا، هناك من قدموا الأساس الفكرى الذى سمح لى بمعالجة المعلومات التى حصلت عليها. ولم يكن أحد أقرب لى خلال ملحمة كتابة هذا الكتاب من دنكان مكدونالد، صديقى القديم والمرشد العالمى من اسكتلندا. لقد كان دنكان هو الذى قدمنى إلى علم المعرفة، خاصة البحوث التى تجرى فيما له علاقة بنظرية العقل. ومن دواعى سرورى، أن استطعت استخدام ما قرأته لتحليل نتائج عملى فى الميدان. لقد تعلمت بالفعل من عالم الأنثروبولوجيا الأمريكى دوجلاس أوزل عن جدوى مهارة عالم الأنثروبولوجيا «فى الملاحظة القائمة على المشاركة» فى عملى، وأستاذ القانون فى جامعة جورج تاون، وارن شوارتز الذى علمنى كيف أستطيع تطبيق مبادئ الاقتصاد لتحليل القانون. لكن دنكان كان هو الذى أوضح لى كيف أن فلاسفة العقل يستطيعون مساعدتى على إدراك الصلات التى كنت أبحث عنها بين الملكية والتنمية. وكانت مناقشاتنا حول كيف يستطيع البشر تحويل بيئاتهم إلى تمديد لعقلهم، حاسمة فى فهمى لكيفية خلق رأس المال الحديث. وعندما كانت الأمور تختلط على، أو عندما كنت أوضع فى مأزق فكرى، أو أتخبط فى الظلام، كان دنكان هو الذى ينقذنى.

وأود أيضا أن أشكر الفيلسوفة الألمانية دوروثى كرويتزر التى قادت خطاى خلال دهاليز دعاة ما بعد البنيوية الفرنسيين، خاصة جاك دريدا وميشيل فوكو. وقد

تعلمت من دريدا أنك تستطيع أن تستخدم مقولات من ثقافة ما لوصف ثقافة أخرى بطريقة يستطيع الجميع منهما - دون انتهاك الطابع الفريد للثقافة. ومن ثم أصبحت فى وضع أفضل قدرة على منهم كيف كنا ندمج بنجاح ترتيبات الملكية التى لا تتمتع بحماية القانون فى قانون الملكية الرسمى. وتعلمت من فوكو أساسيات «المعمار السرى» الذى يربط غير المرئى بالمرئى، واستخلصت أيضا من كتاباته كيف يزيد نظام جيداً للتمثيل شروط الإمكان للجنس البشرى كله. بل لقد زاد بدرجة أكبر إحساسى بالقوة والدلالة الاقتصادية للتمثيل، نتيجة لقراءتى فى علم العلامات أساسا أعمال أومبرتو إيكو وفيرديناند دى سوسير، وفلسفة العقل، خاصة عمل جون سيرل ودانييل دنيت.

لكن زميلى وصديقى ماريانو كورينخو هو الذى كفل لأفكارى اجتياز امتحان «لاندفول» القاسى. فمهما كانت عبقرية ورشاقة فكرة ما، فإنه لم يكن يسمح لها بأن تدرج فى مشروع للمعهد إلا إذا أوفت بشرطيه الأوليين: أن تجدى، وأن يستطيع أى شخص عادى تطبيقها. وعندما أكون على صواب، كان يبتسم ببساطة ويخبرنى بأننى تلعثمت فيما هو واضح («ليس هناك مشكلة، ليس هناك مشكلة»); وعندما أكون على خطأ، كان يقودنى إلى الاتجاه الصحيح.

وهناك أولئك الذين بدون إلهامهم وتشجيعهم ومساندتهم لم أكن لأصبح مطلقا فى وضع يمكننى من كتابة هذا الكتاب. فبعد اثنى عشر عاما من الشراكة، أصبح ستيفان شميد هاينى صديقا عزيزا. وقد أسهم ستيفان وهو مثقف ومحسن، وكذلك رجل أعمال ناجح لأقصى حد، بعدة طرق فى نجاح المعهد. فقد دعم جهودنا للتوصل إلى طرق لإتاحة الفرص للذين حرموا منها ظلما. كما دعم إيماننا بأن الأسواق العالمية تغدو خطيرة بدون قوانين عالمية. لكن الطريقة الأساسية التى أثّر بها ستيفان فى عمل المعهد هى بإصراره على الحاجة إلى الواقعية: فإن لم تكن المثالية شبيهة بمشروعات الأعمال، فستظل المثل مجرد مثل وليس لها نفع لمن نذرنا أنفسنا لمساعدتهم. ولورنس تشيكرنج صديق مهم وعزيز آخر، وهو مثقف لامع من سان فرانسيسكو، ساعد المعهد فى البدء فى مشروعات ومغامرات كثيرة فى مجال العقل، فى حين عاوننى شخصيا باستمرار بمشورته «الراعية» المتعاطفة.

ولا يمكن أن أنسى أصدقائى فى وكالة التنمية الدولية: بريان أتوود، ديك ماكال، جيم ميتشلز، نورما باركر، آرون ويليامز، باولا جودارد، وخاصة الأشخاص

الرئعين في إدارة أمريكا اللاتينية والكاريبي، مارك شنيدر، كارل ليونارد، مايكل ديل، تيموثي ماهوني، ويليام ب. بوكوم، دونالد درجا، وجولين سانجاك. فلم يزودوا المعهد بدعمهم وتشجيعهم طوال سنوات عديدة فحسب، وإنما أتاحوا لنا فرصا عديدة. وعندما كنت أصادف مشكلة تنظيمية، كان صديقي القديم جون سوليفان الذي يدير مركز المشروع الخاص الدولي، يشرح لي كيف تعالجها المؤسسات في الولايات المتحدة. كما علمني كيف تستطيع المجموعة الصحيحة من المؤسسات أن تحول المواقف المتضاربة إلى حلول قابلة للتطبيق ومربحة. وقد تعلمت من صديقي بوب ليتان من مؤسسة بروكينجز، ليس فقط كيف يؤثر القانون على السلوك الاقتصادي، وإنما أيضا أن هناك دروسا قيمة لباقي العالم عن كيف زادت الثورة المالية في الولايات المتحدة، تكوين رأس المال. وفي أحد أيام شهر يونيو ١٩٩٩، جاء بوب إلى منزلي في ليما وقال، «لقد توصلت إلى عنوان عظيم لكتابك - سرّ رأس المال». ولهذا أيضا أشكره.

وتستحق مؤسسة سميث ريتشاردسون شكرا خاصا، لأنها دعمت كثيرا من العمل الذي تم من أجل هذا الكتاب في شكل منحة سخية. والمؤسسة صديق قديم ومخلص، زدنا عندما كان يجري قصف المعهد بالقنابل وإطلاق النيران عليه في أوائل تسعينيات القرن العشرين، بعربة مضادة للرصاص، مما مكنا من مواصلة عملنا.

كما أدين بالامتنان لهارولد كرنث، ساول ليغمور، ريك ميسيك، توم روميرو، ولاري ستاي على جهودهم الجبارة في بحث تاريخ الملكية في الولايات المتحدة. كما أتوجه بشكري للأصدقاء في «سجل أراضي جلاله الملكة» في لندن - خاصة جون مانثروب وكريستوفر وست - لإرشادي إلى الكتب التي ساعدتني على فهم تطور الملكية البريطانية. وقد ساعدتني مونيكيا برجمايير وكلاوس يواكيم جريجووليت على تقصي أصول الملكية الألمانية، وساعدني هانز - أورس ويلي الذي عرفني على أصول الملكية السويسرية، وأوضح لي تحول القانون الروماني في التقاليد السويسرية والألمانية من نظام جامد من القواعد إلى نظام صديق للناس. وقد أسهم بيتر شافير، صديقي في واشنطن العاصمة، بأفكاره وملاحظاته ومذكراته، وقدمني إلى آخرين لديهم نظرات متبصرة قيّمة بالنسبة لعملنا.

وقد ساعدتني ميران فان دير تاك على تقصي العلاقة بين حقوق الملكية وتنمية

المرافق العامة. وعلمنى أوسكار بيسلى كيف أجدى التأمين على السندات وتحويل الأصول العقارية لأوراق مالية. وعمق روبرت فريدمان معرفتى الضحلة بالماركسية. وكانت «لى» والكسندرا بنهام مفيدتين لأقصى حد فى مراجعة المسودات الأولى لهذا الكتاب.

كما استفاد هذا الكتاب من دعوات كثير من الحكومات والمنظمات غير الحكومية لتصميم وتنفيذ مشروعات فى بلدانها الأصلية، ترمى إلى رسملة الفقراء. ومما ساعدنى على أن أجعل هذا الكتاب مهما لمعظم البلدان فى العالم، الفرصة التى أتحت لى لجمع المعلومات، وتحليل المؤسسات والتشريعات، والحوار مع المشاركين فى كل من القطاعين القانونى والسرى عمليا فى كل قارة. وفى هذه المرحلة، أستطيع أن أشكر علانية الزملاء فى أربعة فقط من البلدان التى نعمل فيها حاليا. ففى مصر، أدين بالشكر لأصدقائى ونظرائى فى «المركز المصرى للدراسات الاقتصادية»، أحمد جلال، هشام فهمى، طاهر حلمى، وجمال مبارك والعاملين معهم. وكان شريف الديوانى مفيدا طوال عمل المعهد فى مصر. كذلك كانت مساندة رئيس الوزراء عاطف عبيد، ووزير المالية مدحت حسنين، ووزير الاقتصاد يوسف بطرس غالى، ووزيرة الشؤون الاجتماعية ميرفت التلاوى، حاسمة. وفى هايتى، أدين بالشكر للمساندة المستمرة من الرئيس رينيه بريغال، والرئيس السابق جان برتراند أرسيتيد والعاملين معهم. كما أدين بالعرفان «لمركز المشروع الحر والديمقراطية»، خاصة جورج ساسين، ليونيل ديلاطور، برنار كران وجان موريس بوتو. وفى المكسيك، أدين بالعرفان للرئيس المنتخب فيسانت فوكسى، والذين دعمونا بأمر منه، ومن بينهم ادواردو سوخو، خوان هيرنانديز، فاوستو ألزاتى، ألفونسو جاليندو، اميليو دوهاو، وباحثين مهرة كثيرين. وفى الفلبين، كانت المساعدة التى حصلنا عليها من الرئيس جوزيف استرادا، والسكرتير التنفيذى رونالدو زامورا حاسمة لتقديمنا. وقد اكتملت بحوثنا بفضل جهود ومساندة فيك تايلور، إلى جانب ارنستو جاريلو، خوسيه ب. ليفستى، آرتورو ألفنديا، أليكسى ميلتشور، وكثيرين آخرين.

ولم يكن مخطوط هذا الكتاب ليرى النور مطلقا بدون إيريس ماكنزى، التى صويت لغتى الإنجليزية فى عدد لا يحصى من المسودات؛ وباعتبارها القارئة الأولى لى، والقائم بالصياغة، كانت إيريس هى التى توجهنى باستمرار نحو توحى

الوضوح. وأود أن أشكر مساعدتى ميريام جاجو لمساعدتنا على جعل المخطوط مناسباً فى عيون الناشرين فى كل أنحاء العالم. ولكن الأكثر أهمية، إشرافها الكفء على حياتى وعملى المكتبى، مما أتاح لى أن أمضى أوقاتاً طويلة من الزمن بعيداً عن مكتبى أضاع هذا الكتاب.

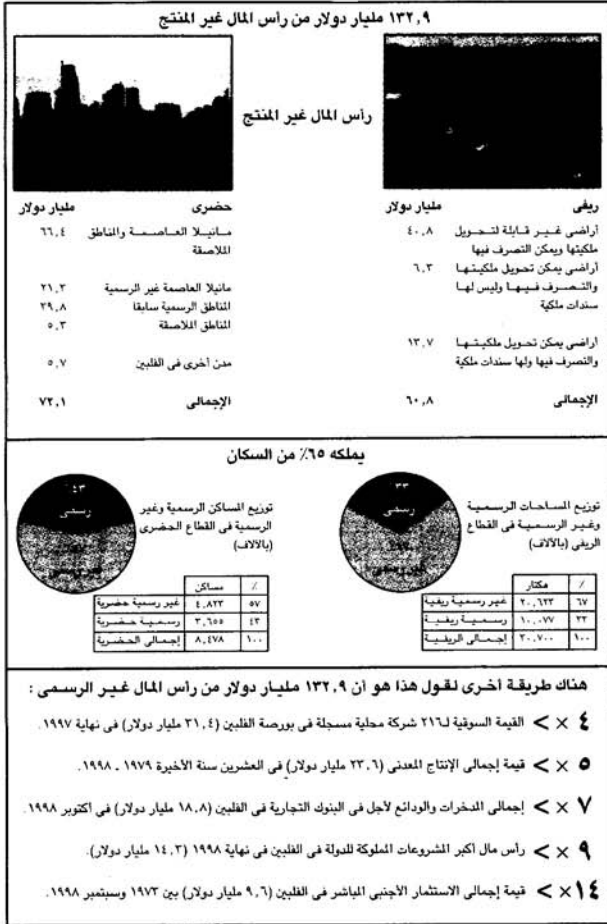
وأخيراً، أود أن أقدم شكرى وعرفانى لأشخاص عديدين ساعدونى على تحويل بضع أفكار جيدة إلى كتاب. فقد كان وكيلى أندرو وايلى مصدراً أريباً للحكمة فى كيفية جعل الكتاب نابضاً بالحياة بالنسبة لجمهور دولى من القراء. لقد وضع معياراً عالياً، ولم يسمح لى مطلقاً بأن أقلّ عنه. وبمجرد أن أصبح لدى المخطوط أصبح صديقى ديفيد فروم وميركو لاور هما المهندسين المعماريين له؛ وخلال عشر أيام، أخذوا المسودة القائمة، وقلبها رأساً على عقب، وعلى حد تعبير فروم، «عصر منها الماء»، وشكلاها فى هيكلها الحالى. ولإعداد المخطوط النهائى للقاء مع الناشرين المحتملين، كنت محظوظاً بأن يكون إلى جانبى ادوارد تيفنان. وباعتباره صحفياً ومؤلفاً، جعلته رسالة الدكتوراه فى الفلسفة التى حصل عليها مشجعاً للأفكار وملتزماً بالمواعيد النهائية، أمضى تيفنان خمسين يوماً معى فى ليما، يعيد صياغة الكتاب كله، جملة بعد جملة.

وقام بل فروشت، محررى الأمريكى، بعمل رائع فى إعداد الكتاب للنشر، وساعدنى فى توضيح كثير من النقاط، مما حسن الكتاب كثيراً. وكانت سالى جامينارا محررتى البريطانية. ولم يتفوق على موهبتها التحريرية إلا عبقريتها وإبداعها من أجل نشر هذا الكتاب والترويج له.

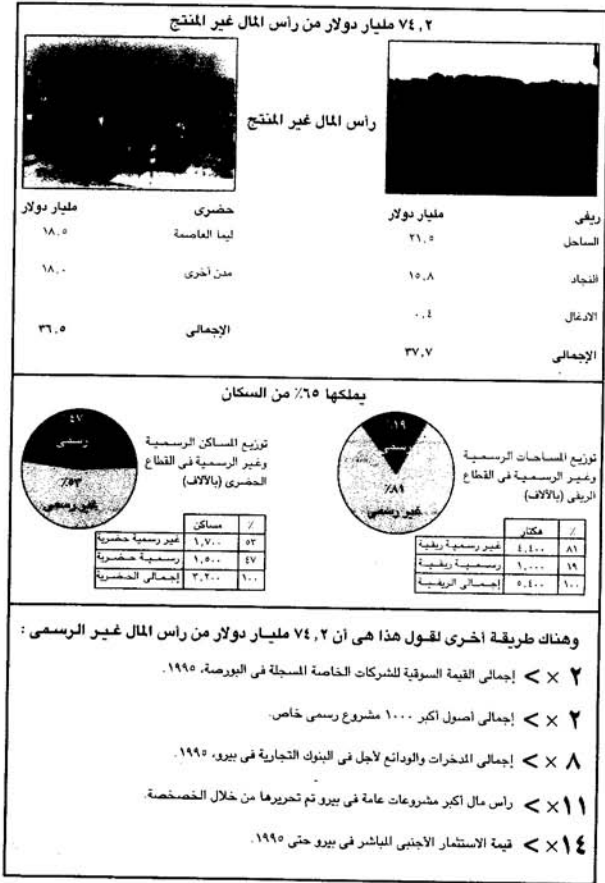
إن نجاح المنتج النهائى يرجع لكل من سبق ذكرهم. أما أوجه القصور فيه فترجع إلى وحدى.

التذيلات

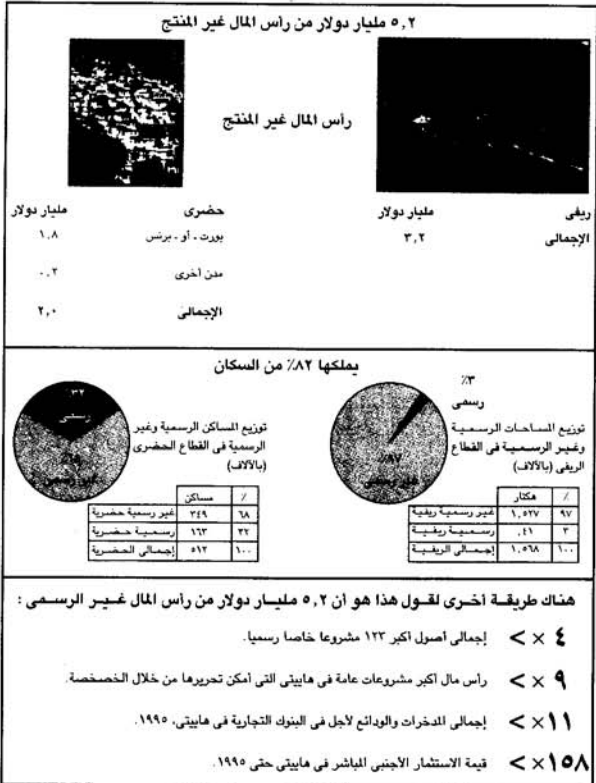
شكل (١.١) الفلبين : ما مقدار رأس المال غير المنتج ؟



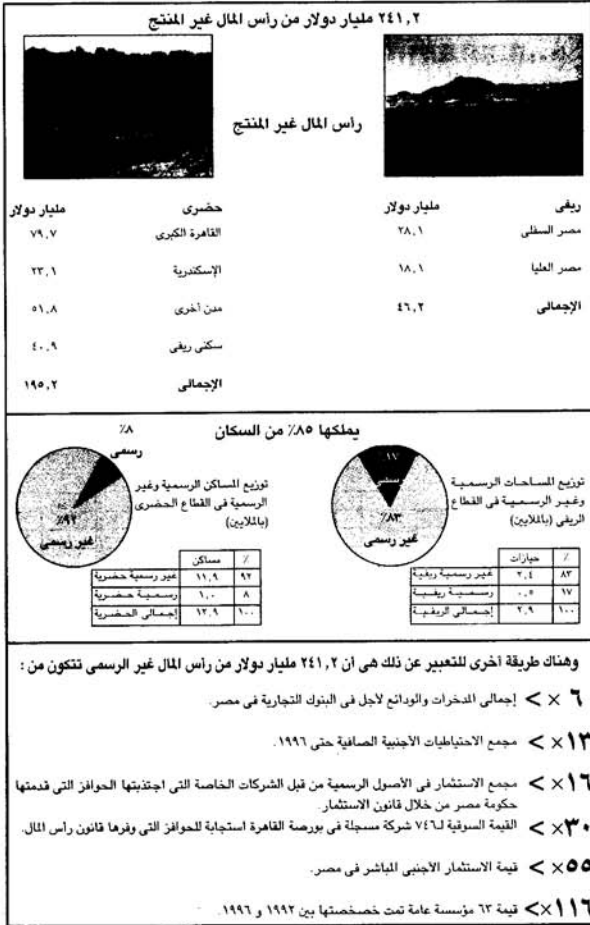
شكل (٢-١) بيرو : ما مقدار رأس المال غير المنتج ؟



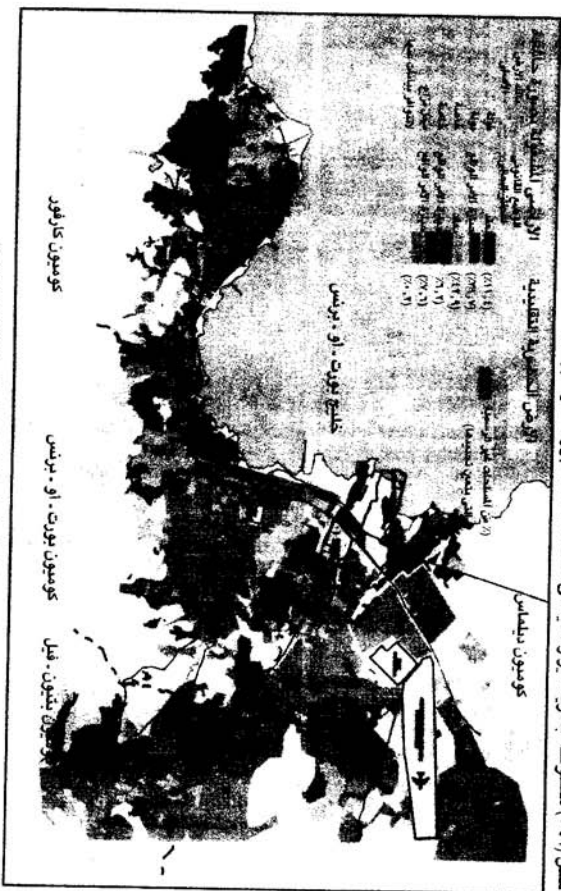
شكل (١ - ٣) هاييتي : ما مقدار رأس المال غير المنتج ؟



شكل (١ - ٤) مصر : ما مقدار رأس المال غير المنتج ؟



شكل (٥٠١) مستوطنة بشرية غير رسمية في منطقة العاصمة بورت - أو - برنس



(٢) تبيان التسمية المبررة العلاقة بين المساحة المسطحة للمستوطنة وأجزاء المساحة المسطحة غير الرسمية للكويمونات الأربعة

شكل (٦ - ١) أنواع الإنشاءات الحضرية غير الرسمية فى بورت - أو - برنس ومدن أخرى فى هايتى



شكل (٧٠١) امثلة من وحدات الإسكان الحضرية غير الرسمية في جمهورية مصر العربية



شكل (٨ - ١) أنواع الإنشاءات الحضرية غير الرسمية في مصر



فهرس

(١)

- الاصول المجمعة، ٦٠
إدماج المعلومات، ٥٤-٥٢
انظر أيضا معلومات الملكية
إزالة الأكواخ فى بنجلاديش، ٧٠
أساس فائض القيمة :
رأس المال، ٤٠، ٢١٦
تحويل الأصول، ٤٥
نظام الملكية، ٤٨، ٥١، ٧١، ٧٣، ٢١٨
نظم التمثيل، ١٥٧
أسباب عدم المساواة :
اللغة المكتوبة، ٢٢٣
القوانين المكتوبة، ٢١٠
آسيان :
استقلال أمريكا اللاتينية (عشرينيات
القرن ١٩)، ٢، ٣، ٢٠٨
فى القرن التاسع عشر، ٢٠٧-٢٠٨
الاستثمار الأجنبى المباشر، القيمة النسبية، ٥،
٢٣، ٣٤، ٣٥، ٨٦
الاستثمارات :
التعليمية، ٨١، ١٨٨، ١٩٥
توليدها، ٦٤، ٢١٠
استونيا، الفقر النسبى فيها، ٤
الأسواق، الملكية، ٥٢-٥٤
«أصدقاء الأرض»، ٨٥
- ادم سميث، ١١
والأسواق السوداء، ١٠
مفاهيم لم يبينها سلفا، ٤١، ٦٥
عن منافسة مشروعات الأعمال، ٩٥-٩٦
عن رأس المال، ٤٢، ٤٣، ٢١٤
عن تقسيم العمل، ٤١-٤٢، ٧١
آسيا :
الاصول الملوكة للفقراء ومختراتهم، ٥
إزالة الأكواخ فى بنجلاديش، ٧٠
رأس المال غير المنتج فى العقارات، ٣٦
(جدول)
النمو الاقتصادى المفروض بالقوة، ٢
إندونيسيا، ٧١، ٩١، ١٦١-١٦٢، ٢١٢
انظر أيضا الصين: اليابان
الآن بوج، ١٣٧، ١٣٩
الآن جارسيا، ١٩٠-١٩١
اتفاقية لاهى الدولية (١٨٩٩)، ١٦٥
الأجور، ٧١، ٨٠، ٩٣
«الأخلاقيات البروتستنتية»، ٢٢٤
إدارة المخاطر :
أدوات التأمين، ٦٠، ٦١
نظم المسؤولية المحدودة، ٢٢٤

- الإصلاحات الاقتصادية :
لندن زياويش، ٦٩
الاقتصادات المفتوحة، ٢١٠، ٢٢٧
انظر أيضا العولة
الأصول :
تحويلها لرأس مال، ٦، ٧-٨، ٤٠، ٤٦-٦٢
قابليتها للنقل والاستبدال، ٥٦-
١٨٧، ٦٧، ٦٣، ٥٨، ٢١١، ٢١٩
«الحياة» الموازية، ٦، ٣٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٥
قابليتها للتحويل، ٤٦، ١٨٧، ٢١١
القيمة المضافة، ١٤٦، ٢١٩
أصول تحويلها الحكومة :
المحتلة بصورة غير قانونية، ٣١، ٧٠، ٧٧
الخصخصة، ٢، ٣، ١٨٨، ٢٠٨
القيمة النسبية، ٣٣، ٢٤
انظر أيضا الخصخصة
إعادة هيكلة الدين، ٢٠٨
في أعقاب الحرب الباردة، ١-٢، ٦٥-٦٦
في أعقاب الحرب العالمية الثانية، ٨٠، ١٥٦
«الإعلان العالمي لحقوق الإنسان»، ١٦٥، ٢١٧
إفريقيا :
الأصول المملوكة للفقراء ومدخراتهم، ٥
رأس المال غير المنتج في العقارات، ٣٦
(جدول)
جمع الأموال الإسلامي، ٩١
جنوب إفريقيا، ٧٧-٧٨
القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون في
زامبيا، ٦٩
الاقتصاد الثنائي : انظر القطاع الذي لا يتمتع
بحماية القانون
اقتصاد السوق :
المدافعون عنه، ٢١٢
افتراضات عن السكان، ٢١١
المستند إلى رأس المال، ٤١، ٦٣
- الانتقال الأوروبي إليه، ٩٩-١٠٠
ونظام الملكية الرسمية، ٤٧، ٧٢، ١٩٥
الأسواق الحرة، ٣، ٢١٢
الأسواق المفتوحة، ٢، ٦٦، ٢١٠
عدم تساوى فرص الوصول إليه، ٢١١.
٢١٢
الاقتصادات السرية، ٩، ٦٩، ٢٠٩
انظر أيضا القطاع الذي لا يتمتع بحماية
القانون
البرتو فوجيمورى، ١٩٠
ألمانيا :
القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون، ٩٩
سجلات الملكية، ٥٤، ١٨٠
حقوق الملكية الشاملة، ١٨٧
أمريكا اللاتينية :
الأصول المملوكة للفقراء ومدخراتهم، ٥
محاولات لإقامة الرأسمالية، ٢٠٨، ٢٠٩-٢٠٨
البرازيل، ٢١، ٧٦، ٨٥، ٨٦
كولومبيا، ٢
النزعة الاستهلاكية، ٢٠٨-٢٠٩
رأس المال غير المنتج في العقارات، ٣٦
(جدول)
الإكوادور (جوايا كويل)، ٦٩
القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون، ٦٩.
٧٤، ٧٥-٧٦، ٨٥
التقاليد القانونية التاريخية، ٧٥
الاستقلال عن أسبانيا (عشرينييات القرن
١٩)، ٣، ٢٠٨
المكسيك، ٢، ٤، ٢٨، ٣٠-٣٢، ٧١، ٧٨، ٨٦
الخصخصة، ٢٠٨
تقنين الملكية، ١٦٥
سخط فئة ما دون الطبقات، ٢١٢-٢١٤.
٢١٥
فرنزويلا، ١، ٢١، ٨٦، ١١٢

- المطواف الحرفية، ٩٧-٩٨، ١٠٠
الحضرة، ٩٢-٩٥
القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون فى
أوروبا الغربية، ٩٥-١٠١
انظر أيضا بلدان فرادى: البلدان الغربية
أوكرانيا، القطاع الذى لا يتمتع بحماية
القانون، ٦٩
أوليفر ويندل هولز، ١٠٨، ١٥٣
إيران، المواجهة الطبقة فيها، ٢١٢
إيلي هكشر، ٩٥، ٩٦
- (ب)
- البرازيل :
سكان غابات الأمازون، ٨٥
المشروعات التى لا تتمتع بحماية القانون،
٧٦
العقارات التى لا تتمتع بحماية القانون، ٢١،
٨٥، ٨٦
برامج الإصلاح الزراعى، ٧٩، ٨٠، ١٦٧-
١٦٨، ١٧٦، ٢١٧-٢١٨
برامج تمويل المشروعات الصغيرة جداً، ٧٠
برنارد بايلن، ١١٠
بريطانيا :
النظام الراسمالى، ٢٠٨
قانون الأراضى المعقد، ١٦، ١٠٥، ١٤٤،
١٦٤
الثورة الصناعية، ٧١، ٩٣، ١٦٤
فى القرن التاسع عشر، ٢٠٧-٢٠٨
سجلات الملكية، ٦٠، ١٠٥، ١٠٦، ١٤٤
صناعة الغزل والنسيج، ١٠١، ٩٦
انظر أيضا البلدان الغربية
البطاقات الائتمانية، ٢٢٢
بكين، تدفق المهاجرين إليها، ٦٩، ٧٧
- انظر أيضا هاييتى: بيرو
إمكانات الأصول الكامنة، ٤٤-٤٦
تحديدها وتثبيتها، ٤٢، ٤٥، ٤٧-٤٨، ٤٩-
٥١، ٦٠
أوضاع تمت محاكاتها، ٥٧-٥٨
غير المؤثرة، ٦، ٣٢، ٧٦، ١٩١، ٢١١، ٢٢٧
الأمم المتحدة :
توصيات خاصة بالمعونة الأجنبية، ٥
«تقرير عن التنمية البشرية»، ٢١٥
إميليا فورد، ١١٣، ١١٦
«أنبل انتصار»، (بيتل)، ٦٤
إنتاجية :
ورأس المال، ٤٢، ٢٠٩
عوانق أمامها، ٧١، ١٠١
أندرو جاكسون، ١٣٣
أندريه رابازيانسكى، ١٧٠
إندونيسيا :
المواجهة الطبقة، ٢١٢
القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون،
١٦١-١٦٢
والثورة الصناعية الجديدة، ٧١، ٩١
أنطونيو مونتيل جويريرو، ٧٨
الإنفاذ :
المعتمد على العنوان، ٥٩
غير الفعال، ١٧٠
للاتزامات الرهن، ٦١
خدمات الشرطة، ١٩٦
أوتو شتايجر، ٦٤
الأوراق المالية المستندة إلى رهن، ٦، ٢٢٢
أوروبا :
رأس المال غير المنتج فى أوروبا الشرقية،
٣٦ (جدول)
حكاهما فى القرن التاسع عشر، ٢٠٧-٢٠٨
سياسيو «الطريق الثالث»، ٣

- البلدان الشبوعية السابقة :
- مقارنتها بأمريكا اللاتينية، ٢٠٩
- أزمة فى الرأسمالية، ١، ٢٠٧
- روح تنظيم المشروعات، ٤
- الفقر النسبى فى استونيا، ٤
- القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون، ٢٩، ٨٤، ٨٢، ٦٩
- جورجيا، ٦٩
- انهيار نظام الملكية، ٨٢
- روسيا، ١، ٢٩، ٦٩، ٧٤، ٢١٥
- أوكرانيا، ٦٩
- الحضرة، ٨٢
- انظر أيضا البلدان النامية
- البلدان الغربية :
- رأس المال المستخدم بكفاءة، ٢٠٩
- الهجرات الحاشدة، ٤، ٧٣، ٩٣-٩٦
- إصلاحات قانون الملكية، ١٠٩، ١٦٥، ١٧٢-
- ١٨٦، ١٧٤
- نظم حقوق الملكية، ٤٦، ٤٨، ٥١، ١٨١، ٢٢٥، ٢٢١
- انظر أيضا أوروبا: الثورة الصناعية
- البلدان النامية :
- مصادرة الأصول، ١٦٦-١٦٧، ١٩٦، ٢١٥، ٢١٦
- الصفوة فيها، ١٧، ١٦٦-١٦٧، ١٩١، ١٩٥، ١٩٧، ٢١٢
- عدم المساواة الصارخ، ٩، ٢٠٩
- توزيع الدخل، ٢١٥
- الثورة الصناعية الجديدة، ١٢، ١٧-١٨، ٧١-٧٣، ٨٦
- معدل وفيات الأطفال الرضع، ١٧، ٨٠
- العمر المتوقع عند الولادة، ١٧، ٢١٥
- انخفاض الدعم، ١
- مسح المدن، ٣٠-٣٢
- نقص الرسملة، ٦، ٢٨، ٢١٢
- قيمة العقارات التى لا تتمتع بحماية القانون، ٣٥
- انظر أيضا رأس المال غير المنتج: القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون: الحضرة البنك الدولى، ٣، ٣٤، ٣٥، ٢٠٢
- البنوك :
- المركزية، ٦٤
- التجارية، ٣٤، ٦٤، ٨٦، ١٩٥
- عدم الثقة فى الضمانات، ٩١
- البنية الأساسية الحضرية :
- التي شيدها المقيمون، ٨٩
- البلدان الغربية، ١٩٤
- انظر أيضا المرافق العامة
- بوب ميتكاف، ٧٢
- بورت - أو - برنس :
- فى مسح المدن، ٢٠-٢٢
- المستوطنات البشرية غير الرسمية، ٢٥٥-
- ٢٥٦ (شكل)
- المعاملات العقارية، ٣١
- قيمة العقارات، ٣٣
- البورصات :
- بورصة القاهرة، ٣٤
- فى البلدان المتقدمة، ٣٥
- بورصة ليما، ٣٣
- بورصة الفلبين، ٣٤
- الولايات المتحدة، ٢، ٣، ١٠٧
- بورصة الفلبين، ٣٤
- بول جيتس، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٤
- بيرو :
- التعاونيات الزراعية، ٣١
- الكويتشواس فى جبال الأنديز، ٢٢٦
- مصادرة الأصول، ١٦٦-١٦٧

- مشروعات الأعمال التي لا تتمتع بحماية القانون، ٧٦، ٨٣، ٩٢
- تقنين مشروعات الأعمال، ١٨، ٢٠، ١٥٤-١٥٥
- جامارا، ٩٢
- قانون الأراضي التاريخي، ١٤٤
- ما مقدار رأس المال غير المنتج ؟ ٢٥٢ (شكل)
- ليما، ٢٠-٢٣، ٩٢، ١٨٩-١٩٠
- بورصة ليما، ٣٣
- الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون، ٣١، ٢٣-٣٤، ٧٦، ٨٥، ٨٦، ١٦٨، ٢٢٦
- قيمة الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون، ٨٧، ٣٣
- تقنين الملكية، ١٩ (شكل)، ٢٠، ٣١، ١٩٠، ١٩٢-١٩٣ (شكل)، ٢٢٦
- إضفاء الطابع الرسمي على نظام الملكية، ١٨٩-١٩٥
- مدن الاكوخ، ١٨٩
- «منظمة التقييمات التقنية»، ٩٢
- بيروقراطيات سجلات الملكية، ٦١، ١٠٥، ١٢٤، ١٨٢، ٢١١-٢١٢
- انظر أيضا المنظمات التي لا تتمتع بحماية القانون
- بيل جيتس، ٢٢٣، ٢٢٤
- (ت)
- تبادل الأصول :
- المستند لرأس المال، ٤١، ٢٠٩، ٢١٥
- الذي لا يتمتع بحماية القانون، ٦، ٧١، ٨٣-٨٤
- ١٦٧-١٦٨
- فيما قبل الرأسمالية، ١٨٠-١٨١
- المفيد والراكد، ٣٢
- التجارة في حقوق الأرض المدعى بها، ١٣٩
- انظر أيضا المعاملات
- تثبيت العملة، ٢٠٣، ١٨٨، ٢١٠
- التجارة الدولية :
- سبب للحضرة، ٧٩، ٩١
- التحرير، ٢٠٨
- وزيادة الإنتاجية، ٤٢
- وضع مشروعات الأطر التنظيمية، ٢١٠
- علاج للضرورة الاقتصادية، ٣
- المهربون، ٩٧
- الحواجز الجمركية، ١
- تحصيل الديون، ٦، ٥١
- تحصيل الضرائب، ٦، ٥١، ٦٠، ٩٧، ١٠٠، ١٩٥
- التخصص :
- الدعم الرأسمالي له، ٤١-٤٢، ٢٠٩
- تقسيم العمل، ٦٣، ٧١، ٧٥، ١٦٣
- زيادة الإنتاجية، ٤١-٤٢
- تخفيض تكاليف المعاملات، ٥٨، ٢١٩-٢٢٠
- تراكم رأس المال :
- «البدائي»، ٥٥، ٢١٧
- والتخصص، ٤١-٤٢
- تركيا :
- الزلازل (١٩٩٩)، ٧٠
- الحضرة والجيسيكوندوس، ٧٧
- تشارلس هوارد شين، ١٤٣
- التعددية القانونية، ٥٣، ١٢٩، ١٧٥
- تغريب النزعة الاستهلاكية :
- تراخيص مطاعم الوجبات السريعة، ٢، ٦٦، ٢٠٨، ٢٠٩
- الإنترنت، ٢، ٢٠٩
- أحذية «نايك» وساعات «كاسيو»، ٢٠٧
- تراخيص محلات الفيديو، ٢، ٦٦

- الثورة الفرنسية، ٩٦، ٩٩، ١٩٥
ثورة الملكية :
تحديد واستمالة الصفوة، ١٩١، ١٩٥، ١٩٧
حتميات القيادة، ١٨٩
الرغبة الشعبية فيها، ١٩٠
دورة رجال القانون والمحامين، ١٩٧، ٢٠١
- (ج)
ج . إدوارد هوايت، ١٤٩
جرين ضد بيل (١٨٣٢)، ١٣١-١٣٤
جنوب إفريقيا، ٧٧-٧٨
جنيسون ضد كيرك، ١٤٧
جوايا كويل (الإكادور)، ٦٩
جور ضد ماكبراير، ١٤٣-١٤٤
جورج سوروس، ٢١٤
جورج ميللر، ٦٣
جورج واشنطن، ٩، ١٠، ١١٧، ١٢٠، ١٢٣
جورجيا، القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون، ٦٩
جوردن وود، ١٠، ١٤٨
جوزيف ستوري، ٩، ١٢٩
جوزيف شومبيتر، ٦٤
جوستافوس أدولفوس، ملك السويد، ٩٨
جون . ب . ياولسون، ١٨٥
جون . س . باين، ١٦٤، ١٨١-١٨٢
جونار هاينزون، ٦٤
جيرارد بارثيلمي، ٧٨
جيفري . ب . نونجت، ١٩٨
- (ح)
الحدثة، ١٨، ٨٠، ٨١، ١٨٧
الحرب الأهلية، ٢، ١٤٥
- «تقرير عن التنمية البشرية» (الأمم المتحدة)،
٢١٥
التكنولوجيا :
ونظم الملكية الرسمية، ٧١-٧٢
البراعة التكنولوجية غير الغربية، ٤، ٧، ١٦،
٨٦
تكنولوجيا الأسلحة، ٤
توازن الميزانية الوطنية، ١
التوجه نحو السوق، ٤
توم بيثل، ٦٤
توماس جيفرسون، ١٢٩-١٣٠، ١٨٧
توماس يولن، ١٧٤
- (ث)
الثروة :
خلقها، ٤١-٤٢، ٦٦، ١٦٣
عدم الإنصاف فيها، ٤، ٩
والإنتاجية، ٤١، ٢٠٩
في مدخرات الفقراء، ٥، ١١، ٣٣، ٣٤، ٣٧،
٤٧-٤٨
الاقتراضية، ٢٢٢
انظر أيضا فائض القيمة
ثروة الأمم، ٤١، ٢٠٩
الثقافة، والراسمالية، ٤-٩، ٢٢٣-٢٢٦
ثورة الاتصالات، ٨٠، ١٨٠، ٢٠٨-٢٠٩، ٢١٣
الثورة الأمريكية، ١١٤، ١٢٠، ١٢٥
الثورة الروسية، ٩٩، ١٩٥، ٢٠٨
الثورة الصناعية، ٤١، ٧١، ٧٥، ٩٣، ١٠٠،
١٠٢، ١٦٤
الثورة الصناعية الجديدة :
والمدن العملاقة، ٧١
مع الحضرة، ١٢، ١٧-١٨، ٧٠-٧١، ٧٣،
٨٦

الرشاوى/ العمولات، ٨٣، ٩٨، ١٠٠، ١٥٥، ١٩٦

تمركز السلطات، ٨١

الفسادة، ١٠٠-١٠١، ١٠٢، ١٥٥

فى الانتقال الاقتصادى، ١٥٨-١٥٩

إدارات المخابرات، ٢١٢

برامج تمويل المشروعات الصغيرة جدا، ٧٠

المفاهيم الخاطئة، ١٥٤

الوكالات العامة، ٦١، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٨

توصيات لها، ٧٥، ١٥٨-١٥٩، ١٦٨، ٢٢٧

نقص القدرة، ٨٦-٨٧

انظر أيضا أصول تجوزها الحكومة:

صانعو السياسة

حماية براءات الاختراع، ٤، ٧٠، ٨٣، ١٩٨، ٢٢٤

حملات إصدار سندات الملكية، ١٩٦

(خ)

الخصخصة، ٢، ٣، ١٨٨، ٢٠٨

الخصوع للمسالمة، قطاع لا يتمتع بحماية

القانون فردى، ٢١٠-٢١١

نظم الملكية الرسمية، ٥١، ٥٤-٥٦، ٥٩

الخلافه بالوراثة، ٥٧، ١١١، ١٩٦، ٢٢٤

خلق الائتمان، ٦٤

خلق رأس المال :

القوى البشرية الفاعلة فيه، ١٩٧-١٩٨

مرتبطا بحقوق الملكية، ٦، ٤٦-٤٧، ١٤٩

١٨١، ٢١٥-٢١٦، ٢١٨، ٢٢١

عجز الدول غير الغربية عنه، ٥، ٣٥، ٤٠

خوان لويس لوندونو، ٢١٤-٢١٥

(د)

الدرب المضىء، ٣٤

الدستور الأمريكى، ١٢٤

الحرب المكسيكية الأمريكية (١٨٤٨)، ١٢١، ١٢٥

الحضرة، ٧٧-٩٢

أسياها، ٨٠

الصين، ١٧، ٦٩، ٧٧

الإكوادور، ٦٩

مصر، ٦٩، ٧٨

أوروبا، ٩٢-٩٥

هايتى، ٦٩، ٧٨

الهند، ٧٣

الفلبين، ١٧، ٦٩

عدم الوعي السياسى بها، ١١-١٢

جنوب إفريقيا، ٧٧

الكتلة السوفييتية السابقة، ٨٢

تركيا، ٧٧

الولايات المتحدة، ٧٣

الحضرة فى الفلبين، ٢٠

حقوق الاكتتاب بشراء الاسهم، ٢٢٤

حقوق المساهمين، ٥١

حقوق الملكية :

الخلافه بالوراثة، ٥٧، ٢٢٤

عقبات أمام التقنين، ١٩ (شكل)، ٢٠، ٣١، ٤٧، ١٦٦

العقد الاجتماعى كأساس، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٦

فرص الحصول الشامل عليها، ١٦٥، ١٨٧

انظر أيضا القطاع الذى لا يتمتع بحماية

القانون: قانون الملكية

الحكومات :

قبول القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون،

٨٣، ٨٩-٩٠، ١٧٦-١٧٨، ٢١٧

إدارة التنمية، ٧٢

النقط العمياء لديها، ٧٣-٧٤، ٧٥-٩٣

- دنج زياوينج، ٦٩
«دويتشه مورجان جرينفل»، ٧٦
دونالد بيسانى، ١٤١، ١٣٦
دونالد ستيوارت، ٨٥
ديفيد توماس كوينج، ١١٢
- (ر)
- رأس المال :
تعريفه، ٤١
إنتاجه واستخدامه بكفاءة، ٢٠٩
فى أيدي القلة، ٦٧، ٢٠٧، ٢١٢، ٢١٣، ٢٢٧
باعتباره «جوهرًا مستقلًا»، ٢١٥
«يتفق ومقتضيات العقل»، ٢١٨-٢٢١
أسراره، ١١-١٣
علاقته بالنقود، ١١، ٤٣-٤٤، ٦٣
كمصدر للثروة، ٤١-٤٢، ٦٦، ٢٠٩
انظر أيضا رأس المال غير المنتج: فائض القيمة
رأس المال غير المنتج :
الأصول المحتملة غير المحققة، ٦، ٣٢، ٧٦، ١٩١، ٢١١، ٢٢٧
عدم قابلية الأصول للتحويل، ٦، ٣٥، ٤٧-٤٨
التبادل غير الرسمي للأصول، ٦، ٢١، ٧١، ٢١٠
العجز عن توليد رأس المال، ٥، ٣٢، ٣٥، ٧٣، ٢١٠
عملية الرسملة، ١٥٩-١٦١، ١٦٠ (شكل)
ضمانات للقروض، ٦، ٩١، ١٥٥
فى المقارنات على النطاق العالمى، ٣٦ (جدول)، ٢٥١-٢٥٨ (أشكال)
انظر أيضا القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون
- الرسامالية :
كنظام للفصل العنصرى، ٢٧، ٢٠٩، ٢١٣، ٢٢٣، ٢٢٧
تناقضاتها (ماركس)، ٢١٢
فى أزمة، ١-٣، ٨، ٢٠٧، ٢٠٨-٢١٢
الجوانب الثقافية، ٩، ٢٢٢-٢٢٦
شريان الحياة بالنسبة لها. انظر رأس المال
فى القرن التاسع عشر، ٧-٢٠، ٢٠٨
خصومها. انظر العداء للرسامالية
العمل على مستوى اللاوعى، ٦٥
انظر أيضا الرسامالية فى البلدان النامية: العولة
الرسامالية فى البلدان النامية :
رأس المال المستخدم بكفاءة، ٧٥، ٢٠٩
الجوانب الثقافية، ٤-٥، ٩، ٢٢٣-٢٢٦
التحديث الاقتصادى، ١
صناديق الاسواق الناشئة، ٣
المستثمرون الأجانب، ١، ٣٠، ٢١١، ٢١٤
الوجود عند الأطراف أو المحيط الخارجى، ٢٠٧
القطاع الخاص، ٣٠، ٢٣، ٣٤
المروجون لها، ٩، ٢١٠
انظر أيضا المستثمرون الأجانب، العولة
«الرعب الاقتصادى» (فورستر)، ٣، ٢٢٢
الرهونات، ١٦، ٦١، ١٩٥
روبرت ايكلوند، ٩٧
روبرت تولىسون، ٩٧
روبرت كوتر، ١٧٤
روح تنظيم المشروعات :
الكتلة الشيوعية السابقة، ٤
لدى الفقراء، ٣٠، ٣٤
العالم الثالث، ٢٨، ٣٥، ٣٧، ٨٥
الغربية، ١٠، ٧١
أوروبا الغربية، ٩٩

البريطانية، ١٠٥، ١٠٦، ١٤٤
 سلسلة سندات التملك، ١٨٢، ١٨٤ (شكل)
 التي لا تتمتع بحماية القانون، ١٨٣، ١٨٥
 وظائفها، ٤٦-٤٧
 غير الكافية، ٦، ١٦٦
 اليابانية، ١٠٥، ١٥٦
 المفاهيم الخاطئة المتعلقة بها، ١٥٦-١٥٧
 سقوط سور برلين، ١
 سندات الملكية :
 الوثائق الرسمية، ٤٧، ٤٨، ٦٤، ١٨٢
 الوثائق غير الرسمية، ١٨٣، ١٨٤ (شكل)
 السنغال، مدينة تويبا، ٩١
 سوق السلع الأساسية، بورصة شيكاغو، ٦٢
 السويد، القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون،
 ٩٨
 سويسرا، ٤، ٥٤، ١٧٢-١٧٣، ١٨٧
 السيادة الشعبية، ١٤٦
 سيمون فاس، ٨٩

(ش)

الشبكات :
 المالية، ٥٨-٦١، ٦٧
 التنظيمية، ٧٢
 الشرق الأوسط :
 الأصول المملوكة للفقراء ومدخراتهم، ٥
 رأس المال غير المنتج في العقارات، ٣٦
 (جدول)
 المعرفة التاريخية بالسوق، ٤
 قناة السويس وسد أسوان، ٥
 انظر أيضا مصر
 شركات التأمين، ٦٠، ١٩٥
 الشيوعية، كأيديولوجية، ٢٠٨

انظر أيضا مشروعات الأعمال، التي لا
 تتمتع بحماية القانون
 روسيا :
 الرأسمالية في أزمة، ١
 القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون، ٢٩،
 ٦٩، ٧٤، ٢١٥
 النتائج المحلى الإجمالى، ٦٩، ٧٤، ٢١٥
 ملكية الأرض، ٢٩
 انخفاض العمر المتوقع عند الولادة، ٢١٥
 رونالد هـ . كواس، ١٥، ٢٢٠
 ريتشارد باييس، ١٩٥

(ز)

زامبيا، القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون،
 ٦٩
 الزراعة، ٨٠، ١٩٦-١٩٧
 انظر أيضا برامج الإصلاح الزراعى
 زيادة عوامل الإنتاجية :
 حقوق الملكية الرسمية، ٧٥، ٢١٨-٢١٩
 التخصص، ٤١، ٧٥
 التجارة، ٤٢

(س)

س . ر . سمبسون، ١٩٩
 س . راينولد نويس، ١٥٨، ١٦٣
 سامارك . داتا، ١٩٨
 سجلات وتاريخ الائتمان :
 الأصول كضمان، ٦، ٣٩، ٥١، ٦٠، ٨٤
 فقد الغفلية، ٥٥
 سجلات الملكية :
 وثائق الإصلاح الزراعى، ٢١٨
 أساس للبنية الأساسية، ٦، ٥١

(ص)

صانعو السياسة :

دعاة الإصلاح الاقتصادي، ٢١١-٢١٢

رؤساء الدول، ١٨٨-١٨٩، ١٩٠-١٩١

اختيار رجال القانون والمحامين، ٢٠٠-

٢٠١

الحفاظ على الوضع القائم، ٨٢،

١٨٨، ١٩٧، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١١ - ٢١٢،

٢١٣

انظر أيضا الحكومات

الصراع الطبقي، ٢١٢، ٢١٣-٢١٤

صكوك الملكية، ٧، ٦٠

صناديق المساعدة الإنمائية، ٣٥

الصناعات الصغيرة، ٢٨، ٢٢٤

«صندوق النقد الدولي»، ٣

الصين :

بكين، ٦٩، ٧٧

رأس المال غير المنتج في العقارات، ٣٦

(جدول)

إصلاحات دنج زياو بينج، ٦٩

القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون، ٦٩،

٧٧، ٧٤

الفقر النسبي، ٤

الحضرة، ١٧، ٦٩، ٧٧

(ض)

الضرائب المحصلة من الشركات القانونية،

١٥٥، ١٥٤

(ط)

«طبيعة الشركة» (كواس)، ٢٢٠

(ع)

العالم الثالث :

الثورة الاقتصادية (خمسنيات القرن ٢٠).

١٧، ١٢

روح تنظيم المشروعات، ٤، ٢٨، ٣٥، ٣٧،

٨٥

المستعمرات الإقطاعية، ٢٠٨

انظر أيضا البلدان النامية

العالم الثاني، ٢١٧

«عجلات التجارة» (برودل)، ١

العداء للرأسمالية :

وقشل الرأسمالية، ٣-١، ٢١٤

أعداء التمثيل، ٢٢٢-٢٢٣

عدم الاستقرار السياسي، ٢، ٩، ٢٠٩

عدم المساواة :

البلدان النامية، ٩، ٢٠٩

الفصل العنصري الاقتصادي، ٦٧، ٢٠٩،

٢١٣، ٢٢٣، ٢٢٧

العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون، ٣٠-

٣٥

الغافيل البرازيلية، ٢١، ٨٥، ٨٦

الصين، ٧٧

تشبيدها، ٧٦، ١٩١، ١٩٤

مصر، ١٦، ٣١، ٢٣، ٣٤، ٩٠، ٢٢٦،

٢٥٧-٢٥٨ (شكل)

هايبتي، ٢٥، ٢١، ٢٣، ٧٨، ٢٥٥-٢٥٦

(شكل)

إندونيسيا، ١٦١-١٦٢

المكسيك، ٧٨، ٨٦

الإسكان العسكري، ١٧٦

بيرو، ٣١، ٣٣-٣٤، ٧٦، ٨٥، ٨٦، ١٦٨،

٢٢٦

الفلبين، ٣١، ٣٢-٣٣، ٣٤، ٧٧

- (غ)
- جنوب إفريقيا، ٧٧
- السويد، ٩٨
- الولايات المتحدة، ٩-١٠، ١٦-١٧، ١٠٥-١٥١
- الرانشو الفنزويلية، ٨٦
- «الضواحي» في غربى أوروبا، ٩٤، ٩٥-٩٩
- انظر أيضا رأس المال غير المنتج: مدن
- الأكواخ: واضعو اليد
- العقود الاجتماعية :
- أساس لحقوق الملكية، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٦
- إدراك الحكومات لها، ١٨٧، ٢٢٧
- الوطنية، ١٥٧-١٥٨، ١٦١، ١٧٢-١٧٣، ١٧٩، ٢٠٣، ٢١٨
- العقود الاجتماعية التى لا تتمتع بحماية
- القانون، ١٧١-١٨٠
- البلدان النامية، ٢٨، ٨٧-٨٨، ١٠٣، ١٥٦-١٥٧
- ١٦٢، ١٥٧
- مغارمها، ١٨٠
- المفاهيم الخاطئة تجاهها، ١٥٤
- الأمريكية، ١١٦-١١٧، ١٣٦، ١٤٥-١٤٦
- البلدان الغربية، ١٠٦
- العملات الورقية، أصلها، ٦٣، ٢٢٢
- العولة :
- الفصل العنصرى / الحصرية فيها، ٢٠٧-
- ٢٢٧، ٢١٣
- افتراضاتها، ٢١٠-٢١١
- عولة الراسمالية، ١٨٩، ٢٠٧-٢٢٧
- أسبابها، ٢١٠
- الاعتماد المتبادل، ٧٠
- السياسات الاقتصادية الكلية، ٦٦، ١٠٣، ٢١١، ١٦٥
- انظر أيضا النزعة الاستهلاكية: التجارة
- (ف)
- الفاشية، كائيدولوجيا، ٢٠٨، ٣
- فرنسا، ٢٠٧-٢٠٨
- القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون، ١٠، ٩٧، ٩٦
- استقلال هاييتى (١٨٠٤)، ٥
- فالنس، ٩٧
- فريد زكريا، ٢٢٥
- الفصل العنصرى القانونى، ٦٧، ٨٢-٨٤، ١٨٨، ٢١٣، ٢٢٣
- الاستعمارى فى الولايات المتحدة، ١١٠-
- ١١٣
- الفقر :
- تخفيف عبئه، ٧٥
- معدل النمو، ٢١٤-٢١٥
- «الدولى»، ٣٥
- المستوى «العادى» له، ٧٥-٧٦
- «جيبوه»، ٢١٢
- النسبى، ٤
- سخط فئة ما دون الطبقات، ٢١٢-٢١٤، ٢١٥
- فقراء الناس :
- الأصول المصادرة، ١٦٦-١٦٧
- الأصول المملوكة للفقراء ومختراتهم، ٥، ١١، ٤٧-٤٨، ١٧٠، ٢٢٧
- عملية الرسملة، ١٨٨
- والمفهوم الطبقي، ٢١١، ٢١٣-٢١٤
- العقود التعاونية، ١٩٠

- السيطرة على التجارة، ٣٠
تهميشهم، ٦٦، ٧٥-٧٦
منظورهم، ١٨٩-١٩١، ١٩٣-١٩٦
الفقر النسبي، ٢٨-٣٠، ٢١٢
كحل لمشكلة رأس المال، ٣٧، ٢٢٧
البراءة التكنولوجية، ٤، ١٦، ٧
الإمكانات غير المؤتقة، ٦، ٣٢، ٧٦، ١٩١، ٢١١، ٢٢٧
قيمة الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون، ٣٠-٣٢، ٤٧-٤٨
انظر أيضا القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون؛ الفقر
- الفلبين :
العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون، ٣١، ٣٣، ٣٤
ما مقدار رأس المال غير المنتج، ٤، ٢٥١ (شكل)
مانيل، ٣٠-٣٢، ٣٣، ٧١
تقنين الملكية، ٢٠، ٢٢-٢٣ (شكل)
فنزويلا :
الرأسمالية في أزمة، ١
المواجهة الطبقة، ٢١٢
القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون، ٢١، ٨٦
فيرناند برويل، ١، ٦٦-٦٧، ١٥٣، ١٥٦
فيفيان فورستر، ٢٢٢
- (ق)
قانون التملك الناقص، ١٤٤
قانون الملكية :
الوظائف والمكونات، ١٥٧-١٥٩، ١٧٩
فشل القانون الإلزامي، ١٦٤-١٧١
انظر أيضا النظم القانونية
- قانون ميتكاف، ٧٢
القاهرة :
رأس المال غير المنتج، ١٦
العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون، ٣٠-٣١، ٣٣
الإنشاءات الحضرية غير الرسمية، ٢٥٨ (شكل)
القرن العشرون :
تحديات للرأسمالية، ٣، ٢٠٨
البلدان الرأسمالية العظمى، ٢٠٨
«قصة الأرض» (باولسون)، ١٨٥
القطاع الإجرامى :
مهربو المخدرات، ٢، ٧٠، ١٩٦-١٩٧
رجال العصابات، ٣٠، ٧٠، ١٠٧، ١٧٩، ١٩٦
المافيا، ٩، ١٥٥، ٢٠٩، ٢٢٧
المهربون، ٩٧
القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون :
الأسواق السوداء، ١٠، ٣٠، ٧٦، ٢١٦
النمو الأسى، ١٧٨
القبول الحكومي له، ٨٣، ١٧٧-١٧٨، ٢١٧
الإسكان. انظر العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون
الذي تم إفقاره، ٨٩، ٢١٣
العادي، ليس الهامشى، ٣٠، ٨٦
عقبات أمام التقنين، ١٩ (شكل)-٢٠، ٣١، ٤٧، ١٦٦
الذي تم تسوية وضعه رسمياً، ٥٣، ١٠٢، ١٠٦-١٠٨، ١١٥، ١١٩-١٢٠، ٢١٣
الانتقال منه، ١٠٦، ١٥٤-١٥٥، ١٥٨-١٦١
الاقتصادات السرية، ٩، ٦٩، ٢٠٩
انظر أيضا مشروعات الأعمال التي لا تتمتع بحماية القانون؛ واضعو اليد، الحضرنة

القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون فى
منطقة الكاريبي، ٦٩
القلال الاجتماعية :

العصيان المدنى، ٩٥، ٩٨، ٢٢٧

الصراع الطبقي، ٢١٢، ٢١٣-٢١٤

الصراعات العرقية والثقافية، ٢١٣

حوادث الشغب بشأن الطعام، ٣

الاحتجاجات ضد صندوق النقد الدولي /

البنك الدولي، ٣

عدم الاستقرار، ٢

المستوى الدولي، ٢١٣

المحرضون السياسيون، ٣، ٧٠، ٢١٣

الحركات الثورية، ١٠١

الاحتجاجات ضد منظمة التجارة العالمية

(سياتل)، ٣

(ل)

لائحة الاجور، ٥٧، ١٠١

ليبيا، سندات ملكية الاراضى القبلية، ٩٠

ليستر ثورو، ٢٠٨

(م)

ماريو فارغاس لوزا، ١٩٠

المافيا، ٩، ١٥٥، ٢٠٩، ٢٢٧

ماليزيا، أزمة الرأسمالية فيها، ٢

مانيللا، ٣٠-٣٢، ٣٣، ٧١

مايكل ميلكن، ٧

المؤسسات :

تكيفها، ٧١

عدم كفايتها، ٧٣

استيعاب المؤسسات القانونية، ٦٦

الاحتجاج عليها، ٣

المتطورة جيدا، ٧٣

مؤشر داوجونز الصناعى، ٢، ١٠٧

محاضر محمد، ٢

الحامون ورجال القانون، ٦٧، ١٩٠، ١٩٧-

٢٠١

المحكمة العليا للولايات المتحدة، ١٣١-١٣٣،

١٣٤، ١٤٧

محكمة كاليفورنيا العليا، ١٤٣

(ك)

كارل بولنائى، ٣

كارل ماركس، ١١

مفاهيم لم يتبينها سلفا، ٦٥، ٢١٥-٢١٦

تحول الأصول إلى شىء متعال، ٤٢، ٢١٤،

٢١٥

عن تراكم رأس المال، ٤١-٤٢

عن الصراع الطبقي، ٢١٢، ٢١٣-٢١٤

عن النظم التمثيلية، ٢٢٢

عن فائض القيمة، ٢١٧

كاليفورنيا :

الفقر النسبى فى باجا، ٤

النجاح الاقتصادى، ٤

هوجة الذهب، ١٤٠-١٤٧

النمو الحضري فى لوس انجيلس، ٧٣

سلطة قضائية للملكية (١٨٤٩)، ٥٣

الكساد الكبير، ٢٠٨، ٣

- المخدرات :
- الأصول الملوكة للفقراء، ٥، ١١، ٤٧-٤٨
- توصيات، ٢٢٧
- مدن الاكواخ :
- بنجلاديش، ٧٠
- هايتي، ١٨، ٧٨، ٨٦
- القامة على الاراضى الحكومية، ٣١، ٧٠، ٧٧
- بيرو، ١٨٩
- تركيا، ٧٧
- انظر أيضا العقارات التى لا تتمتع بحماية القانون
- المدن العملاقة، ٧١
- المرافق العامة :
- المعتمدة على العنوان، ٥١، ٥٩، ١٩٥
- إنشائها، ٦، ١٩٤-١٩٥
- انخراط الحكومة فيها، ٥٩، ١٧٤
- عدم كفايتها، ١٨، ٥٦، ٧٣، ٧٧
- الصرف الصحى، ١٨، ٧٣، ١٨٥
- الخسائر الفنية / المالية، ٥٩-٦٠
- سرقة الخدمات، ٢٨، ٢٩، ٥٩، ٦٠، ٧٠
- مرجريت بونن، ٢٢٠
- مرجريت جروترو، ١٧٥
- مرسوم هومستيد، الولايات المتحدة (١٨٦٢)، ١٠٧-١٠٨، ١٤٧
- مركز الدراسات الاقتصادية للقطاع الخاص، ٧٨
- المركناتالى، ١٧، ٩٤، ٩٩، ٢٠٩
- المستثمرون الأجانب :
- اختفاؤهم خلال الكساد، ٣
- تعزيتهم، ١، ٢١١
- الذين لهم صلات بأهل الداخل، ٦٧
- الشركات متعددة الجنسيات، ٢١٤
- ملكية رأس المال، ٦٧
- المستثمرون المحليون :
- ملكية رأس المال، ٦٧
- انظر أيضا المستثمرون الأجانب
- مشروعات الأعمال التى لا تتمتع بحماية القانون، ٢٨-٣٠
- صناعة التشييد فى البرازيل، ٧٦
- منطقة الكاريبي، ٦٩
- ورش صغيرة تدفع أجور منخفضة وتسودها ظروف غير صحية بالصين، ٦٩، ٧٤
- صعوبة تحديد الموقع، ٦
- العمالة فيها، ٢١، ٢٨-٢٩، ٦٩، ٧٤
- منظمو المشروعات، ٢٨، ٧٤، ٧٩، ٨٤، ٢١٦
- هايتي، ١٨
- الصناعة التحويلية، ٩٢، ٩٦-٩٩
- المكسيك، ٢٨، ٧٨
- نفقات التشغيل، ٨٣، ١٥٥
- بيرو، ٧٦، ٨٣، ٩٢
- روسيا، ٦٩، ٧٤
- الدول السوفيتية السابقة، ٢٩، ٦٩
- ورش صغيرة تدفع أجورا منخفضة وتسودها ظروف غير صحية، ٦٩، ٧٠، ٧٤
- النقل العام، ٢٨، ٧٠، ٧٩، ٨٩
- التي تشكو نقصا فى رأس المال، ٦، ٢٨، ٢١٢
- لا تتخذ شكل شركات، ٦، ٧، ١٥٥
- الباعة، ١٨، ٢٨، ٧٠، ٧٩، ٩٦، ١٧٩
- فنزويلا، ٢١
- أوروبا الغربية، ٩٥-١٠١
- زامبيا، ٦٩
- انظر أيضا روح تنظيم المشروعات
- مشروعات الأعمال القانونية :
- باعتبارها قطاعا يلتزم بالقانون، ٢١٣
- عقبات امام دخولها، ١٨، ٢٠، ١٥٤-١٥٥

- المكسيك :
- القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون. ٢٨.
- ٨٦، ٧٨
- الناتج المحلى الإجمالى، ٧٨
- المعرفة التاريخية بالأسواق. ٤
- الغلاقل الاجتماعية. ٢
- مكسيكوسيتى، ٢٨، ٣٠-٣٢، ٧١
- الملكية :
- رأس المال / النقود كوسيط. ٦٣
- مفهومها، ٤٩-٥٠
- مشتقاتها، ٢٢٢-٢٢٣
- انظر أيضا النظم التمثيلية
- ملكية الاستثمار. ٥٧، ٦٧، ٨٦-٨٧
- ممارسة حبس الممتلكات، ١٨٧
- من يعيشون خارج الناقوس الزجاجى. ٧٥-
- ٩٣، ٢١٢، ٢١٣
- من يعيشون داخل الناقوس الزجاجى :
- معادلة برونل، ١، ٦٦-٦٧
- الحامون ورجال القانون، ١٩٠، ١٩٧-٢١٠
- أراء عن الثقافة. ٢٢٤-٢٢٥
- القلة ذات الامتيازات. ٦٧، ١٥٣، ١٨٨.
- ٢٠٧، ٢١٢، ٢٢٣، ٢٢٧
- المنافسة ومشروعات الأعمال فى أوروبا
- الغربية، ٩٥-٩٦، ٩٩
- «المنتدى الاقتصادى العالمى»، ٢١٣
- منظمات القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون:
- البلدان النامية، ٨٧-٨٩، ١٤٩، ١٧٤، ١٧٧-
- ١٧٨
- أنواعها المسجلة. ٨٧-٨٨
- جمعيات الحقوق المدعى بها فى أمريكا،
- ١٣٦-١٤٠
- منظمات القائمين بالتعدين الأمريكية. ١٣٦-
- ١٣٧، ١٤٠-١٤٨
- «منظمة التجارة العالمية»، ٣، ١٨٦
- القطاع الخاص، ٣٠، ٣٣، ٣٤
- مصر :
- الاسكندرية. ٩٠
- الأصول المملوكة للفقراء ومدخراتهم، ٥
- القاهرة، ١٦، ٣٠-٣١، ٣٣، ٢٥٨ (شكل)
- بورصة القاهرة، ٣٤
- الرأسمالية، ٢٠٩-٢١٠
- رأس المال غير المنتج، ١٦، ٢٥٤ (شكل)
- عقبات أمام التقنين، ٢٠-٢١، ٢٤-٢٥
- (شكل)
- العقارات التى لا تتمتع بحماية القانون، ١٦،
- ٣١، ٣٣، ٣٤، ٩٠، ٢٣٦، ٢٥٧-٢٥٨ (شكل)
- الحضرة، ٦٩، ٧٨
- المعاملات :
- حمايتها، ٦١
- انظر أيضا تبادل الأصول
- المعاملات التى لا تتمتع بحماية القانون :
- مغارمها، ٤٧، ٧١، ٨٧، ١٦٣
- غير الرسمية، والخصصة، ٣١، ٧٤
- الأنواع المسجلة فيها، ٨٨
- غير القابلة للإنفاذ، ١٦، ٨٣
- معدلات التبادل، ٢٢٦
- معلومات الملكية :
- خدمات وصف الأصول، ٦١-٦٢
- المتكاملة، ٥٢-٥٤، ١٦٢
- النمطية، ٥٣، ٥٧-٥٨
- المتاحة للكافة، ٥٣
- معمم القذافى، ٩٠-٩١
- «معهد الحرية والديمقراطية»، ١٦١
- «المعهد الوطنى المكسيكى للإحصاء»، ٢٩
- المفهوم الطبقي، ٢١١-٢١٢
- مكافحة التضخم، ٢٠٨
- المكتب العام للأراضى، الولايات المتحدة،
- ١٢٤-١٢٥، ١٤١

- «منظمة العمل الدولية»، ٦٩، ١٦٥
 مهريو المخدرات، ٢، ٧٠، ١٩٦-١٩٧
 الميليشيات، ٢
- (ن)
- نانسى بيردسال، ٢١٤
 النظام المصرفى :
 دور الملكية، ٦٣
 الثقافة فى الممارسات المصرفية، ٣
 نظام الملكية بالولايات المتحدة، ١٠٥-١٥١
 المنازعات، ٩-١٠، ١٦-١٧، ١١٤، ١٣٦-١٣٧
 النظام الرسمى، ٥٣، ١٠٥، ٢٢٤، ٢٢٦
 «مرسوم هومستيد»، ١٠٧-١٠٨، ١٤٧
 للتكامل، ٥٣، ١٤٥-١٤٩
 سلطات قضائية (١٨٤٩)، ٥٣، ١٤٠-١٤١
 قوانين شغل الأراضى، ١٣٠-١٣١، ١٣٤-١٣٥
 النظام الأساسى لحق الشفعة، ١١٩-١٢٠، ١٣٥، ١٤٠
 انظر أيضا المنظمات التى لا تتمتع بحماية القانون: نظم الملكية الرسمية
 النظام النقدي، ٦٣
 نظم تسجيل الأصول، ٤٦-٤٧
 خدمات الوصف، ٦١-٦٢
 المجسدة فى سندات ملكية، ٤٧، ٤٩-٥٠
 معايير التشغيل، ٤٧، ٦٢
 للنظم التمثيلية :
 الغائبة فى البلدان النامية، ٦-٧
 انقضاها عن الأشياء، ٤٩-٥١، ٥٦
 اليونانية / الرومانية، ٢٢٤
 إجماع المعلومات، ٥٢-٥٣
 خصومها، ٢٢١-٢٢٤
- أدوات التخطيط الاستراتيجية، ٥٨
 أدوات للسرقه، ٢١٦-٢١٧
 التوثيق الغربى، ٦-٧
 اللغة المكتوبة، ٢٢٣
 نظم سندات الملكية، ٦٠، ١٦٦-١٦٧، ١٦٩
 جوانبها الفنية، ٢٠٢، ٢٠٤
 النظم القانونية :
 الفاسدة، ٩٩-١٠٠
 عدم احترامها على نحو فاضح، ٩، ١٠٠، ١٧٥، ٢٠٩
 العداء للمهاجرين، ٨٢
 الدولية، ١٦٥
 القدرة على دفع أتعاب المحامين، ٦٧
 وتكوين الشبكات، ٧٢
 إصلاح النظام القانونى الموصى به، ٧٥، ٢٢٧
 الرومانية، ٥٣، ٦٢، ١٨٠، ٢٠٠
 الانتقال إليها، ١٥٧-١٥٨، ١٦١-١٦٤
 ١٨١-١٨٧، ٢١٠-٢١١
 العالم الغربى، ٢١٦
 انظر أيضا قانون الملكية
 النظم القانونية التى لا تتمتع بحماية القانون :
 حل الشفرة / إعادة البحث، ١٨١-١٨٧
 البلدان النامية، ٥٩، ٧١، ٨٤، ٨٧، ١٧٥-١٧٦
 «قانون الناس»، ١٦٢، ١٧٣، ١٨٦
 الولايات المتحدة، ١٢٩، ١٣٦-١٤٨
 انظر أيضا التنظيمات التى لا تتمتع بحماية القانون: العقود الاجتماعية التى لا تتمتع بحماية القانون
 نظم الملكية الرسمية، ٢٠٧-٢١٨، ٢٢٣-٢٢٦
 حماية الأصول / الملكية، ٤٦، ٦٧، ١٥٨
 وخلق رأس المال، ٦، ٣٥، ٤٦، ٢١٥-٢١٦، ٢٢١، ٢١٨

استراتيجيات المدخلات / المخرجات، ٢١٩
ونظام الملكية المتكامل، ٥٣، ١٥٠
تأثير المحامين ورجال القانون، ١٩٨

(هـ)

هارولد بيرمان، ١٧٢
هارولد ديمستز، ٦٤
هايبتي :
الأصول المملوكة للفقراء ومدخراتهم، هـ
مشروعات الأعمال التي لا تتمتع بحماية
القانون، ١٨
ما مقدار رأس المال غير المنتج ؟، ٢٥٣
(شكل)
الاستقلال عن فرنسا (١٨٠٤)، هـ
عقبات أمام التقنين، ٢١، ٢٦-٢٧ (شكل)
بورت - أو - برنس، ١٧، ٣٠-٣٣، ٦٩،
٢٥٥-٢٥٦ (شكل)
وثائق حقوق الملكية، ١٨٣

العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون، ٢٥،
٢١، ٧٨، ٢٥٦-٢٥٥ (شكل)

قيمة العقارات التي لا تتمتع بحماية
القانون، ٢٣، ٨٧

مدن الأكواخ، ١٨، ٧٨، ٨٦
الحضرة، ٦٩، ٧٨

هروب رأس المال، ٩، ٢٠٩

الهند :

يومباي، ٩٢

نمو كالكتا، ٧٣

النمو في دلهي، ٧٣

هنري بولدرينك، ٧٧

هولندا في القرن التاسع عشر، ٢٠٧-٢٠٨

مجلسدة من أجل نوى الامتيازات، ٦٧،
٢١٤، ٢١٢

الدستورية، ١٦٥، ١٦٦، ٢١٧
الجوانب الثقافية، ٢٢٣-٢٢٦

العقود القابلة للإنفاذ، ٥٥-٥٦، ٥٩، ١٩٨،
٢٢٤

التداعيات، ٢١٥-٢٢٣

المتكاملة، ٥٣، ١٤٥-١٥١، ١٥٧-١٥٩،
١٦٣، ١٨٧

فقد العقلية، ٥٣-٥٥

المناصرة السياسية لها، ١٨٧-٢٠٥

وسجلات الملكية، ٦، ٤٦-٤٧، ٢٢٤

توصيات، ٧٥، ٢٢٧

وتحديد معدلات التبادل، ٢٢٦

اثارها السنة، ٤٩-٦٢، ٦٦

الانتقال إليها، ١٦٣-١٦٤، ١٧٢-١٧٤،
١٨١-١٨٧

انظر أيضا ثورة الملكية، نظام الملكية
الأمريكي

النقد :

أصل العملات، ٦٣، ٢٢٢

النقد المشتقة، ٢٢٢-٢٢٣

ملاذات دولية لها، ٢

غير التضخمية، ٦٥

افتراض الملكية سلفا، ٦٤

العلاقة برأس المال، ١١، ٤٣-٤٤، ٦٣

انظر أيضا العملة

نمط ما قبل الرأسمالية :

انهيار المجتمع، ١٠٢

تثبيت السعر / الأجر / الدخل، ١٠١، ١٧٦

قانون «الحكم الابتدائي»، ١٦٤

النمو الاقتصادي :

المفروض بالقوة في آسيا، ٢

(و)

واضعو اليد :

البلدان النامية، ٨٦، ١٥٦، ١٧٦-١٧٧، ١٩٦
تسوية وضعهم رسميا، ٧٠، ١٧٤، ١٧٧
جنوب إفريقيا، ٧٧
الولايات المتحدة، ١٦-١٧، ٥٣، ١٠٧، ١١٣-
١١٩، ١٢٢-١٣٦

وقوانين شغل الاراضى فى الولايات
المتحدة، ١٣٠-١٣١، ١٣٤-١٣٥

وصف الأصول، انظر معلومات الملكية

وقورات الحجم، ٨٣، ١٥٥، ٢٢٤

الولايات المتحدة :

القانون البريطانى للأراضى، ١٦، ١١٠-
١١٦، ١١٩، ١٤٤

كاليفورنيا، ٤، ٥٣، ٧٣، ١٤٠-١٤٧

بلد رأسمالى، ١٢، ٢٠٨

النمو الاقتصادى، ٥٣

موجات الهجرة، ١٠٧، ١١٠

تملك الأرض بمساحات واسعة، ١٢١

سياسة إصدار «سندات بقطع صغيرة من

الأرض»، ١٢٥-١٢٦

الغرب الأوسط، ١٣٦-١٤٠

قانون الشمال الغربى، ١٢١-١٢٢

معدل نمو السكان، ١٣٢

السكك الحديدية عبر القارة، ١٢٦-١٢٧

العقارات التى لا تتمتع بحماية القانون، ٩-

١٠، ١٦-١٧، ١٠٥-١٥١

البورصات، ٢، ٣

الحضرة، ٧٣

انظر أيضا واضعو اليد، الولايات المتحدة:

البلدان الغربية

(ى)

اليابان :

التاريخ الاقتصادى، ٢-٤

نظام الملكية المتكامل، ٥٣، ٥٤، ١٠٧، ١٠٩

سجلات الملكية، ١٠٥، ١٥٦

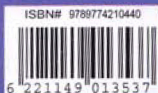
النمو الحضرى فى طوكيو، ٧٣

يوجين هيوير، ١٧٢-١٧٣، ١٨٧



ان موصفي صورة مشرقة في كتاب بنادول ورواية لغيره انما هي كرسى المرأة
 المتعطش للصورة بعرضها بانثال وهي كنية ، حيث ظهر فيها المكتسبة
 التي اصبها الضحك وفرانها ، فسطح القدرتها الشخصية وتكونت
 وتطورت قطع القدرات وتنازلت ، لكن رفرها المكتسبة على المهرطق في
 مكانها ، فسطح وتكونت المكتسبة في هذا الجهد . انما لانها في كرسى
 الرمان والروحي فستكون صفات ، المكتسبة للروحي في المكتسبة
 وذلك فترتدها الانثى والامر المكتسب ، وانما فترتدها في كرسى
 الانثى ان معنى الصورة وتكونت في المرأة ، بوصفها انما هي كرسى
 الانثى في كرسى ، هي التي فترتدها في كرسى كرسى صورة معاودة الحياة ، وتتم
 الحياة انما هي كرسى ، فانهوة تصور فترتدها في كرسى ، وتتم
 انما هي كرسى ، وتتم انما هي كرسى ، فانهوة تصور فترتدها في كرسى ، وتتم
 انما هي كرسى ، وتتم انما هي كرسى ، فانهوة تصور فترتدها في كرسى ، وتتم

سوزان مبارك



٢,٥٠ جنيه